جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر -2- بوزريعة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم الفلسفة

نيتشة و الوجودية

دراسة تحليلية نقدية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة

من إعداد الطالب:
عمور لخضر

تحت إشراف الدكتورة:
أ.د هني خديجة

السنة الجامعية: 2015/2014

كلمة شكر

أتقدم بالشكر والإمتنان إلى الأستاذة الدكتورة: "هني خديجة"

التي أشرفت على البحث ولم تبخل علي بإرشاداتها وتوجيهاتها السديدة

نحو إنجاز هذا البحث والذي أرجو من خلاله أن يكون لبنة وإضافة

إلى البحث الفلسفي وطلب الحقيقة.

الإهداء:

أهدي هذا البحث إلى أفراد أسرتي الكريمة

وإلى كل محبي الصدق والحقيقة

كما لا أنسى بالذكر زوجة أخي المرحومة تغمدها

الله برحمته وعفوه، وأغدق الله من عليائه بالشفاء التام

على إبنها اسماعيل.

الفهرس

الفهرس

كلمة شكر
الإهـــداء
مقدمـــــة.....01

الفصل الأول
الملامح العامة في فلسفة نيتشه

تمهيد: 05
المبحث الأول: العد مية 13
المبحث الثاني: تجاوز الميتافيزيقا. 26
المبحث الثالث: تأويل و حقيقة. 36

الفصل الثاني
الأبعاد الوجودية في فلسفة نيتشه

تمهيد: 50
المبحث الأول: الإنسان، الوجود والماهية.....57
المبحث الثاني: إرادة القوة 72
المبحث الثالث: القلق عند كيركجارد والخطر عن نيتشه.....91
المبحث الرابع: اللامعقول عند فريدريك نيتشه وألبيركامي.....102

الفصل الثالث
امتداد فلسفة نيشه و أثرها على فلاسفة عصره

تمهيد: 122
المبحث الاول : اثرنيتشه على مارتن هيدغر.....125
المبحث الثاني: أثرنيتشه على جون بول سارتر 146
خاتمة : 167
قائمة المصادر و المراجع 172

مقدمة

مقدمة:

هل يمكن قراءة نيتشة قراءة نسقية ؟ سؤال لابد أن كل من قرأ نيتشة يكون قد طرحه على نفسه، فقد كان لهذا الرجل أسلوبه الخاص ، بل و منهجيته الخاصة في مقاربة مفاهيم الوجود الكبرى، و في نظرته لتاريخ الفلسفة إلى درجة يصدق معها ذلك التوصيف الشائع الذي وصف به نيتشة و نعني به : "فيلسوف الاستثناء". و ربما زاد في صدق هذا الوصف ما أكده "كامي" حين صور نيتشه بأنه فيلسوف يمارس النفي المنهجي والتدمير النظامي لما سبقه من أنساق وفلسفات .

إن هذه الميزة التي يكاد يتفرد je suis de la dynamite*، Je ne suis pas un homme، بها نيتشة ، دفعت الكثير من الباحثين ، في فكره إلى ما يشبه التّأكيد على صعوبة -إن لم نقل استحالة - تصنيفه داخل نسق معين أو فلسفة بعينها ، و هي صعوبة تغذيها طبيعة الأسلوب النيتشوي نفسه الذي يعتمد على التّكثيف الدلالي الملغّز (Enégmatique) مما يشجع على التأويل و مع ذلك فلقد كان في فلسفته : إسقاطات و أفكار تحيل إلى مواقف مذهبية متعددة و كما بيّن كارل ياسبرز أن وراء سلطة نيتشه اختبأ الملحدون والمؤمنون، المحافظون والثوريون ، الاشتراكيون والفرديون، العلماء المنهجيون و الحالمون ، السياسيون و اللاسياسيون ، أحرار الفكر و المتعصبون* و بالفعل لم يتردد الباحثون في فكره ، في التأكيد على مفاهيم سبق إليها غيره من فلاسفة القرن العشرين (اللاشعور علم الاجتماع الثقافي، الفلسفة التحليلية ، البراغماتية، الوجودية، الوضعية، اللامعقول) وربما اجتهد البعض في تفسير هذا الأمر مؤكدين على أن هذا الفيلسوف استعاض عن مشكلة الحقيقة ، أو سؤال الحقيقة (بمشكلة معنى الحقيقة) أي قيمة قيمنا الأخلاقية والمعرفية.

(ما الخير qu'est ce que le bien) لا تطرح حسب نيتشه على الطريقة السقراطية القديمة ، بل حسب الطريقة الجنيالوجية أي : من الذي يقرر بأن الخير هو هذا أو ذاك ؟ وبالتالي ففلسفة نيتشه هي فلسفة تقييم القيم (Evaluation des valeurs) و منهجه الأثير هو المنهج الجينالوجي، ولهذا كان لابد لهذه الفلسفة أن تكون فلسفة نقدية في المقام الأول.

و أن يكون الفيلسوف على حد تعبير نيتشه في عنوان أحد كتبه (La Philosophie(au marteauالذي يساهم في أفول الأصنام (Le Crépuscule des idoles). ذلك في اعتقاده بأن الفيلسوف الحقيقي هورجل تجربة (Essai) يرفض الشمولية الدوغمائية وروح النسق، و يؤمن بالصيررة ، و النظر إلى الحياة كما هي.

وهنا تصبح الفلسفة والنسق على طرفي نقيض ، فالنسق يُبنى من خلال لغة متعالمة- مغرقة في التّأمل والتجريد - واقعا آخرا يضحّي بالواقع الحقيقي عبر هاجس التصنيف والتدريج الذي

* قصد نيتشه بهذا التعبير، أنه ليس مثل باقي الفلاسفة الذين يغلب عليهم التفكير المجرد البعيد عن الواقع ،نظرا لفكرة النسق التي تحد من تفكير الفيلسوف وتحد من حريته، فهو أراد بهذا التعبير أن يكون الفيلسوف متحررا في آرائه دون قيود أو سلطة تمنعه من ذلك. ولعل هذا هو سبب ثورته ونقده المستمر

* بيّنت دراسات الباحثين أنّ فلسفة نيتشه كانت تمثل المفهوم الحضاري بالنسبة للإنسان والحياة، إضافة إلى أنها تمثل الحرية الإنسانية بالنسبة للأحرار، والإشتراكيين، والملحدين، والسياسيين. وهذا ما جعلهم يتبنون مواقفه الفلسفية.

يعكس نفورا وازدراء للواقع و الحياة. ومن هنا كانت الميتافيزيقا في نظرنيتشه انعكاسا لمجموعة من القيم الأخلاقية ، التي تهاجم الواقع بإسم واقع آخر خيالي.

إن تماسك الأنساق الفكرية يعبر عن عجز و معاناة التعدد و الاختلاف في الواقع، وهذه هي العدمية التي يريد نيتشة أن يسقط عنها أقنعتها المتعددة والعدمية تحيل إلى المثالية مثلما يحيل اليأس إلى الأمل **le nihilisme suppose l'idéalisme, comme le désespoir suppose l'espoir**

ومن هذه الزاوية كان نيتشه"مفكرا حضاريا" يمارس النقد الثقافي لظاهرة الانحطاط "La Décadence" التي تعد ظاهرة إنسانية مرضية أصابت الحضارة الانسانية كلها.

إنَ نقد المثالية مفتاح جوهري لهم فلسفة نيتشة ، فالمثالية خطاب أخلاقي لا يفصح عن هويته، يمتهن الواقع و يوظف ثنائيات "المحسوس، المعقول، الظواهر، والشيء في ذاته" يدعونا مع أفلاطون إلى اعتبار الحياة مجرد ضلال زائفة ، و أوهام يجب تجاوزها ، كل هذا تحت قناع فلسفي معرفي يستعيض عما هو كائن (الحياة)، بما ينبغي أن يكون (النّسق) . إن الخطوة الثانية في فلسفة نيتشة، بعد الجانب النقدي هو الدعوة إلى خلق قيم جديدة تختلف عن قيم الضعف ، كما تتجلى في اللاهوت المسيحي (أو أخلاق الضعفاء)، التي تريد إلغاء الميول والرغبات Les passions و تثمّن الكبت والحرمان بإعطائه بعدا أخلاقيا يستحقه. و هذا حد لإرادة الإنسان وقوته، وعليه يدعو نيتشة إلى فضاء بمعزل عن الخير و الشر، و بالتالي فضح الأساس اللاشعوري للقيم الأخلاقية السائدة . والتأكيد الضمني على أن كل خطاب معرفي يعبر عن سلطة ما، و منه كانت الحقيقة مجرد وجهة نظر وكان التفكير السائد لغة تزيّف الواقع.

إن المشروع الفلسفي لنيتشه لا يستكمل مراحله، إلا بتجاوز القيم التقليدية و البدء في ممارسة الحياة وفق منظور جديد ، أساسه ارادة القوة التي هي إرادة خلاقة "Créative" تتسامى بالميول و لا تكبتها و تعاني الحياة في امتلائها وتراثها و لاتستعيض عنها بعالم مثالي مجرد.

لقد حرصت كثير من الفلسفات على تأويل الخطاب النيتشوي بما يتفق مع مسلماتها ومبادئها الأساسية ، فالوضعيون يرون أنه قدم نقدا عميقا للميتافيزيقا ، و بعض التحليليين يعتبرونه رائدا سبق غيره إلى الوعي بقيمة التحليل اللغوي و القائل : "إن التفكير السائد لغة تزيّف الواقع"، وربما كان الوجوديون أكثر من غيرهم نجاحا في هذا الصدد لأن فلسفة نيتشة تحيل إلى مبدأ الوجودية الأساسي، و هو رفض المثالية وتحطيم فكرة النسق لذلك يحرص كثير من الفلاسفة الوجوديين على أن ينسبوا تفكير نيتشة إلى منهجهم و يعدّوه واحدا منهم ، بل يصل الأمر ببعضهم إلى حد المماهاة بين نيتشة والوجودية واعتباره فيلسوفاً وجودياً بكل ما تحملة الكلمة من معنى.

سنحاول في هذا البحث أن نجيب على السؤال التالي: **إلى أي مدى يمكن قراءة نيتشة قراءة وجودية** ؟و إذا كان تفكير هذا الفيلسوف يتقاطع مع مسلمات الوجودية (الربط بين التفكير والحياة، نقد المثالية، الصيرورة ورفض النسق) . **فهل هذا كاف لاعتباره واحدا من الوجوديين؟**

و بمعنى آخر: **ما طبيعة التأثير الذي يكون قد مارسه نيتشة على الوجوديين ؟**

إن رواد الوجودية الوجودية (هيدغر ، ياسبرز و بدرجة أقل كامي) أولوا عناية خاصة لنيتشة وقدّموا دراسات مستفيضة حول فلسفته، تحاول خاصة مع هيدغر إيجاد مبررات لموقف الوجودية في فلسفته "فمقولة "موت الإله" لا تعني عند هيدغر الإله المسيحي فقط أو ألهة الأديان بوجه عام بل المقصود بها الميتافيزيقا والمثل، و بالتالي رفض كل تشريع للقيّم خارج الذات، وإفساح المجال أمام الإنسان لتحقيق كل إمكاناته الوجودية ، و هذا يحيل إلى الحرية و أسبقية الوجود عن الماهية.

فالإنسان بالنسبة إلى نيتشه شيء ينبغي تجاوزه وبالتالي ليست هناك ماهية ناجزة ثابتة، و كل هذا له علاقة بفكرة الإلحاد التي يشترك فيه مع كثير من الوجوديين هذا بالإضافة إلى عدد من الأفكار التي سنتطرق إليها من خلال هذا البحث.

إن الأسباب التي أدت بنا إلى الاهتمام بهذا الموضوع، والرغبة المنشودة في معالجته تتمثل في محاولة الوقوف على حقيقة الطابع الإستثنائي لتفكير نيتشة ، و معرفة قيمة قراءة الوجوديين لفلسفته ، و مضامين التأويل الذي يستهدف تبيّئة التفكير النيتشوي في إطار الوجودية، ولا يخفى ما في البحث من صعوبات أبرزها الترجمة و اللغة النيتشوية ذاتها، التي تعتمد على الأسلوب الرمزي ، التكييف الدلالي بالإضافة إلى الطابع التوجيهي الذي يكتنف جل الدراسات المقدمة حول فلسفة نيتشة وقد توصلنا إلى أن فلسفة نيتشة انتقل صداها إلى العصر الحديث من خلال مواقفه الجريئة المتحررة، إضافة إلى تأثيره على التيارات الفلسفية في فرنسا لا سيما الوجودية، و كذا أيضا في ألمانيا وطنه الأصلي كونه أثّر في التيارات الفلسفية عامة و الوجودية بالخصوص.

وعليه قمنا بتقسيم البحث إلى ثلاثة فصول. الفصل الأول كان عنوانه الملامح العامة في فلسفة نيتشة وقسمناه إلى مباحث ثلاثة ، المبحث الأول: العدمية، المبحث الثاني: تجاوز الميتافيزيقا و المبحث الثالث، تأويل و حقيقة . أما الفصل الثاني كان عنوانه الأبعاد الوجودية في فلسفة نيتشة حيث وضعنا فيه أربعة مباحث. المبحث الأول: الإنسان و الوجود، الماهية، والمبحث الثاني: إرادة القوة، والمبحث الثالث: مفهوم القلق عند كيركجارد، و مفهوم الخطر عند نيتشة .

أما المبحث الرابع : اللاممعقول عند نيتشة و عند كامي.

أمّا في الفصل الثالث وضعنا عنوان امتداد فلسفة نيتشه وأثرها على فلاسفة عصره، وقسّمناه إلى مبحثين: الأول أثر نيتشه على مارتن هيدغر، والمبحث الثاني: أثر نيتشه على جون بول سارتر، وختمنا البحث بخاتمة ونتائج لهذا البحث.

الفصل الأول
الملامح العامة في فلسفة نيتشة

تمهـيد

المبحث الأول: العدمية

المبحث الثاني: تجاوز الميتافيزيقـــا

المبحث الثالث: تـــأويل وحـــــقيقة

تمهيد:

قبل التطرق إلى الملامح العامة في فلسفة نيتشه، يجب الإطلاع على النقد الذي قدمه كير كجارد (1813-1855) إلى فريديريك هيغل (1770-1831). وذلك لأن الفلسفة الهغيلية إعتمدت على التفكير المجرد في فهم الحقيقة الفلسفية, أو ماعرف بالجدل (الإثبات والنفي) وينبغي أن نشير هنا أن هيغل أخذ فكرة الجدل من عند الفيلسوف اليوناني هرقليطس ويعني به فكرة الصيرورة والتغير. ففكرة المطلق هي الأساس في التفكير الفلسفي، لأن العقل وحده هو الذي يدرك معنى الحقيقة المطلقة عندئذ يجب إبراز قيمة الجدل الفلسفي بين هيغل و كير كجارد الذي إعتبر التفكير المجرد ماهو إلا غلق لي روح التفلسف و التساؤل الذي ينتاب الإنسان في حياته الطويلة وعليه تقول الدراسات الفلسفية ان ملامح الوجودية بدات تظهر عندما قدم كانط (1724-1804) نقدا لكوجيتو ديكارت (1596-1650) متجاوزا بذلك فكرة الماهية التي طبعت تاريخ الفلسفة كله. إلى ان جاء كيركجارد وقدم هو الآخر نقدا لفلسفة هيغل ويعد هذا مظهرا آخرا لبروز الوجودية كفلسفة جديدة معاصرة، غيرت من الطرح الفلسفي نحو البحث في الوجود الإنساني قبل إدراك ماهيته كما زعمت الفلسفات التقليدية السابقة. لقد ركز كيركجارد على المعاناة الإنسانية الواقعية مثل: الخطيئة، الموت، الذنب، القلق، الإنتحار، الحياة، العزلة إلى غير ذلك واعتبر الفلسفة هنا أن تعالج هذه المشاكل الواقعية، من دون ان تبقى في نطاق التفكير المجرد العقلاني الذي طغى عليه النسق البعيد ان الحياة. من هنا ركز نيتش على هذه النظرة واعتبرها ثورة في الفكر الفلسفي. ولكي نعرف فلسفته يجب معرفة المراحل التاريخية لمسيرته الفكرية. يعني وضع نيتشه في سياقه التاريخي، و بالتالي تحديد المصادر الفلسفية التي أثرت في شخصه وفي فكره، و كيف أثر هو في عصره، و ما هو المبدأ الذي اعتمد عليه في فلسفته ؟

من خلال هذه التساؤلات نريد أن نعرف طبيعة كل مرحلة من مراحل حياته، و بما اتسمت كل منها عن غيرها من المراحل، إضافة إلى الكتابات وعلاقتها بكل حقبة تاريخية، طالما ن صدور المؤلفات في أزمنة مختلفة متباعدة، تعبر عن آراء الفيلسوف في بداية عمره، و منتصف عمره، و آخر عمره، و هي بلا شك تختلف أشد الاختلاف عن بعضها البعض، والشائع لدى الباحثين أن تفكير نيتشه ينقسم إلى مراحل ثلاث:

1-مرحلة فنية رومانتيكية: حيث تمتد من 1869 إلى غاية 1876، و هي المرحلة التي كان فيها نيتشه واقعا تحت تأثير فلسفة "شوبنهاور وفاجنر"[1]، لم يكن تأثر نيتشه بفلسفة شوبنهاور تأثيرا كاملا؛ وذلك لأن فلسفة شوبنهاور كانت تدور حول فكرة الألم، من منطلق أن العالم الذي نعيش فيه هو مصدر للألم . وإن كنا قد قلنا أن شوبنهاور كان له تأثيره في تكوين فكر نيتشه، فقد رأى فيه أنه الملهم الأوّل في بروز فكره الفلسفي منذ البداية. و لاسيما كتاب

[1] فؤاد زكريا، نوابغ الفكر الغربي، نيتشه، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الثالثة، ص:49.

شوبنهاور العالم كإرادة و تمثل (Le monde comme volenté et répresentation)، فهو عبارة عن آراء فلسفية مشوقة تحث الإنسان على تحقيق الإرادة، أمام شرور العالم وسعي الإنسان نحو التحكم بعناية في ذاته في وجوده، غير أن نيتشه لم يتأثر مطلقا بشوبنهاور، كون هذا الأخير رأى أن العالم قد يفهم من ناحية أخلاقية بحتة تتمثل في القداسة والزهد والانصراف عن ممارسة الحياة والسعي من أجل فهمها، مما يجعل الإنسان ينسى همومه واضطرابه، من هنا لم يأخذ نيتشه من شوبنهاور اتجاهه الأوّل نتيجة أن الزهد الأخلاقي يميت الإرادة الإنسانية، و لا يعد عندئذ وسيلة للخلاص من الألم، و إنما اعترف بالفن[1] باعتباره رسالة إنسانية نبيلة، تفسر لنا العالم بشكل منظم و خاصة حب نيتشه العميق للحياة!وعلى هذا الأساس اعتبر حبه العميق للحياة هو المبدأ الجوهري لفلسفته .

ميل نيتشه إلى الفن يعني أنّه رأى فيه قدرة الإنسان على فهم معنى الحياة بعمق وممارستها بشكل متصل دون البقاء بعيدا عنها، و هنا خالف شوبنهاور في دعوته إلى كبت جماح الإرادة البشرية نحو الحياة، و تزداد هذه الفكرة أكثر اتضاحا في مدى تأثر نيتشه بفاجنر و إعجابه الشديد بفنه الموسيقي[2]، محاولة منه إلى تقويم الحياة القديمة و الحديثة تقويما جديدا، من خلال تأثره بالنزعة اليونانية الأبولونية والديونيزية. وخاصة الديونيزية فهي برأيه أرقى مرحلة وصل إليها الفكر اليوناني.

ويمثل الفن في نظره قمة الوجود البشري، حيث تجلى منذ الفكر اليوناني وخاصة في مرحلة ما قبل السقراطية، حيث عبر عنها بفكرة الديونيزية و هي اندماج الإنسان مع الطبيعة عكس تلك الحالة المستكينة الجامدة التي غلب عليها التفكير العقلي المجرد، نتيجة وضع الفكر الفلسفي في قوالب نسقية تعرقل حيوية الفكر الفلسفي، وفقدان الحياة على إثر ذلك معناها الإنساني والحضاري.

ففي هذه المرحلة الفنية الرومانتكية، التي اشتهر بها نيتشه في كتاباته الأولى نجده متأثرا بالروح الإغريقية اليونانية الهرقليطسية القائلة: بمبدأ الصيرورة، والبارمنيدية القائلة: بمبدأ الثبات لا لشيء إلا أنها في نظرة لم تخرج عن نطاق تفسير أصل الكون، ومن ثم محاولة منه إسقاط هذه الديونيزية على عصره الحديث، و بناء منظومة الفكر الفلسفي وإعادة بناء و تقويم القيم البشرية، و فتح مجال شاسع لميادين الإبداع الإنساني مع ضرورة تقويم الإبداع الإنساني مع ضرورة تقويم الدين و الميتافيزيقا. هناك ظهر كتابه ميلاد المأساة (L'origine de la tragique) وهو عبارة عن كتاب نظرية في الفن (La Théorie de l'art) يعالج فيه التصور الأبولوني للفن، الذي يناقص التصور الديونيزي للفن، كونه يعتمد على الإرادة

[1]Friedrich Neitszche, **La philosophie, l'époque tragique des grecs**, Traduit par jean louis backes, et Michel Haar et Mer B. de lounay, (Edition Gaillmard, paris, 1975), P 181.
[2] Vatimo agianni, **Introduction a Neitzsche** (de Bocek et larcier**,** 1991, Pourl' Edition française, départment de Bocek 1991 Université Paris, Bruxelles), P98.

البشرية الخلّاقة و يذكّرنا نيتشه أن خير ما يعبّر عن تلك الإرادة هي الموسيقى[1]، وهنا تبرز لنا العلاقة الوطيدة بينه و بين فاجنر، و لعل هذه العلاقة المميزة في نظر نيتشه هي خير ما ميز هذه العودة الناهضة (المعقول و اللامعقول)، أما المرحلة الثانية هي وضعية نقدية و تمتد من من 1876 إلى غاية 1982، وفيها نألف تأثر نيتشه بالمنهج العلمي، و التخلص من الرومانتيكية السابقة، و حرصه الدؤوب على توجيه النقد إلى مقومات الحياة الإنسانية في العصر الحديث، فينتقد الميتافيزيقا بمفهوما التقليدي ويراها هنا أقرب إلى التفكير المجرد، وما نجم عنه من تردي مستوى القيم كلها بما فيها الأخلاق ولابد من إعادة بنائها من جديد ومراجعة الأسس الفلسفية، هذا ما يدل بوضوح مدى إعجابه بالمنهج العلمي الوضعي، في تحديد المعاني و الأفكار، في هذا الشأن ظهرت مؤلفاته منها العلم المرح (1882)، أمور إنسانية في جزأين (1876، 1879)، الفجر (1881) ... إلخ، في هذه المرحلة بالذات تتسم كتابات نيتشه بالحدة في النقد الفلسفي لديه، على الميتافيزيقا التقليدية، و على القيم ما لحق بها من انحطاط، وكذا أيضا الدين وما تشابهه من تصرفات وسلوكات أساءت إلى الإنسانية ولا يكون النقد نقدا فعالا إذا لم يتناول الحقيقة بالذات، والمعرفة الحقيقية والأخلاق الحقيقية، والدين الحقيقي.[2]أراد نيتشه بالنقد أن يخلق منهجا جنيالوجيا يعيد به كل الموضوعات الفلسفية، ويعطي لها أبعادا إنسانية خالصة ويتوقف على حقيقة دور العلم في حياة الإنسان والحضارة، ومشاركته لدور الفلسفة باعتبارها المنفذ الأساسي لمعالجة المشكلات البشرية الكبرى. وعليه اعتبر في نظر البعض من الباحثين أنه أحد المنادين بتطبيق مبادئ الوضعية المنطقية الجديدة ضمن نطاق الفلسفة التحليلية المعاصرة.

أمّا المرحلة الأخيرة من حياته فقد اتصفت بكتابات فلسفية مشقوّقة، قريبة إلى الشعر والتصوف وسميت هذه المرحلة بالصوفية الخالصة وتبدأ من 1883 إلى غاية 1888 فيها انفرد نيتشه عن غيره من الفلاسفة، و سار في طريق خاص به . تميّز أسلوب كتاباته الأخيرة بأسلوب صوفي مفرط بعيدا عن ذلك التحليل النقدي الذي ألفناه عنده منذ تأثره بالروح العلمية والتفكير المنطقي واعتبر كتابه "هكذا تكلم زرادشت" 1883 نقطة تحول جذري في التاريخ الفلسفي كله - إن لم نقل - في العصر الحديث بالخصوص، ويهدف فيه إلىإبراز صورة الإنسانالأعلى القادر على مجابهة المحن والصعاب في هذه الحياة. فهو وحده يمكن أن يعيد كل القيم الإنسانية إلى مكانها الحقيقي الجوهري.

لقد ورد في هذا الكتاب في بعض الأحيان عبارة عن مقتطفات من الحكمة والتصوف والشعر فيها سحر الكلام العذب، وجمال المعنى والتأكيد على قوة الإرادة، والعود الأبدي.

---

[1]M.S. SILK AND J-P STERN,**Neitzsche on Tragedy**,(Combridge University press 1981),P172-173.

[2] جيل دلوز، **نيتشه و الفلسفة**، ترجمة أسامة الحاج، (المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1993) ص 115.

وظهر في هذه الفترة كتاباته الأخيرة منها إرادة القوة 1884، بمعزل عن الخير و الشر 1885، أصل الأخلاق 1887، قضية فاجنر 1888 . وعلى هذا الأساس أردنا أن نحدد المسار التاريخي والفكري لنيتشهالإنسان ونيتشه الفيلسوف في كل مرحلة من مراحل حياته وبماذا تميزت ونوعية الكتابات التي تعبر عنها، مع الإشارة إلى الأسباب الجوهرية المتباينة بين المرحلة الفنية الرومانتيكية والمرحلة الوضعية النقدية، والمرحلة الصوفية الخالصة،وإختلاف المؤلفات بين هذه المراحل الثلاث

والملاحظ في هذه الفترات هو اتجاه نيتشهإلى نقد المعقولية المجردة، و تمجيد وإعلاء للحياة الإنسانية و التعلق بالطبيعة والحياة الأرضية، فهنا تتمثل وحدة شخصية الفيلسوف نيتشه، التي انطبعت فيه طوال حياته. ولا يعد هذا تعلقا متحجرا بالمبادئ بل اتخذ هذا التعلق أساليب متنوعة عبرت عن كل مراحل عمره، مما تنفي عن نيتشه صفة (المذهبية) بمعناها الكلاسيكي، وتنفي عنه تلك المزاعم التي أراد أن يلصقها به أصحاب الخيال والشعر،بأنّه متناقض، وجامح، وجنون مفرط، لكن شخصيته تظل ذات أثر يعبر عن عناصرها الأساسية.

هذا ما جعل نيتشه يعتبر أن الفلسفة، يجب أن تبتعد عن الركود و تعالج حياة الإنسان، وتواكب التطور و التجديد الذي يطبع الحياة في سريانها الطبيعي. ذلك نتيجة ما كرّسته المذاهب الفلسفية القديمة.

لقد أكدّ كل من كتب عن نيتشه أنه فيلسوف استثنائي، لا يخضع لمذهب معين، فآراؤه ليست ثابتة بل متحرّرة أكثر . أمام هذا، تساءل المهتمون بتراثه أو الباحثون فيه:

أين يمكن أن نضع نيتشه من بين الفلاسفة؟!

و ما دام يرفض فكرة التمذهب في الفلسفة:**فأي مذهب يدعو إليه ؟**

نريد أن نجد مبرّرات مقنعة تقرّبنا إلى حقيقة الفكر النيتشوي، و محاولة المقارنة بين تفكيره الفلسفي الثائر، و بين مختلف المذاهب الفلسفية الأخرى. فنجد بعض المذاهب اقترنت بفلسفته و نذكر منها: الواقعية "Réalisme"، البراغماتية "Pragmatisme"، الوجودية "L'existentialisme"، الوضعية "Positivisme "، على الرغم ممّا نجده فيه من تشابه بينه و بين هذه المذاهب، يخالف المثاليين في نظرتهم الى الأخلاق في إعتقاده أنها خاضعة للتفكير المجرد ، و يتفق مع الواقعيين في نظرتهم إلى الأخلاق على كونها ذات ارتباطبالواقع، في حين يخالفهم في المجال المعرفي، لأنهم رأوا أن العالم الحقيقي كما يظهر لنا في الواقع، و أنّه في ذاته لا يختلف عمّا نراه ماثلا أمامنا[1]، كما نجد له تشابها مع الوضعية المنطقية حينما

[1]Friedrich Neitzsche, **Le gai savoir**, Traduit par pierre Klossowski , (Gaillmard, 1989), P 57.

جعلته يتأثر تأثرا كبيراً بالتقدم العلمي، بل إن إحدى مراحل تفكير الفلسفي يطلق عليه اسم "الفترة الوضعية" *.

في هذا السياق يعتبر الفيلسوف الفرنسي "أوغست كونت" "Auguste comte" أوّل من وضع مبادئ الوضعية بمفهومها الكلاسيكي. حيث نتج عنه تطور هائل في العلوم من حيث الموضوع و المنهج، هنا تشترك مع الوضعية بمفهومها الحديث في أن العلم قادر على المشاكل الفلسفية ". من هنا قال نيتشه: "إني لأعجب بذلك الشك الذي أجيب عنه بقولي: فلنجرب ذلك !ولست أريد أن أسمع شيئا عن كل الأمور والمشاكل التي لا تسمح بإجراء التجربة عليها. تلك هي حدود معنى الحقيقة في نظري، وهنا تفقد الشجاعة كل مبرّر لها"[1].

يعتبر نيتشه مبدأ التحقيق التجريبي Vérification* الذي صار أساسا للوضعية المنطقية فيما بعد مبدأ جوهريا إذ نألف لديه آراءا تشبه آراء الوضعية الحديثة، في قضايا معينة مثل أصل القيم، النسبية الأخلاقية .... إلخ.

رغم اعتراف نيتشه بالمنهج التجريبي العلمي، لكنه ينقد الوضعية في نظرتها إلى المبادئ الأخلاقية العامة نظرة علمية، في هذا الصدد نجد له ميلا نحو الصوفية التي طبعت كتاباته الأخيرة، كما له تشابها أيضا مع البراغماتية[2]، ولا سيما في نقدها إلى العقل الخالص، ومن ثم ربطه بمقتضيات الواقع البشري . ويجب على العقل أن يخضع لحاجات الإنسان النفعية، عوض أن يبقى مع المشكلات الميتافيزيقية النظرية، التي تبقى في اعتقادهم مفارقة وبعيدة عن الواقع الإنساني، إن البراغماتية تظهر في موقف نيتشه، كما تظهر الواقعية، الوضعية، الوجودية .... إلخ.

إن التشابه الذي نجده بين نيتشه و البراغماتيين يتمثل في نقد المشاكل الميتافزيقية القديمة، مبحث القيم، نقد فكرة الجوهر، فكرة الوجود .. إلخ، إضافة إلى ذلك في نظرتهما إلى الحقيقة كونها يجب أن ترتبط بواقع الإنسانو ينقدهم نيتشه عندما قلّلوا من أهمية العلم نظراً لحدة التطرّف الفكري الذي طبع الفلسفة البراغماتية.

---

* الفترة الوضعية تطلق هذه الفترة عادة على مراحل التفكير الفلسفي لدى نيتشه، حيث نلاحظ تأثره الشديد بالمنهج التجريبي العلمي، ليس لأنه يوافق الوضعيين في كل القضايا الفلسفية بل في ما رآه في أن العلم يقدم لنا الرّوح الموضوعية،حيث أراد أن يجسّدها في كتابه "العود الأبدي" رغم صوفيته الواضحة، و إن كان يعترف بها فذلك في مجالها الخاص فقط

[1] **Ibid** , P58.

* مبدأ التحقيق التجريبي Vérification اشتهرت به الوضعية المنطقية في العصر الحديث، و من أعضائها رودولف كارناب برتراند راسل، بول فريجه وتغير اسمها في العصر الحديث بعدما كانت تسمى حلقة فيينه قديما. و هناك بعد المناطقة اللغويين مثل فيتغينشتاين و كارل بوبر وغيرهم الذين كانت لهم مواقف فلسفية منطقية خالفت الوضعية المنطقية فيما بعد، منها قانون التكذيب الذي جاء به كرل بوبر. والوضعية الحديثة لهذا المفهوم تجاوزت وضعية أوغست كونت، والدليل على ذلك اهتمامها بفلسفة اللغة و ضبط العبارات اللغوية ضبطا منطقيا.

[2] فؤاد زكريا، **نوابغ الفكر الغربي، نيتشه**، (دار المعارف، القاهرة، مصر العربية، الطبعة الثالثة)، ص 41-42.

من هنا بدا تفكير نيتشه أوسع بكثير من أن ينحصر في قضايا فلسفية اقتصر عليها البراغماتيون. لذا اعتبره بعض الباحثين قريبا من الوجودية أكثر، حتى عدّ فيلسوفا وجوديا في المقام الأوّل؛ بل جعلوه واحداً منهمفتجد في فلسفته بعض المفاهيم الوجودية، مثل تصوره للإنسان، باعتباره الوجود الفعلي في الحياة، و تجاوز كل المعاناة التي يعاني منها الإنسان المعاصر (قلق، معاناة، موت، تحرّر، بؤس، شقاء، مخاطرة...) لذا اعتبر الإنسان نوعان الإنسانالأعلى و الإنسان العادي، و تفصل بينهما فكرة أن الوجود سابق عن الماهية، فتجد هنا تشابها بين فكرة الخطر عند نيتشه و فكرة القلق لدى كيركجارد (Kierkeggard)، فالإنسان في اعتقاد نيتشه خالق لذاته[1]، أي أن هذا النقص هو مصدر حريته، وفي مقدورنا أن نفسر هنا فكرة جوهرية لديه وهي إرادة القوة، حيث تعد مظهرا أساسيا يميز الوجودية، سيّما وأنها تهتم بالإنسان على اعتبار أنه كائن يتوق إلى تجاوز ماهيته باستمرار، فهو عندئذ وجودي أكثر من الوجوديين.

كما نجد لدى نيتشه بعض التقريب من فلاسفة وجوديين آخرين أمثال هيدغر Heideggerو خاصة في نقد المفهوم الدوغمائي للميتافيزيقا، ومحاولة بنائها بناء وجوديا يعتمد على ذاتية الفرد كون أن هيدغر نقل مبحث الأنطولوجيا من المبحث في الموضوع نحو البحث في الذات. من هنا جاء رفضه للفلسفات التقليدية.

حديث نيتشه عن الإنسان الأرقى "Supermane" له تفسير خاص لفكرة العود الأبدي[2]، بعد التطرق إلى الملامح العامة لفلسفة نيتشه، تبيّن لنا أن تفكيره لا يعني البتة أنه يخضع خضوعاً مطلقاً لواحد منهما. هذا ما أقرّته دراسات بعض الباحثين المهتمين. بالفكر النيتشوي على وجه الخصوص، أن نيتشه فيلسوف لا ينتمي إلى أي مذهب يستطيع أن يشمل جميع نواحي فلسفته.

إنّ صعوبة إدراج نيتشه في أي مذهب لا يعني بالضرورة أنّ فلسفته في نهاية المطاف تفتقر إلى الوحدة والتماسك، كل ذلك نابع من نفسيته الثائرة المتحررة، تبثّ فيك وأنت تتابعها شعوراً نحو التعالي و الطموح الذي لا يرضى بالوثبات. إن هذه الجرأة من قبل نيتشه جعلته محل اهتمام الفلاسفة ،وتأثرهم بلفسفته من جهة، ناهيك عن اهتمام الباحثين بفكره من جهة أخرى، ولسوف يظلّ فكره، رغم صعوبة تصنيفه يتّسم بالاتّساق والتماسك.

في هذا السياق تبدو لنا الملامح الأساسية لفلسفة نيتشهواضحة ضمن فلسفة نشأت بفضل الأثر الذي أحدثه فيه الفيلسوف أرتور شوبنهاور، والفنان الموسيقي فاجنر، ومن قبلهما ولوعه الشديد بالفكر اليوناني الإغريقي، هذا التّأثر تترجمه تلك المؤلفات الكثيرة التي ألّفها نيتشه أثناء

[1] **المرجع نفسه**، ص48.
[2] فريدريك نيتشه، **العلم المرح**، ترجمة وتقديم حسان بورقبة، محمد الناجي، (افريقيا، المغرب، 2000)، ص138.

مراحله التاريخية والفكرية، مصقولة بتجارب إنسانية عميقة الأثر في الإنسان وفي الحياة. إن نتيجة التأثر هذه ليست محل إعجاب وتقدير فحسب، بل تجد لدى هذا الفيلسوف نوعا من التجاوز بحيث يستعمل بعض أفكار غيره لإفساح المجال لظهور رؤى فلسفية كانت كامنة لديه، فتنبثق واضحة في شكل نقد محتدم لطبيعة ذلك العصر الذي ترعرع فيه ونهل من أفكاره ومواقفه. الملفت للانتباه أن نيتشه لم يتأثرا تأثرا باديا من قبل أساتذته، كما هو الشأن لذوي الأنساق الفلسفية المتشبثة بمبادئ كل مذهب. وإن كنا نلمس بين مؤلفاته أحيانا بعض الأثر بالمصادر الأساسية المشكلة لفكره الفلسفي، إلا أن التأثر زاده عمقا وتحررا نحو حبه العميق للحياة. إرادة نيتشه هي محاولته المستمرة في خلق نمط حياة جديد على شاكلة العصر اليوناني القديم، حيث التحول من التفكير الفلسفي الكلاسيكي المجرد، نحو النزول إلى ممارسة الحياة بكل تجلياتها عن طريق الفنون. وهذا ما تجسد في نظره في الحياة الديونيزية (Dionynisme) وهي المرحلة المعبرة بحق عن الجذور العميقة لمعنى الحياة، ولعلك تجد وأن تقرأ كتابات نيتشه ذلك الشعور الفياض العميق بمبدأ إرادة الحياة، وهذا هو المبدأ الأساسي في فلسفته طوال حياته .

ويرى أن هذا العصر الحديث طغت عليه أشكال التّسلط والبؤس والشقاء، ممّا نجم عنها شعور الإنسان بالاغتراب على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع، بمعنى سلب الإنسان لذاته ولوجوده و كل ما يزخر به من قيم ودين، وثقافة وفن، ماتت بفعل الرتابة والخمول المستكين الذي ضرب على الإنسان منذ آلاف السنين . لقد أراد نيتشه بهذه الإرادة الثائرة، أن يخلق نمطا يونانياً، ويجسده على العصر الحديث، حتى يغدو عصراً تنويرياً يهتم بالفكر لا من أجل الفكر، بل يهتم به أثناء ربطه ربطا متماسكاً بالحياة.

فلا يمكننا - في نظره - أن نتقدم نحو بناء حضارة إنسانية عميقة متجذرة إلا إذا امتلكنا القدرة على تخطي الأزمات وكيفية معالجتها . أين يتم ذلك بفتح المجال للإنسان أولاً ثم الاهتمام بوجوده ثانيا، وهذا ما يؤكده الوجوديون في مواقفهم الفلسفية على مر الأزمنة والحقب التاريخية . لذا اتسمت كتاباته بالحرقة والمرارة جراء ما كان يعانيه في تربيته منذ الطفولة، خصوصاً وجوده في بيئة نسائية خالصة، وتربية دينية صارمة، جعلته يثور على هذا الوضع المتأزّم والذي في رأيه أبقاه رهين الماضي، ثم يمارس حب الحياة وما يوجد فيها من طموح وأمال مشرقة، حيث تفتح له الآفاق، ويدرك لا محالة أنها ستصبح تجارب إنسانية صرفة، فلا معنى للحياة إذ هي لم تمارس ممارسة حقيقية يترك فيها الإنسان آثارا إبداعية تعبر عن وجوده الحقيقي، ولا سيما إذا ربط فكره بالحياة، دون الإنفصال عنها وهذا ما ساد الفكر الإنساني طوال مراحل الوجود البشري، وعليه يجب على الإنسان أن يضحي من أجل الحفاظ على حياته.

بعد مرور قرن من الزمن على رحيل نيتشه– نجده حاضرا بشكل بارز في الفكر المعاصر حضورا لم يعرفه يوم كان حيّاً[1]، فانتشرت أعماله وكثرت المؤلفات التي تكتب عنه والشروحات المطولة عن فلسفته. إننا نقول عن نيتشه أنه لم يتأثر بالنسقية بتاتا، مثل باقي الفلاسفة الذين يضعون مواقفهم الحياتية في قالب التمذهب والعمل بالمبادئ الفكرية حتى لا يحيد عنها العقل البشري . فهو لم يَرُق له مثل هذا النمط من التفكير الفلسفي. والجدير بالذكر هنا أنه أثّر هو في غيره من فلاسفة عصره رغم ما كانوا يطمحون هم إليه في وضع اهتمامات الفلسفة ضمن فكرة النسق. لقد أكد الباحثون الذين قرأوا التراث النيتشوي[2] أنه فيلسوف تدرك وأنت تقرأ له أنه صاحب نسق معين، في حين آخر تجد نفسك أمام أفكار تحررية تنشد الكمال الإنساني . في فلسفته تجد كل ألوان التفكير الفلسفي (فكر عقلي مجرد، تجارب حسية، براغماتية، نفعية، وجودية إلحادية، ومؤمنة،، بنيوية وتفكيك ...إلخ ناهيك نظرته إلى الفن ووظيفته الجوهرية في الحياة. عندما تقرأ بعمق في كتاباته تكشف سراً بعد سر أن المذاهب الفلسفية عوض أن تجتذبه إليها، جذبها هو إليه، وهذا يدل على أصل وصدق المشاعر والحالات النفسية من خلال كتاباته، ومحاولة تجسيدها في الواقع.

فهو لا يتوان إطلاقا في الارتقاء بالإنسانإلىمصف الحضارة، والتعالي في كل من الدين، والقيم،، والأخلاق، والميتافيزيقا. إن تتبع مراحل تجاربه الفلسفية تجعلك تدرك أنّه من الصعوبة بمكان أن تضعه في نمط فكري معين؛ وذلك كما يؤكد الباحثون أنّه لا يتمحور في مواقف فلسفية ثابتة. فيجب تحديد الأسباب الفكرية في كل مرحلة من مراحل حياته وفكره، ثم تحاول أن تربط بينها حتى تشكل لنا في نهاية المطاف تجارب شخصية إنسانية لها خبرة بمعضلة الحياة وكثرة التجارب المريرة، مما يجعل أسلوب الكتابة في بعض الأحايين ذات طابع تحرري من قبضة الزمن الذي طبعه الخمول والاعتقاد الجازم. إنّ الأحكام المسبقة التي نمتلكها نتوهم على إثرها بأننا نمتلك الحقيقة. لذا ثار نيتشه أمام هذا الوضع الذي انعكس على الفكر الفلسفي قديماً، وعليه يجب أن يسير بمعية الحياة جنبا إلى جنب ، في حين يفجّر نيتشة الوضع ويشرع في عمل حفري لإعادة بناء التفكير البشري من جديد، وإعادة ترتيب القضايا الإنسانية المصيرية في الحياة الفلسفية برمتها.

وعلى هذا الأساس بدت حياة نيتشه في بدايتها مشبّعة بالرّوح الرومانتيكية الفنية، ومرورا بإعجابه الشديد بدور العلم في الحياة، من خلال روح علمية وضعية ومنطقية انتهاء بالعود الأبدي الدائم جرّاء تفعيل إرادة القوة في شخص الإنسانالأعلى على نمط الحكيم زرادشت "ZaratHoustra"، أين يجد فيض الحكمة والزهد التصوفي فيه تحرر من براثن

[1] غانم هنا، **نيتشه فاصل بين حديث ومعاصر**، (مقال في مجلة عالم الفكر، العدد 4)، ص16.

[2]Vatimo agianni, **Introduction a Neitzsche** (de Bocek et larcier**,** 1991, Pourl' Edition française, départment de Bocek 1991 Univercité Paris, Bruxelles), P 139.

وفساد العالم الحسي والتعالي نحو صفوة الحكماء والزهّاد. لنقل: على نمط زراد شت، هكذا تكلّم نيتشه، عوض هكذا تكلّم زراد شت.

المبحث الأول: العدمية(NiHilisme)

برزت الملامح الأولى لمفهوم العدمية عند الأديب الروسي المشهور F.Dostoevsky (1821-1881) الذي عرف بغزارة إنتاجه الأدبي في القصة والرواية وقد اتخذت العدمية هنا مفهوما أدبيا وجدانيا يعبّر عن الحالات الوجدانية للأديب أو الشاعر، و وجد هذا المصطلح أكثر في كتابات الفلاسفة والأدباء الروس ومنهم باكونين الفيلسوف الروسي ، الذي اشتهر بنظريته الفوضوية التي كانت ترى أن فكرة الدولة (L'état) ما هي إلا تسلط وجبروت وأداة قمع فرضت على الإنسان أشكال الظلم و التعسف. وكان لابد من الدعوة إلى القضاء عليها و محاربتها، كما نجدها أيضا عند الفيلسوف الإلماني جاكوبي (1743-1819) واستعملها الأديب الروسي تورغينياف (1818-1883) كونه اشتهر هو الآخر بكتاباته الأدبية و عليه ففكرة العدمية تختلف من مفهوم لآخر، فهي عند الأدباء لا تخرج عن نطاق القصة والمسرحية والرواية و الشعر وعند اسياسن تعنى بشؤون الحكم ومصدر السلطة في هذا الشأن نجد هناك تقاربا واضحا بين موقف ديستويفسكي (Dostoevsky) و موقف نيتشه Neitzsche (1844-1900) سيّما فيما يتعلق بالفلسفة الوجودية عموما وفيما يتعلق بمسألة الإلحاد الوجودي متمثلة تارة في موت الإله عند نيتشه (La Mort De Dieu) وتارة أخرى في موت الأب عند ديستويفسكي (La Mort De Père) وترجع الصعوبة الأساسية في هذا المجال إلى صعوبة التعامل مع النموذجين للبحث، فكل واحد منهما ليس مفكرا نسقيا فنيتشه الفيلسوف الثائر على النسقية (Systématique) بشكل عام، وديستويفسكي الأديب الثائر هو الآخر على الأوضاع الإجتماعية المزرية، فكلاهما يشكل رد فعل صارخ على تطورات المجتمع الأوروبي آنذاك أي في القرن التاسع عشر، سواء في الشرق لدى ديستويفسكي أو في الغرب لدى نيتشه تحتل العدمية مكانة أساسية في كتاباته الأخيرة، ولا سيما في كتابه إرادة القوة " La volenté de puissance" وقد منحها نيتشه وصفا دقيقا مبينا دلالتها الفلسفية . فهي ليست لأي فيلسوف أو مذهبا لشخص، وليست ظاهرة تاريخية شأنها الظواهر الأخرى، كما أنها ليست حركة إلحادية تنكر الإله أو تعلق موته، بل هي تجربة جديدة ظهرت مع القرن الثامن عشر مع المثالية. والرومانسية* تأثر نيتشه بهذه الظروف كثيرا، نتيجة أنه استقى فكرة العدمية من غيره من الأدباء وحتى من بعض الفلاسفة، بغية وصف

* الرومانسية (Romantisme) تعني في الأدب ضد الكلاسيكية، و في الفلسفة تعني ضد العقلانية (Romantisme) ويطلق مصطلحها على مذاهب الفلاسفة الألمان في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر و منهم على وجه الخصوص الفيلسوف فيخته (Fichte) وشينلغ (Schelling) وهيغل (Hegel)، وشوبنهاور (Schopenhaeur)، ظهر كرد فعل فلسفي و أدبي على تلك الآراء الكانطية و الهيغيلية التي طغت على تاريخ الفكر الفلسفي الألماني، و ظهور فيما بعد بعض الآراء الفلسفية الوجودية المعاصرة.

الحضارة الأوروبية الحديثة و ما آلت إليه من انحدار وسقوط، شمل كل نواحيها السياسية والفكرية والإجتمـــاعية والثقـــــافية والدينية والفنية لـــــذا

وجب تجاوزها وإعادة بنائها من جديد و على هذا الأساس يجب علينا تحديد مفهوم العدمية*فهي مشتقة من اللفظ اللاتيني (NIHIL) ومعناه لاشيء. والعدمية تنقسم إلى فلسفية، سياسية وأخلاقية .

إن العدمية عند نيتشه هي مسار تاريخي طويل، وحركة أساسية لتاريخ الغرب لأنها قانون هذا التاريخ، ومنطقه الداخلي؛ ولأنها ضرورة من ضرورات تاريخ الحضارات وتطورها.[1]ويرى نيتشه أن العدمية ضربت العالم الحديث، فنجم عنها سقوط القيم الإنسانية العامة، ومن مظاهرها الإنحطاط "décadence"[2] فهو مرض أصاب الحضارة الأوروبية الحديثة . حيث نتج عنه اضمحلال قيم العمل، الخير، السعادة، الحقيقة، الوجود، التسامح، الأخلاق ...إلخ، وظهرت قيم فاسدة منها البؤس والرذيلة، الشر، تدني مستوى الأخلاق وابتعاد العلم عن دوره الحضاري. فكل ذلك أثر بشكل بارز على مستوى الإنسان الحديث، إنهار معه مستوى التفكير الفلسفي، وازدادت الحياة السياسية والإجتماعية أكثر سوءا وانحلالا أكثر من ذي قبل . فأضحت الحضارة نوعا من البربرية والتوحش والهمجية، وبالتالي فقدت على إثر ذلك دورها المنوط، ألا وهو خدمة الحياة والإنسان معا.

لقد تعمق مفهوم العدمية في فلسفة نيتشهأكثر حتى صارت إنكارا للقيم الأخلاقية والإنسانية وإبطالا لوظيفتها، وبالتالي صارت عقبة أمام التطور البشري.

حينما يحاول المرء أن يجد للتطور هذا المعنى هنا، يدرك أنه كان مخدوعا حينما أراد أن يجد غاية، وعندما يعتقد أن الوجود الذي يعيشه يسير وفق سياق منطقي، وتشكل العدمية في نهاية الأمر مظهرا خطيرا، ويتجلى في إنكار العالم الميتافيزيقي.

لم يستعمل نيتشه مصطلح العدمية لتحديد مكامن الضعف في ثقافة عصره فحسب، بل أراد أن يشخّص الأسباب ويجد الحلول لها بإحداث ثورة كونبرنيكية على شاكلة إمانويل كانط (1804-1724) Immanueul Kant على مستوى التفكير الفلسفي ، وتجاوز العقلانية المجردة والتجريبية الحسية.من أجل إعطاء مفاهيم جديدة لسلم القيم الإنسانية برمتها ورسم صورة جديدة لمعنى الإنسانية والإنسان ككائن راق له وعي على مستوى ذاته ومجتمعه

* العدمية (Nihilisme) مشتق من اللفظ اللاتيني (Nihil) ومعناه لاشيء، والعدمية ثلاثة أقسام فلسفية مرادفة للشكية (الريبية)، وسياسية وهي مرادفة للامتناع عن الاعتراف بشرعية القيود المفروضة على الأفراد. وأخلاقية وهي مرادفة لانكار القيم الأخلاقية وإبطالها . عن الدكتور جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1994، ص ص 66-67.

[1]Martin Heidegger, **Chemin qui ne menent nulle part**, Traduit par Wolfang Brokmier (Gaillmard, 1986), P263.

[2]Friedriech Neitzche, **La volenté de puissance**, Tome I, Traduit par Ginvienne.Bianquis, (Gaillmard, Paris, 1947), P157.

ومحيطه. وبالتالي كان الأمر يقتضي بذل جهود مضنية بغية إعادة بناءصرح الحضارة الأوروبية

الحديثة، والقضاء عنوة على كل المآسي والأزمات التي لحقت بها مما أثر على سيران الحياة الطبيعي. حتى نتعمق في تفسير ظاهرة الإنحطاط، يجب الوقوف عند مرحلتين أساسيتين في فلسفة نيتشه . والتمييز بينهما فالمرحلة التي سبقت كتابه "زرادتشت" تمثل القسم البناء من فلسفته ،وأما الأعمال في السنوات التالية فتؤلف قسمها الهدام .هذا الأخير يمثل فترة ريبة وشك حيال تاريخ الغرب ،تحمل روحا نقدية ورفضا لكل المثل العليا والأوهام التي يقوم بها فلاسفة الغرب ،وهكذا فإنّ نيتشه يعارض الدين والفلسفة والأخلاق ،ويدعو إلىهدمها لأنها أكاذيب في اعتقاده ."ويخلع أقنعة الفلاسفة الذين سبقوه ويقدمهم على أنهم قوم تسيرهم أعراق أخلاقية غير معلنة،وتنزع أقنعة أرباب الأخلاق فيعطيهم هيئة أناس يحركهم الانتقام"[1].

يقر نيتشهبأنّالإنسان الحديث لا يفتأ كذلك، لأنه لم يتحرر من حمل الأعباء الضخمة المتمثلة في الميتافيزيقا والدين والأخلاق، فالعدمية تعني عند نيتشه انهيار القيم العليا بما فيها الأخلاق، حيث نتج عنها الإنحطاط، فهو ناجم عن فساد القيم المريضة أي: انتصارا للضعفاء على الأقوياء وبالتالي انتصار القيم المريضة على القيم السليمة. فالمشكلة تتجلى في محاولة تقصي أسباب الإنحطاط[2] و أعراضه، التي طرأت على الحضارة الأوروبية الحالية، متجهة بسرعة نحو الانهيار والدّمار على اعتبار أن الناس، يشعرون بأنّ كل شيء يسير نحو الانحطاط، وليس بوسعهم التخلص منه.

ولكي ندرس ظاهرة الانحطاط ـ حسب نيتشه ـ يجب أن نعلن الحرب على الإنسان الحالي، وننقد قيمه "أن يتخلصوا منها، وأن يستبدلوا بها ما هو خير منها، لأنها في نظره قيم انحطاط وحياة تميل إلى الانطفاء وهي قيم النصرانية والتشاؤم، والعلم، وأخلاقية الواجب و العقلانية، والإشتراكية والديمقراطية، وغيرها"[3] ويرى نيتشه أن الانحطاط بوجه عام سببه الدين، لأنه هو الذي أدى إلى استفحال هذه الظاهرة التي جعلت الإنسان الأوروبي يعيش أزمة دينية روحية، مضلّلة، ولن يتأتى لنا معرفة أسباب الانحطاط إلا من خلال البحث في أصل الدين. فالنظرة البدائية التي سادت الدين راجعة إلى افتقار الإنسان للفهم المنطقي والعلمي للظواهر، ووجود التفسير الغيبي لقوانين هذه الظواهر، ناهيك عن السحر والخرافة والأرواح الخفية، ثم طبيعة الإنسان الأول كونه كان يخاف من الظواهر الطبيعية، وهي ظواهر كان يبرّرها بمثابة عقاب مستحق. إن نقد نيتشه للدين هو مطية لنقد الديانة المسيحية. إذ أنها أبانت عن قيم الانحطاط، ولم تكن تهدف إلى بناء التقويم الشخصي للإنسان الحديث، حيث أفشت قيم الخنوع والكذب وفساد الغرائز الإنسانية ...إلخ.

---

[1] ويغن فينك، فلسفة نيتشه، ترجمة إلياس بدوي، (دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1974)، ص156.

[2] Jean granier, **Nietzsche Vie Et La Verite**,(Edition presse universitaire France, 1971), P 11-13.

[3] الربيع ميمون، **نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية**، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1989)، ص88.

وحاولت أن تُسْحق الإنسان المتفوق (الأعلى). وقد ميّز نيتشه بين مسيحية أولى في صورتها الإنسانية الخالصة، كما بشّربها المسيح في حد ذاته لما كان فيه من حبّ ومؤسّس للقيّم من جديد، على النقيض من مسيحية ثانية القائمة على قيم الحقد، الكراهية، العداء ... إلخ، وهي نابعة من التأسيس القيمي لليهودية . هكذا يرجع نيتشه التغييرات التي طرأت على المسيحية، إلى النظام الذي كرّسته الكنيسة، وما فعله رجالاتها من قساوسة وكهنة، هو السبب في انحرافاتها الكثيرة، في حق الإنسانية والحضارة، ويدلي نيتشه هنا إلى القرون الوسطى لأوروبا، وهي تمثل عصر الجمود والظلام الذي انعكس على الإنسان الأوروبي، في جميع مناحي الحياة، ينوّه نيتشه إلى أن الكنيسة لم تكن صورة هزلية فحسب، بل أيضا ضد ما يقوم به الكاهن، من فرض قيم على المجتمع، فتغدو الحياة تعيسة ومحتقرة، لا يشعر فيها المرء بقيمته ككائن حر يعيش الحياة بكل عنفوانها، إن القيم الإنسانية في ظل هذا النمط السائد ستظل دنيئة ومحتقرة، وفاقدة لمعناها الوجودي[1]. لئن كان نيتشه ينقد المسيحية نقدا عنيفا،فإنّ ذلك نابع من تأثره المنبهر بالتراث اليوناني، ذلك أن العقائد اليونانية لم تكن تحتقر الإنسان، وتقمعه قمعا شرسا . فهي على العكس تماما رفعت همة الإنسان، وأحيت قواه الطبيعية، ويقارن نيتشه هاهنا بينها و بين العقائد المسيحية و اليهودية بحيث كانت عقبة كبرى تحول دون نمو هذه القوى[2]. كان نمط الحياة اليونانية حسب نيتشه، أرقى من نمط الحياة المسيحية، ذلك أن اليونانيين استخدموا آلهتهم أمدا طويلا، تقيهم من الشر و تجلب لهم الخير والسلام والعيش بحرية وكرامة إنسانية، عكس التصور الذي كرّسته المسيحية عن إلاهها.

ويرى نيتشه أن الديانة اليهودية– المسيحية لم تنتصر إلا بعد انهيار الديانة اليونانية . ويحمّل نيتشه هذا السقوط إلى الفيلسوف "سقراط" و من هنا بدأ الانحطاط لأن سقراط أوقف تطور المجتمع اليوناني، وكبّل القوة الإنسانية النشيطة، لذا تسللت اليهودية إلى المجتمع اليوناني نتيجة آرائه الأخلاقية، ونمط العيش لديه. وإن كان نيتشه يستثني عقائد اليونان من الديانات المنحطة في مؤلفاته الأولى، فإنه يستثنى أيضا الديانة الإسلامية في مؤلفاته الأخيرة. و ينتقد الديانة المسيحية، لأنها آراء أرست قيما مريضة، حرمت أوروبا من التراث القديم بما فيه اليوناني والإسلامي، ولو ظفرت أوروبا - كما يؤكد نيتشه-بهذين التراثين لما كان حالها هكذا، بل تكون في صورة أكثر تطورا وتحضرا سواء على مستوى الإنسان، أو على مستوى المجتمع. وهنا تجده يقارن بين الديانة اليونانية، والديانة المسيحية ثم يقارن بين الديانة المسيحية وبين الديانة الإسلامية[3] و من الطبيعي أن نألف لدى نيتشه نقدا عنيفا للدين بوجه

[1]Friedriech Nietzsche, **Le Crépuscule des Idoles**, Traduit par Heneri Albert, (Flammarion, Paris, France), P45.

[2] فؤاد زكرياء، **نوابع الفكر الغربي نيتشه**، ص135.

[3] جمال مفرج، **نيتشه الفيلسوف الثائر**، (افريقيا الشرق، بيروت، لبنان، الطبعة 2003)، ص:44.45

عام. حتى وإن كنا نلمس لديه بعض الآراء حول التمييز بين الديانات واعتبار البعض أفضل من البعض الآخر ويرجع الآخر في ذلك إلى أن كرامة الإنسان إذا اخترمت وعوملت بشكل لائق، كانت هذه الديانة أصيلة في وجودها.إنّنيتشه يعتبر الدين ظاهرة منحرفة في أصلها، لأنه يحطّ من قدراتالإنسان، فهي في نظره تشكل عقبة تحول دون تأكيد الإنسان لذاته؛ لذا يدعو إلى إزاحة هذه العقبة بغية إعلاء شأن الإنسان حتى يصير عندئذ السيّد الأوحد للعالم.

وهكذا يتضح أن العقائد التي صارت في زمن نيتشه هي المسيحية، البوذية، اليهودية، لم يكن لها دور إيجابي في خدمة الإنسان بل كرّست جهودها لنشر قيم الانحطاط وتثبت فكرة العالم الآخر، كما نألف لدى نيتشه أن هذه الديانات المذكورة جابهت الإنسان وأعلنت الحرب ضده كان ذلك باسم المثالية فالإله لا يعني في نظره الآلهة اللاهوتية فقط، وإنما يعني مجملا المثالية المتعالية "Idéalisme Transcendantale"* وكل تفسير مثالي للإنسان والعالم، ولهذا فإدراك الله هو حقبة تاريخية لاقوة فاعلة.

يعيب نيتشه على المثالية أنها غطت جميع أكاذيبها باسم الله، حيث شوهت الإنسان، وسلبت حريته وجعلته خانعا وضعيفا. لهذا فالإنسان إذا أراد أن يتخلص من هذا العبئ أن يهجر نمط القيم المتعالية، وأن يحرّر قدرته الخلاّقة بالإعلان عن "موت الإله" " Le Dieu Mort" وبالتالي فهو يعدّ أكبر اعتراض على الوجود، لذا كان لزاما في اعتقاد نيتشه أن يدعو إلى انكار وجود الله حتى ننقذ العالم[1] . صرّح نيتشه في كتابه هكذا تكلم "زاردشت" عن موت الإله، وهي البشارة التي تقول : "بأنّ الإله قد مات" [2] حينها يكون زرادشت بشوشا جذلانا عند هذه البشارة، حيث يقول: "وإذا كنت قد جلست مرحا مسرورا حيث دفنت آلهة الأزمان المنصرمة ولأبارك العالم وأغمره بالحب قرب أنصاب من افتروا عليه فما ذلك إلا لأنني أتوق إلى رؤية المعابد ومدافن الآلهة عندما تخترق عين السماء الصافية قبابها المحطمة فأجلس على الركام المتهدم العشب الأخضر والشقائق الحمراء"[3].

إن موت الإله يعني في نظر نيتشه، هو نهاية المثالية وعليه فالإنسان لا يطلب القيم المتعالية فموت الإله هو آخر يوم من أيام المثالية، لأنها أفسدت قيم الإنسان، و حولته إلى كائن خنوع وضعيف لا يشعر إطلاقا بأنّه إنسان خالق لوجوده وقيمه. إن حكم نيتشه عن موت الإله هو بلا شك تحامله على المسيحية باعتبارها ديانة مفسدة للحضارة و للإنسان الحديث بحيث

* المثالية المتعالية Idéalisme Transcendantale تقال عن المثالية العملية أو الأخلاقية، يقابلها الواقعية العملية وتقوم هذه المثالية المتعالية على الفعل وفقا أو اهتداءا إلى مثل أعلى أو أمل يتجاوز الواقع الموجود في التجربة.
أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج2، مادة المثالية، الموسوعة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 1984 ص439.

[1]Nietzsche, **Le Crépuscule des Idoles**, Traduit Par Heneri Albert, (Flammarion Paris, France), P8.

[2] فريدريك نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت، مستهل زرادشت**، ترجمة فيليكس فارس، (دار القلم، بيروت، لبنان)، ص32.

[3] Friedrich Nietzsche, **Ainsi par les Zarathoustra, sigma** , Edition 1880, P P 160-161.

يتجلى الأثر الذي أحدثه في انهيار مستوى القيم، و لا سيّما الأخلاقية، والإنسانية أحطّ من كرامته لذا يجب الإعلان عن موت هذا الإله فوجوده عبث و خراب، وإذا استمر هذا الأمر،فإنّ مصير الإنسانية هو الفناء فالإله الذي قصده نيتشه و دعا إلى موته هو الإله المسيحي اليهودي .

في السياق ذاته يؤكد نيتشه أن الدين بوجه عام هو مظهر من مظاهر العدمية. التي سادت الحضارة الغربية الحديثة. ويدعو نيتشهإلى تجاوز العدمية و عودة المقدّس ويتم هذا المسعى أولا : بالدعوة الهيغيلية التي سادت النصف الأول من القرن التاسع عشر وتجسدت في فلسفة فيورباخ: بأنّ الإله ليس هو الذي خلق الإنسان، بل هذا الأخير هو الذي خلق الإله، فهو طيلة حياته مافتئ يخلق آلهته.... هذه الدعوة الهيغيلية الأصل تجد صداها في العديد من تصريحات نيتشه حيث يقول: "مما لاشك فيه أن الناس هم الذين خلقوا الإله".[1] و يرى نيتشه أن الشعب الذي يشعر بالقوة إنما يُسقط على كائن الإله هذا الإحساس، عندما يشعر هذا الإله ذاته بالضعف و تتغير صورته، كما يصرح نيتشهبأنّ اليهود أنفسهم تصوروا إلههم، و أصبغوا عليه صفات "العلو"،و "الرفعة"، لقد غذوه بكل ما راق وطيب يمكنه أن ينشأ في قلب الإنسان[2]. بعد كل هذا يتساءل نيتشه: أولا يقول عن الإنسان أنه الإله الذي ضيع نفسه بنفسه.[3] وقد بلغ الإنسان الوعي الذي سمح له باستعارة وعيه بذاته بعد فترات زمنية طويلة من الإستيلاب. ويتم هذا المسعى ثانيا: إن المقدس فيه طرق عدة للتآله منها ذاك الذي قام على تأثيم الوجود (المقدس المسيحي)، بناء على فكرة "الخطيئة"، ذلك المطلوب الذي أراد أن يبرّئ الوجود مرة أخرى؛ على اعتبار أن الوجود الأول هو الذي أوجد الخطيئة ثم جاءت المسيحية لإعادة الإعتبار للوجود من جديد، ومن ثم تخليص الإله من الخطيئة و العقاب.

يفهم من هذا الموقف لدى نيتشه أن موت الإله الذي قصده هنا هو موت الإله المسيحي لمعناه الديني والأخلاقي وليس بالضرورة موت للأمر الإلهي. إن الإله الذي وصفه نيتشه بالموت هو الإله بولس إله الضعفاء و الناقمين و الحاقدين على الحياة. فكل ذلك انعكس على الوقت الحاضر، حيث انهارت جميع القيم الإنسانية، وهذا راجع إلى دور الكنيسة، إذ أنها لم تعمل على تقرير الفكر البشري، والإعلاء بالقيم الإنسانية حتى نقد الدين دوره المنوط، نظرا لعدم وجود أفكار تنويرية تجابه جبروت الكنيسة . فكان لزاما في اعتقاد نيتشه الشك في كل ما له صلة بالمسيحية واليهودية . إذن لابد من الإعلان عن موت الإله المسيحي .ولايعني هذا أنه دافع عن الدين، وخاصة المسيحي، أو دعا إلى تجديد الدين،، وإنما أعلن عن "موت الإله المسيحي"، فالإله هذا لم يأت بالجديد بل أتى بالإلحاد رغم دعوة نيتشهإلى "موت الإله

[1] Nietzsche, **Le gai savoir** , Traduction Par pierre Klossowski, (Gaillmard 1989), P511.
[2] Friedrich Nietzsche, **Le Gai savoir**, P 532.
[3] Friedrich Nietzsche, **Aurore** , Traduit Par Julien Hervier, Sigma, (Edition, 1880), P 466.

المسيحي" إلا أنه هاجم النزعة الإلحادية الحديثة[1] هذه الإلحادية كارثة عظمى ناتجة عن سنين طويلة، وسوف تجد لدى نيتشه تصورا يشبه تصور الملاحدة على القول: بأنّالإنسان خلق الإله، فإنه يعارض دعواهم إلى ضرورة عدم عدم الاهتمام به، وهنا يصرح نيتشه قائلا: "إن ما يميزنا ليس أننا لم نعثر على إله لا في التاريخ ولا في الطبيعة ولا وراءها، وإنما شعرنا أن ما عبد تحت إسم: "الإله" وقدس ما كان بالأمر الإلهي الحق، وإنما كان أمرا مشتنقا ومحالا وضارا، ولم يكن بالخطأ، وإنما كان جريمة ضد الحياة، إننا لسنا ننكر الإله بما هو إله"[2]نيتشه ينكر الإله بحسب الأوصاف التي تنجم عنه (مفهوم المذنب، المخْلص ....إلخ).

ثم أنه أنكر الإله بما هو وجود "ذات" تعلقت بما مفاهيم شأن اليوم الآخر، الحساب، خلود النفس، فهو ينقد الإشتراكية الإلحادية، لأنها حافظت على مبدأ المساواة، الحرية، الإخاء بالمطلق وعليه فهي في نظره مجرد تمويهات للمسيحية، شأنها أنها تحول الناس إلى مجرد أدوات طيّعية لا فعّالة غايةالاشتراكية: هي تحقيق الشفقة والعدالة و المصلحة العامة للأفراد، وتلك مبادئ يراها نيتشه في المسيحية في حد ذاتها، إذا لا فرق بين الإشتراكية والمسيحية، في مثل هذا التصور هذه القيم هي قيم تنم عن الضعف والإستكانة والخنوع.

يعود نيتشه ويؤكد أن سيطرة الكنيسة على العقل البشري في العصر الحديث، راجع أساسا إلى تدني مستوى التفكير الفلسفي في عهد سقراط وقد حمّله بحيث ماتت القيّم بما فيها الأخلاقية والدينية، حيث أضحى الإنسان الأوروبي تائها. ويبرز نيتشه وحي الفيلسوف سقراط المنذر بالانحطاط ويفتخر نيتشهبأنّه اكتشف الوجه الحقيقي لسقراط من حيث هو أداة انحلال للحضارة اليونانية وبصفته طرازا انحطاطيا يقول نيتشه أن سقراط يطرد الفن من مجال الحكمة، و كان يذكر الموت و الخوف بتوسل التبريرات العقلية المنطقية"[3] بعد سقراط صار الفرد يبحث عن مصلحته الخاصة، لا المصلحة العامة وبالتالي انتفاء كلي للحياة الاجتماعية والحيوية[4] . هذا يدل على نهاية الحضارة اليونانية، وأفولها تاركة المجال لظهور المسيحية، كونها الديانة التي كرست قيما جديدة مضادة لقيم الوثنية "احتقار للطبيعة، مهاجمة النبالة" بدعوى المساواة بين البشر، أي بالجملة عهد سيادة أحكام المسيحية.[5]فالذي مهد الطريق لانتشار القيم الجديدة إنما التحقيق على وهن الإنسان القديم و بداية مشكلة في ذاته ومع ما تبع ذلك من تبدل نظراته إلى الكون ومصادر العالم الذي نمت فيه المسيحية" عالما مظلما

[1] الدكتور محمد الشيخ، **نقد الحداثة في فكر نيتشه**، (الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، 2008)، ص732،733، 734.

[2] Friedrich Nietzsche, **L'antéchrist**, Trad et présentation de Dominique tassele union générale, (Edition, 1985), P64.

[3]Friedrich Nietzsche, **La naissance de la Tragédie**, Traduits par genevieve, Bianquis, (Gaillmard, 1982), P278

[4]**Ibid** P264.

[5] Friedrich Nietzsche, **Par de la Le bien et le mal**, Traduit Par genevieve Bianquis Paris, (union générale d'edition, 1988), P 145.

ومريضا بالخطيئة وعاجزا. و ما كان على التحقيق فساد أخلاق الحداثة هو ما أنشأ المسيحية ونجم عن ذلك تحطم ما كان هو الأسمى، والأعلى و تبديله بما هو أحسن وأوضع وأسفل، وتلك هي النزعة الإستبدادية للمسيحية التي تجلّت في دور رجالاتها من قساوسة ورهبان.

وينبغي الإشارة إلى أن نيتشه لم يتحامل مطلقا، في ازدرائه أو نقده للمسيحية كديانة وإنما كما أشرنا سلفا نظرته إلى المسيحية الأولى بأنّها مسيحية صفاء ونبل واعتزاز، ورسالة المسيح الخالص المنزّه عن الرزايا و الأخطاء . غير أن المسيحية المرفوضة في اعتقاده . هي ما يقدم به القساوسة، من جبروت واضطهاد للعقل و الإنسانوالحضارة. هذا ما أدى في نهاية الأمر إلى تراجع مستوى الفكر الفلسفي، الأمر الذي بدا جليا في انهيار منظومة القيم العامة ومستوى نمط الحياة الإجتماعية. فكان من الضروري أن تعيش أوروبا تحت وطأة الأمراض انكشفت في العدمية، وما نجم عنها من الانحطاط وموت الإله وتقهقر الإنسان كل ذلك كان بفضل العصور الوسطى، فهي عصور خراب ودمار عمّرت أمداً طويلاً كما ينّوه نيتشه ذاته. - حينئذ لابد - من رد الاعتبار لكل ما له صلة وثيقة بالإنسان، ومن ثمّ النهوض من جديد بإحياء منظومة القيم، والدعوة إلى تجديد الدين، والاهتمام بالإنسان في حد ذاته .

يقول زرادشت "أنظروا إنني أعلمكم الإنسانالأعلى !الإنسانالأعلى كنه الأرض، فلتعلن إرادتكم : ليكن الإنسانالأعلى هو معنى الأرض! أناشدكم أن تظلوا أوفياء للأرض يا إخوتي، وأن لا تصدقوا أولائك الذين يحدثونكم عن آمال فوق أرضية! معدوا السموم، أولئك سواء يعلمون أولا يعلمون [1] ويقول أيضا: "مستخفون بالحياة هم، محتضرين و متمسكون بدورهم، ملّتهم الحياة: فليرحلوا إذا ! لقد مضى زمن كان فيه الإثم تجاه الله أكبر الآثام، لكن الله مات، فلهذا مات أيضا كل أولئك الآثمين"[2]. يرى نيتشه أن زرادشت هو الذي خلّص الإنسان من الانحطاط أو بالأحرى من براثن الفساد، والتأثر هذا أفضى نيتشهإلى أن يتقمّص روح زرادشت، لما فيه من خصال نبيلة فيها الجرأة والشجاعة قلمّا نجدها في الإنسان الحديث، بل يراها نيتشه في الإنسان الإغريقي الذي يختلف عن الإنسان المسيحي وموضوع كتابه عن زرادشت يتحدث عن فكرة موت الله* وعن تطور الإنسانالأعلى.

ومن أسباب العدمية أيضا نجد: نيتشه يتحدث عن الإنسان الأخير، بوصفه كائنا مستكينا. لا يجابه معترك الحياة، وهذا راجع إلى أثر العدمية التي سادت الحضارة ال،روبية الغربية، وسلبت منه جميع قيمه الدينية والإجتماعية والإنسانية. حيث تجلى عنها استفحال الانحطاط، وفساد الدين، ومقاربة الإنسان الأخير، إن جميع أشكال العدمية، التي مررنا بها حتى الآن

[1] فريدريك نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، ترجمة د على مصباح، (منشورات الجمل، الطبعة الأولى 2007)، ص43 .
[2] **المصدر نفسه**، ص43

* **"موت الله"** الموضوع الجوهري في كتاب زرادشت، يدور حوله مجمل التصور الذي يطور مفهوم "الإنسان الأعلى" كما نجد نيتشه قد تناول هذه الفكرة في كتابه العلم المرح عن الرجل الذي سأل عن الله قائلا : إنني أبحث عن الله! هل ضاع ومات؟ ! هل هو خائف منا؟ !

تملك صفة مشتركة منها الإستسلام والتّراجع أمام العدم الظاهر بموت الإله . ويبقى الأمل في نظر نيتشه هو تجاوز هذه العدمية نفسها، وفي الأخير تدخل إرادة القوة لأنها في نهاية الأمر تؤثر، أو تفضل الحياة على العدم. من هنا تقرر خلق قيم جديدة، عوض أن تبقى رهينة الألم الشديد، الناجم عن موت الإله. من هذا المنطلق تبدو العدمية، عائقا أمام تطور البشرية، في هذا الموقف بالذات يرى نيتشه أن "زرادشت "يترك عزّ الله ويتوجه إلى العدمية، حتى يتسنى له إيقاظ الهمم والقدرات الخلاقة فيه، ليكتسب إرادة القوة المؤكدة . يقول "زرادشت" أن أكره، ما في العالم هو الإنسان الأخير، المغلوب، الحقير، المستعبد، الذي يختار بمواجهة كارثة موت الإله"[1] بعد البحث في العدمية، ومدى النقد الموجه، من قبل نيتشه اتجاه القيم، التي كانت نبيلة في العهد القديم بحيث يسميها هو بمرحلة الهدم، كونها ابتعدت عن الحياة الإنسانية. وصارت بعدئذ مرارا للإساءة، والإنحطاط والفساد في ما يتعلق بوجوده الأخلاقي والنفسي والإجتماعي، لذا كان لزاما أن يدعو نيتشهإلى تجاوز هذه المرحلة وهي "البناء" التي يأتينا فيها بالتقويم الجديد وفقا لإرادة القوة[2] وبداية عهد جديد لبناء الإنسان الراقي أو الأعلى، بكل قيمه و وجوده.

في هذه المرحلة أي مرحلة البناء يلجأ نيتشهإلى استعمال المنهج "الجنيالوجي" في تحليله للانحطاط والعدمية. ويعني به البحث في أصل هذه المفاهيم، وسبب وجودها من دون شك أن الإنسانية لهي ساعية نحو التقدم إلى الأمام. وهي بتطلعها إلى حياة أكثر رخاء ورفاهية، تعطي إمكانية لولادة جديدة[3] والشرط الجوهري من قبل هذه الحياة الجديدة ولوجود إنساني رفيع إنما يكمن في تجاوز العدمية .

إن التّجاوز لا يُقصد به الإنتقال من العدمية إلىالانتصار عليها : (لأن العدمية عند نيتشه مهزومة، وهي هازمة ذاتها).[4]

يشكل هذا التحول، من جهة أخرى، إلى إحداث قطيعة مع الإنسان الماضي المثقل بهمومه فالإنسان القوي حسب نيتشه، يجب أن يعيد قيمه من جديد ويمنحها أبعادا إنسانية،وحضارية ويمتعض من الثرثرة والكلام الميتافيز يقي الذي يقحمه في متاهات تتعب العقل البشري ،ولايجدي وراءها أية فائدة .فالنوع هذا يحبذ الإيمان بالمستقبل ويغامر معترك الحياة، ويعيش همومها ومآسيها،لا أن يبقى قابعا ومستكينا.

فالإنسانالنيتشوييصنع قيمه بذاته، ليحرر نفسه أكثر ويتحول من العدمية إلى الوجود الجوهري الذي يمكّن الوجود الإنساني الحقيقي. ويكمن هذا في إحداث ثورة فاعلة ليس في

[1] Friedrich Nietzsche, **Ainsi Parlait ZaraThroustra**, sigma, (Edition,1885), P61.
[2] جمال مفرج: **نيتشه الفيلسوف الثائر**، افريقيا الشرق، بيروت، لبنان، الطبعة 2003، ص75.
[3] Licheten berger, **La philosophie de Neitzsche**, (Paris, Alcam, 1908), P149.
[4] Gille Déluze, **Neitzshe et la philosophie**, (P.UF, 1983), P33.

تبديل قيم بقيم فحسب، وإنّما هو قلب لطريقة التقويم ذاتها"[1]، هذا المسعى لايعد بعيدا عن إرادة الحياة طالما أن إعادة بناء القيم الإنسانية معناه تجاوز للعدمية وإتساع لحرية الإنسانالأعلى وهو كما يراه نيتشه قد تجسد في شخص زرادشتلأنه أرجع صورة الإنسان بما هو إنسان على غرار حالة البؤس والشقاء طبعت حياة الإنسان الأخيرفي العصور الماضية إنعكست على ذاته ومجتمعه.

بعد الإسهاب والحديث عن العدمية كإنحطاط والعدمية كأفق، يجب الإعتراف أنها الحدث الأكبر في الغرب لأنها تطبع الثقافة الغربية في مختلف مظاهرها، وأصبحت العدمية تمثل ضرورة تارخية تجسدت بشكل واضح ضمن العصر الحديث .من هنا سيطرت القيم والمثل العليا ،وذلك أن الحضارة الغربية في نظر نيتشهلم تعد ذلك النموذج الراقي يمكن الإقتداء به.من هنا تظهر العدمية بمظهر سلبي من حيث هو مرض خطير[2]، ألم يلقبه نيتشه تارة بالإنحطاط DECADENCEوتارة أخرى بالانحلال LADEGENERESCENCE. ان المظهر الثاني من العدمية يمثل المظهر الإيجابي للعدمية إذا ماقورن بالمظهر الأول .فالأول مظهر سلبي لا فائدة فيه، أما الثاني فهو إيجابي حيث يسميه نيتشه بالعدمية الإنتشائية "" Le NiHilisme exatatique " وهي تمثل اليوم في نظر بعض الفلاسفة المعاصرين الأفق الجديد للتفكير في الغرب المعاصر.إن إستعمال نيتشه لمصطلح العدمية التي استقاها من غيره ، لم يخرج عن نطاقهالفلسفي .طالما أن الغاية من إستعمال هذا المصطلح هو محاولة تبيين مفهوم العدمية بحد ذاتها ،فلم يقصد بأنّ العدمية ذات مدلول واحد في جميع المستويات.بل هي تتغير بحسب الظروف .وقد إتخذ نيتشه مصطلح العدمية حيث وصف به الحياة الأوربية في عصره 'ووصفها بنوع من الإندثار والسقوط وعليه فالعدمية هنا:هي الموت الأبدي لحضارة فقدت بريقها التنويري ووجودها الإنساني. وتراجعت كل القيم الإنسانية برمتها.مما يستوجب إعادة بنائها من جديد بخلق قيم إيجابية أي:تجاوز العدمية بالعدمية المعتادة بمعنى آخر تجاوز الإنحطاط بالبناء والتقدم .كان نمط التفكير المهيمن أنذاك هو نمط التوتر والقلق الذي طال الفكر والهوية ،ولم يكن من المستغرب أن تظهر نماذج من الثقافة واتجاهات في التفكير سمتها الجوهرية الفوضى الشذوذ ،التطرف ،الرفض ،الدعوة إلى العقلانية المطلقة ،التطرف القومي .....الخ. وهكذا فإنّ اضطراب التفكير وعدم استقراره كان هو الطابع المميز لعصر انتقل فيه العالم الغربي من نمط تقليدي راكد للحياة والتفكير والثقافة إلى نمط آخر مغاير ساخر أتى بالتغيير السريع الذي خلخل الركائز الأساسية للحضارة الغربية، حيث بدت للكثير وكأنها تحول كارثي يسير نحو الأسوأ، وأن التاريخ وكأنه يتدهور وأن القيم تنهار وأن هذا العصر الجديد لن يكون سوى عصر التفاهة السطحية والابتذال . يرىنيتشه أن انحطاط المجتمعات مماطل ومتمرد، انحطاط لا يأخذ أوسارا أو إيقاعا متواصلا. وهذا

[1]M.Heidegger, **Chemins**, P272.
[2]Alin Graf, **Les grands philosophes Contemporains**, (Edition du seuil mars, 1997), P17.

الانحطاط هو شريط العدمية ومتواطئ معها في تهديم القيم، قيمة الحقيقة وهناك، من جهة أخرى انحطاط موافق لهذا الانحطاط ومعاصرته له، يعمل على تأسيس قيم جديدة وهكذا الدين من جهة عدمية مرعبة ومؤثرة لاشيء يمتلك فيها قيمة، ولدينا من جهة أخرى عدمية فعالة تقول لم يعد لأي شيء قيمة.[1]

لم تنحصر العدمية في المظاهر الفكرية والثقافية و الدينية، والسياسية، بل هي ظاهرة شاملة تطال كافة المستويات وتضرب بجذورها كل أعماق المدنية الحديثة، كما تتسم الحياة اليومية في مختلف مظاهرها، حيث نلمسها في طريقة الأكل والإحساس والذوق وأسلوب التفكير. إن نيتشه لا يتردد في اعتبار أن العدمية هي التي أضحت ذلك السلوك الاعتيادي للإنسان الأوروبي، كما ينوه مرة أخرى أننا أصبحنا لا نتمتع بالراحة والطمأنينة، ولم نعد نفكر ونحن ننظر إلى الساعة في أيدينا، نتناول وجبات الغداء بسرعة، إنها حياة الجري وراء الريح تدفع الإنسانإلى استنفاذ كل طاقاته الذهنية . فلا وقف للفراغ والهدوء فأمام هذه السكونية القائلة يجد نفسه أمام الضياع، وفقدان الثقة في ذاته، فالعدمية تعني في هذا المقام إنكار لإرادة الحياة وإرادة القوة. "إن العدمية تدعو إلى تكريس المثالية يعني في نهاية الأمر إلى فقدان أو قتل الأمل في الإنسان[2]، طالما أن شعور بممارسة قيمه المعتادة تجعله في فتور وركود، وبالتالي يشعر حيالها بالقلق والتوتر، فيسعى جاهدا إلى محاولة تبيين حاجته إلى إعادة الإعتقاد الأصلي لها.

من هنا يلجأ إلى بناء وتقويم كل ما ضاع منها من معنى ويتجلى ذلك في السؤال الذي طرحه نيتشه ما معنى الخير؟ ما معنى الشر؟ فهو لا يتساءل عن تصور الناس لهذه القيم وإنما من وضعها وكيف يتسنى له إعطاءنا معان لها وتقويمها تقويما جديدا.

فقدان الإنسان لأصل هذه القيم من خلال الشعور الإنساني، كان بدعوى طغيان الطابع السيء للحياة الأوروبية، وما سادها من بربرية[3] وهمجية وتوحش حيثسيطرت المادة على العقول البشرية . واندثرت على إثرها كل قيم الجمال والأخلاق والمنطق وعليه فنيتشه يخالف الفلاسفة في استعماله لمفهوم العدمية، ونظرته إليها وخاصة في عصره فكانت عبارة عن انتحار أو قمع لكل جمالية فنية أو إنسانية إبداعية وإفساح المجال لكل ما هو فكري تجريدي خالص، يعيد عن روح الإنسان الواقع، فتظهر الحياة مادية ساذجة . وكما يقترح نيتشه في كتابه" العلم المرح "Le Gai Savoir" مفهوما فلسفيا جليا لوجيكيا بمعنى العدمية الفاعلة Le Nihilisme Eficacé ألا و هي إعادة الإعتبار للبناء والتقويم وبداية مرحلة جديدة على شاكلة المرحلة الديونيزية التي شهدها الفكر اليوناني قبل مجئ السقراطية الأفلاطونية

[1] جمال مفرج، **ليوتاردو والارث اليساري للنيتشوية**، (مقال في مجلة أوراق ثقافية، العدد الرابع والخامس، يوليو، ديسمبر 2001)، ص18.

[2] Alain graf, **Les grands philosophes contemporains**, P17.

[3] Friedrich Nietzsche, **Par de la le bien et la mal** , P 223.

والأروسطية ومعها ينتفي كل مظهر يسيء إلىالإنسان، إلى وجوده وإلى قيمه ودينه. فيبدأ الإنسان حياة جديدة قوامها الإبداع والإرادة والتضحية المستمرة بغية تجاوز الرتابة والسكون الدائم وبدأ مرحلة حديثة تضع قطيعة ابستيمولوجية بين ما ساد الحضارة الغربية من فساد وتردي مطلق لكل القيم، و بين بداية البناء بعدما استعمل نيتشه مصطلح الهدم لوضع منهج حفري لإعادة بناء الإنسان و الحياة معا.

في مرحلة البناء نيتشه بين أنواع عدة من العدمية، فهناك العدمية السالبة (Le Nihilisme Négative) وهي تقوم على إنهاء الحياة ولا تعط لها قيمة . معها تفقد الحياة كل وجودها الجمالي والإنساني، حيث تعمل على تبخيس القيم المقدسة والمثل العليا فالعدمي بهذا المعنى يركل إلى الخمود الهادئ فهو لا يرى طائل ولا جدوى من أي شيء .وقد لقب نيتشه هذا العدمي بالإنسان الأخير Dernier Homme، وبالتالي فالعدمية في هذا السياق لا تخرج عن نطاق الانحطاط باعتباره مرض ألم بالحضارة الغربية منذ أمد بعيد، ولكي تنهض من جديد لابد من رد الاعتبار إلىالإنسان أولا ثم الحياة .

ينبغي ألا نفهم إطلاقا أن نيتشه يرفض مصطلح العدمية، ويعتبره قصورا سلبيا وسيئا كما يعتقد البعض، بل هو يحدد لنا مفهومها ويبيّن لنا طبيعتها. الجانب الإيجابي من العدمية في اعتقاده يتمثل في العدمية الفاعلة ولا يتردد في الإعلان عن الإنتماء إليه. فهو يقول عن نفسه بأنّه بمثابة أكبر عدمي في أوروبا الذي جرّب مشاكل الحياة والإنسان، وأعلن عن إفلاس مزاعم تلك الحضارة التي اعتبرها البعض،بأنّها مرحلة التقدم و البناء. في حين أنها ليست كذلك مما يستوجب إعادة النظر في كل شيء حتى يتسنى لنا النهوض من جديد والانطلاق نحو التطور الفعّال. هذا ما أقره هو ما اعتقد أنه سبق به جميع معاصريه، و من هذا الشأن يبدأ في بناء عصر جديد تصنعه[1] إرادة القوة ويتحقق بفعل إنسان جديد هو "الإنسانالأعلى" وديناميكية لا تكل هي العود الدائم . إن إنسان هذا المستقبل يهتم بالفكرة و يعمل على ربطها بالواقع، حتى تغدو ناجعة وفعّالة، وتبدو ضرورية عندما تستطيع أن تحوّل إرادة العدم إلى عدمية فعّالة يمتلك الإنسان على إثرها سلطة القرار[2]، إنّ الغرض من مفهوم نيتشه اتجاه العدمية ليس إعلان الهدم من أجل الهدم، بقدر ما الغاية من ذلك تكريس إرادة القوة، من خلال أنها فعل إنساني أصيل إذا هو استشعر بقيمة الحياة وأعطى تقييما لجميع القيّم، لكونها شرط الحياة، لا تكون كذلك هذه الحياة إلا إذا سعت إلى تحقيق هذه القيم. إن قيمة الحياة لا تدعو إلى إعلاء مكانة فرد معين من البشر بل هي تدعو إلى الاهتمام بجميع البشر دون تمييز أو تشيّع نحو العرقية، التي طالما أُتّهم بها نيتشه من طرف خصومه من خلال كتاباته الأخيرة.

[1]غانم هنا، **نيتشه فاصل بين حديث ومعاصر**، مقال في مجلة عالم الفكر، (مجلة دورية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، العدد4 يوليو 2002)، ص13.

[2]Vatimo agianni, **Introduction a Neitzsche** (de Bocek et larcier**,** 1991, Pourl' Edition française, départment de Bocek 1991 Univercité Paris, Bruxelles), P74.

إن هذه الثورة الفكرية النيتشوية هدفها أن تحي الإنسان حياة وجودية خالصة، بعيدة عن كل أشكال التسلّط، و التحجّر الفكري،و جعل الإنسان في خلاص أبدي. و يظهر ذلك في الاهتمام بذاته ككائن مفكر حر لا تحدّه العواقب!، يحب المخاطرة في مجابهة معترك الحياة. عندئذ تكون للفلسفة و القيم والدين والميتافيزيقا مكانة رفيعة من خلال الاستفادة من نتائجها لا على مستوى الفكر فحسب، بل على مستوى الواقع أيضا وهذا ربما ما نسيه الفلاسفة الأقدمون وحتى بعض المحدثون.

المبحث الثاني: تجاوز الميتافيزيقا.

في هذا المبحث يعتبر نيتشهأن الدين، لايعد السبب الوحيد المسؤول عن أخطاء الإنسان إن الدافع إلى الإعتقاد في وجود عالم آخر ليس هو الخطأ في نظر نيتشه و إنما الخطأ في نفسير الظواهر الطبيعية كونها تأثرت بالأفكار الدينية المسيحية هو الذي جعلنا نتعود على تصور عالم آخرالذي بث في الإنسان الخوف مما جعل الدين يتسرب الى الوجود عن طريق العقل الضال [1]وما إن اختفى الدين في نظر نيتشهحتى شعرنا بفراغ رهيب ومنه نشأ العالم الآخر الميتافيزيقي[2] يختلف نيتشه مع الفيلسوف شوبنهاورفي أن هذا الأخير اعتبر الميتافيزيقا وريثة الدين .في حين نقده نيتشه في أن الدين ساهم في معاناة الإنسان كثيرا ولم يتخلص من فكرة العالم اللآخر ولم يكد كذلك حتى وجدها مرة أخرى في الميتافيزيقا .رغم مااستمت به من قدرة على الإقناع، ويعود ذلك إلى الطرح المنطقي الذي يعلي من قيمتها[3].إن رفض نيتشه للفلسفات التقليدية نابع من رفضه لفكرة النسق (Le système) كما أشرنا إليه في السابق كونها تجبر العقل على الجمود والركود ،بقي الفكر الفلسفي في حقبه التاريخية سجين أوهام الميتافيزيقا بمعناه :الدوغمائي التقليدي لأن الفلسفة هنا لم تكن فلسفة الحياة ،وممارسة الإنسان لحريته ،ووجوده ،وفهم الحياة بكل تحدياتها .فالفلسفة إذا:هي العيش في الخطر وحب المغامرة ،وأسمى مافي الوجود ،هو أن تعيش في خطر حسب رأي نيتشه .فالميتافيزيقا بمفهومها التقليدي في نظره دعت إلى وجود عالمين ،كان التقليد الفلسفي يقول بها منذ عصور سحيقة. هما "الوجود الحقيقي "و"الوجود المظهري "وهما شكلان ينظر إليهما نيتشه كنوعين من التقويم ،ويرجع ذات الأمر إلى الإنحطاط باعتباره مرض مدمر للحضارة الغربية الحديثة وبكل مناحيها الحياتية.

وينوه نيتشه بالذكر: أن الفلاسفة افترضوا وجود عالم حقيقي خارج هذا العالم. ويعود نيتشه ويؤكد هذا الطرح من خلال الفلسفة الطبيعية الأولى؟ التي تعتبر المرحلة الأولى من التفكير الفلسفي اليوناني وطغيان النزعة المادية لتفسير أصل الكون (التراب، الهواء، النار، الماء) و من ثم وجود مدارس عديدة. فالوجود في اعتقادهم ينقسم إلى وجود حقيقي أصيل، و وجود غير حقيقي و غير أصيل (مظهر، جوهر) الخطأ الذي يمكن أن نلاحظه في الميتافيزيقا – على حد تعبير نيتشه–هو تصور الفلاسفة لجنسين من الوجود: جنس أسمى من الوجود، وهو جنس اللا محدود، فهو ثابت، لا يتغير من اختصاص الفكر أو عالم الحقائق . وجنس باطل، فيه الكثرة، التغيير ... إلخ.

[1] Frederich Nietzsche, Humain Trops Humain, Tome II Traduit Par Robert Rovini, (Paris Gaillmard, 1987), P 184.

[2] Frederich Nietzsche, **Le gai savoir**, Traduit . P.klossowski, (Gaillmard, 1989), P 151.

[3] فؤاد زكريا، **مرجع سابق**، ص71.

نجد الميتافيزيقا دوما ترفض عالم المظاهر على اعتبار أنه فاسد وغير ذي شأن بينما عالم الحقائق بأنّه معيار قيمي مطلق. ونتج عن هذا كله نظام ترتيبي للقيم، فالقيم العليا هي التي تنفي الحقيقة العينية، وبالتالي فهي التي تكشف عن أصلها المتعالي ... والقيم السفلى هي التي تطابق الواقع وتنسجم معه، وهي تدل على أصلها الحسي"[1]. ويجدر بنا التساءل في نظر نيتشه عن السبب الذي دفع الفلاسفة إلى هذا التصور، هو أن الخطأ الميتافيزيقي يرجع أساسا إلى التناقض بين الصيرورة والوجود. وظل هذا السؤال المحيّر يطرح على الفلاسفة، من أين يأتي للصيرورة هذا المد المتجدد دائما؟ لذا يؤكد لنا نيتشه، أن مباحث الفلاسفة اليونانيين الماديين

ومنهم نذكر: (أنكسيمندريس)*، (طاليس)* طغت عليها الميتافيزيقا حيث عجزوا عن إيجاد تفسير للأشياء. ويبدو الفيلسوف هراقليطس* هو الوحيد في اعتقاد نيتشه الذي لم يميز بين العالم الحسي و العالم الميتافيزيقي، فالوجود لا يبقى ساكنا، بل يتغير، وهو في شكل صيرورة لا يتوقف. هذه الميزة وجدت عند هراقليطس، ولم توجد عند الفلاسفة الماديين الآخرين . وخاصة أنكسيمندريس، وطاليس رغم أنهما ينتميان إلى المدرسة الأيونية، ذاتها مع هراقليطس، إلا أن هناك اختلاف بينهم.

إن خرافة الميتافزيقا كما يدعي نيتشه،راجعة في المقام الاول إلى البؤس والشقاء الدي ساد تاريخ الفلسفة في عهد سقراط[2] .ويرى نيتشه بأنّها أكذوبة بدليل،أن العالم الحقيقي هو من شأن الإنسان الحكيم لكننا أحيانا نجد من ليس له أي نصيب من الحكمة،يتدخل في تفسيره وبالتالي تكون الرؤية ساذجة .

ناهيك عن الآراء الفلسفية التي تدعي فهم هذا العالم،إنما تكتفي بالنظر إليه فحسب،دونما إعطاءه بعدا فلسفيا حياتيا .هذا ما طبع الفلسفة قديما وحديثا أي :الفكر الفلسفي في عهد سقراط وما بعده،وصولا إلى الفلسفة الحديثة،المذهبية النسقية.

ويوضح نيتشه مرة أخرى أخطاء المتفزيقيا، التي تجلت في دور المسيحية السلبي كديانة الإنسان العصر الحديث، ثم دورها في الوقوف أمام حرية الفكر الفلسفي والديني . مما جعل الميتافيزيقاخالية وجوفاء، على غرار ما نعرفه أنها من صميم المبحث الفلسفي وغاية كل فيلسوف يبحث في الوجود وغيره من الموضوعات الفلسفية .هذا ما أثر في النهاية على مسألة القيم برمتها .

---

[1]Jean Granier, **Le Problème de la vérité dans la philosophie de Nietzsche**, (Les Editions du seuil 1966), P56.

* أنكسيمندريس: فيلسوف يوناني من المدرسة الأيونية القائل: الأشياء الحسية منفصلة عن الميتافيزيقا

* طاليس: فيلسوف يوناني من المدرسة الأيونية القائل: بأنّ الأشياء كلها واحدة

* هيراقليطس: فيلسوف يوناني من المدرسة الأيونية القائل: بأنّ الأشياء كلها في تغير مستمر ودائم.

[2] الدكتور محمد الشيخ، **نقد الحداثة في فكر نيتشه**، ص ص: 212-215.

طغى على المتفيزيقيا بتصورها التقليدي الجانب النظري التجريدي (L'Abstrait) عوض أن تقحم هذا العالم ضمن تصور متجدد باستمرار لمعنى الحياة الإنسانية.يقول نيتشه:التطور الذي لايمكن الوصول فيه إلى العالم الحقيقي، ولايمكن البرهنة عليه ولايمكن الوعديةولكنه موجود في الذهن فقط باعتباره سلوى والزاما.[1]

ويشيد نيتشه بالأخطاء الناجمة عن الميتفزيقيا،كون أن العالم الحقيقي غير معلوم ومطلق لايلزمنا بشئ ولايمكنه أن يجبرنا على ذلك تماما .[2]

هنا يشير نيتشه،إلى أن المعرفة النظرية غير قادرة على فهم إدراك ما فوق الحس في المذهب الكانطي،ويجد هذا الاخير داته مكشوفا ومتهافتا . هذا إشارة واضحة من قبل نيتشه إلى ظهور مرحلة ما بعد المثالية الألمانية،التي يصمت فيها العقل وتصرخ فيها الوضعية، لان فجرها يكون قد طلع.[3]

يقصد نيتشه بهذا الطرح،أنّ القضايا الميتافيزيقية التي شكّلت اهتمام الفلاسفة عبر الازمنة التاريخية،لم تعد قضايا انسانية خالصة، ولم تعط للانسان ما كان يريد في الحياة.لذا كان لزاما أن تظهر الوضعية "Posivitisme" فمعناها التقليدي لدى أوغست كونت،أو حتى عند الوضعيين المحدثين،حتى أن الابحاث الفلسفية بدأت تأخد منحنى فكري فلسفي آخر،ويسميها نيتشه –كما أسلفنا الذكر سابقا –بالمرحلة الوضعية،وكان فيها معجبا جداً بالعلم .هذا بمثابة الاعلان،عن خرافة المتافزيقيا وكثرة أخطائها.

وإن كان نيتشه قد انبهر بصرح العلم،فذلك في نظره مطية للحد من المشكلات النظرية التي طبعت المتافزيقيا، وليس في الانبهار هداكما يرى بعض الباحثين،أن نيتشه من أصحاب الوضعية المنطقية طالما أنه يعارضهم عند اعتبارهم،أن المعرفة العلمية أو بالاحرى الوضعية المنطقية هي صميم البحث الفلسفي المعاصر في اعتقادهم. يطالب نيتشه بهدم عالم الحقائق،لانه يلخص أخطاء العقل البشري الناجمة عن تدني مستوى التفكير الفلسفي، حيث صار مسارا عدميا،نتيجة خطر العدمية الذي كان يترصد الفلاسفة على الدوام .ويرى نيتشه بأنّها أي:الفلسفة فقدت مشروعيتها مند سقراط إلى أيام العصر الحديث، وعليه يعتبر شقاء الفلسفة فيالازمنة الحديثة وفقدت مشروعيتها، عندما انفصلت عن التراجيديا* . يقول :نيتشه في هذا الصدد "إن سقراط فصل الفلسفة عن الحياة،وألحقها بالمعرفة فلم تعد المعرفة لخدمة الحياة، بل صارت حياة

[1] Friedrich Nietzsche, **Le Crépuscule des Idoles** , P02.
[2] **Ibid**, P04.
[3] عبد الرحمان بدوي، **نيتشه**، (وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الخامسة، 1975)، ص211.
* إن مصطلح التراجيديا "Tragédie" عند نيتشه يختلف عن مفهومه عند أرسطو طاليس (384-322 ق.م) التي تعني عنده ما يورث الرعب والشفقة معا و ما يجعلها فنا خطيرا يضرّ الصالح العام حيث تضعف المرء و توهنه، كما نجد مفهومه للتراجيديا - أي: نيتشه - يختلف عن مفهوم شوبنهاور (1788-1860 م) الذي يراها استسلاما و انهيارا للبحث عن اللذة و الحياة، بينما هي عند نيتشه مفهوما للقوة و السيادة تجعل من الفن مثيراً للحياة و حاثاً إليها. و هذا يدل على التعالي فوق الألم و الشفقة.

الفيلسوف موقوفة بالضد على خدمة المعرفة"[1] يرد نيتشه على أرسطو وشوبنهاور في ادعائهما ان الترا جيديا تؤدي إلى التشاؤم وتفقد المرء توازنه ومثبطة للعزيمة .هذا القصور أقره سقراط عندما أعلن عن موت الإنسان التراجيدي وأخلفه بالإنسان النظري،كما يعتقد نيتشه .لذا كان لزاما أن يكون رأيه مخالفا،لسقراط وأرسطو،وشوبنهاوروغيرهم.

عودة الروح التراجيدية إلى الفلسفة، داك هو مشروع نيتشه الفلسفي الدي زاد عنه .وقد اعتبر ذاته "أول فيلسوف تراجيدي"[2]ومرد ذلك أن الفلسفةانقطعت عن التراجيديا،مند أيام سقراط إلى اليوم .ويرى نيتشه أن الفكر الفلسفي اليوناني، كان فكرا اصيلا وتراجيديا قبل مجيء سقراط،ولاسيما الفلاسفة الذين سبقوه ويأتي في المقام الاول لديه: بارمينيدس القائل :بفكرة الثبات،وهراقليطس القائل بفكرة الصيرورة أما في عهد سقراط، تراجع الفكر الفلسفي كثيرا،فلم تعد الفلسفة هنا تبحث عن مصير الإنسان،وتعالج همومه ومشاكله الحياتية لأن من واجب الفلسفة أن تقتحم معترك الحياة وتنظر للحياة بكل تجلياتها يتساءل نيتشه هنا أو ليس من شأن الفلاسفةأن يظهروا في الازمنةالخطيرة؟، كما قلنا:فيما سبق أن غاية الفلسفة، في نظر نيتشه،أن تعيش معنا في الشوارع .من هذا المنطلق يرفض نيتشه،أن تنحصر وظيفةالفلسفة في تناول القضايا الإنسانية وتبقى على نمط التصور النظري التجريدي،فكانت الميتافزيقا مبحثا نظريا،لم يرق إلى مستوى التفكير الفلسفي التراجيدي،الدي يمثله الفلاسفة ما قبل المرحلة السقراطية،وبين الفكر الفلسفي وبين الفكر الفلسفي النظري أثناء وجود سقراط وما بعده،فهذه الحقبة التاريخية من تاريخ الفلسفة أي السقراطية وما بعدها،تمثل مرحلة جمود وتحجر،وتأخر للانسان، على مستوى الفكري والسياسي والاجتماعي والديني .لذا نجد نيتشه يتساءل عن جدوى هده الابحاث وعن دور الميتافزيقا وما قدمته من فوائد الإنسان، في ظل هده الفلسفات التي طغت عليها الابحاث النظرية التجريدية،دون أن تهتم بمصير الإنسان وظلت بعيدةعن واقعه،دونما أن تبحث،في وجوده ومشاكله الحياتية.

لذا أراد نيتشه أن يجعل من الفلسفة موقفا خاصا به،يتناقض مع الفلاسفة جميعا،دون أن يأبه بالمذاهب أو الانساق التي وضعت القضايا الفلسفية ضمن النسق .باعتباره فكرا منظما،ومحددا في غاياته،لكن نيتشه يريد أن يضع حدا،لهذا النمط الفلسفي القديم مند اليونان، إلى غاية العصر الحديث .لقد صرح نيتشه عن نفسه قائلا:"أنا لست انسانا،بل أنا ديناميت"[3].إن هذا الاتجاه الفلسفي النيتشوي المعاصر،هو تأويل لتاريخ الفلسفة،كما يؤكده كل من قرأ لنيتشه،بأنّه فيلسوف يدعونا :في النهاية إلى أن نكون أحرارا،إزاء الآراء الفلسفية الخلاّقة،التي دعا إليها نيتشه في هدمه للانساق المذهبية،التي تبقى في اعتقاده حاجزا منيعا تجبر الفلسفة على

[1] Friedrich Nietzsche, **La naissance de la Tragédie**, P: 266-267
[2] Friedrich Nietzsche, **L'Antechrist**, Traduit Par Jean Claude Héméry, (Editions, Gaillmard , Paris, 1974), P142.
[3]Alain Graf, **Les Grands Philosophes Comtemporains**, P14

هذا النمط الجامد المستكين .وعليه لابد إذن،من الاعلان عن أفوله .الامر الثانيالذي نجده في تأويل نيتشه هو دعوته إلى تحليل تاريخ الفكر الفلسفي،حتى يتسنى لنا تجاوز أزمة الوعي،التي ألمّت بالفلسفة مما فتحت المجال أمام الشك[1] .إذ رآه مطية نحو الاستقرار الفكري حيث نألفه غالبا في فلسفته التي اتّصفت بأنّها فلسفة رائدة،ثائرة في عصره تميزت بطابعها النقدي الابستمولوجي .فليس هذا النقد مجرد نقد للتصورات التقليدية فحسب،وإنما من أجل تجديد وبناء التفكير الفلسفي من جديد قوامه إرادة الحياة ومعايشة تجاربها الإنسانية بكل جرأة وحرية .على غرار بقاء الفلسفة،رهينة التمذهب الكلاسيكي الجامد .إن اقتراح نيتشه،ونقده للميتافيزيقا بمفهومها الوثوقي "الدوغمائي"،هو تأسيس منهج تأويلي لها ولكل القضايا الفلسفية فتبدو أكثر اتساقا وعمقا .خصوصا وأن نقده للميتافيزيقا بدا فيه نوعا من الميل إلى تفسير الوضعيةالمنطقية،في العصر الحديث.

إن الميتافيزيقا التقليدية،هي مجرد أحكام نظريةفقط.هذا ما ساد تاريخ الفلسفة عموما،ويرى نيتشه أن المتفزيقيا بهدا المفهوم،لم تعبر عن حقيقة الفكر الفلسفي،الدي من واجبه أن يعالج حياة الإنسان وتصبح المتفزيقيا هاهنا :مرتبطة بقضايا الواقع الإنساني ارتباطا وثيقا .وينوه نيتشه في هذا المقام بأنّ المتفزيقيا يجب أن تخضع القضايا إلى الصحة أو الخطأ حتى نتأكد من قيمتها ولا نكلف أنفسنا في البحث عن تبرير لها ما دامت تبحث في الوجود .فالميتفزيقيا في نظر نيتشه هي محالة لاحياء القيم الإنسانية منجديد،وبث روح جديدة في الإنسان فيكون الوجود البشري وجودا فعالا.إن أفضل منهج يمكن أن تنتهجه الفلسفة هو المنهج الجنيالوجي فهويؤصل الفهم الإنساني،فيغدو بدلك علامة تدل على إرادة الإنسانالأعلى .نظرته إلى تاريخ الفلسفة،فيها الحكمة كونها،الاسلوب الملاءم لمزاجه الشخصي .هومزاج شعري،فني ومختلف عن تفكير أصحاب الاذهان الصارمة،الدين يكتبون بأسلوب متماسك مثل كانط، وغيره من فلاسفة الانساق .أما أصحاب الاذهان الشعرية والأدبية مثل نيتشه،فكتاباتهم أشبه بالقصائد التي يعبر بها الشاعر في كل منها عن إحساس دون،وجود علة مشتركة بين القصائد،في شكل منطقي متسلسل[2] يقول نيتشه:في هذا الصدد "إن الافكار التي تأتيك وأنت تمشي هي فقط التي تمتلك قيمة"[3] كما يرى الفيلسوف كارل ياسبرز "Karl Jaspers" أن نيتشه اختار شكل الدرات لتأليفه بصورة واعية[4] إنما قصد بدلك أن،يبتعد عن الجمود والانغلاق المذهبي،الذي عرفته الفلسفة طوال مراحل تاريخها .لذا نجد :نيتشه يرفض هده الميتافزيقا الكلاسيكية،ويدعو إلى تجاوزها،وهدم قضاياها الفلسفية،فهي لاتعط لنا أي تصور جديد لبناء القيم،أو لبناء التفكير

[1] Alain Graf : **Les Grands Philosophes Comtemporains**, P15-16.

[2] فؤاد زكرياء، **نيتشه، المرجع السابق**، ص151-152.

[3] Friedrich Niettzsche, **Le Crépuscule des Idoles**, P34.

[4] Karl Jaspers, Nietzsche, **Introduction à sa Philosophie**, Traduction Heneri Albert, (Gaillmard, Paris, 1978), P401.

الفلسفي .فكل ما تجده فيها هو ذلك التفكير المجرد الجافي،البعيد عن جوهر الحياة الإنسانية الخالصة .

لقد ظلت فلسفته غير نسقية،وإنما وردت عبارةعن "نسق من الفقرات" هذه الكتابة بالفقرات بقت معه طوال حياته. ويرجع البعض من شرّاح فلسفة نيتشه أن سبب التجائه إلى هذا الاسلوب هو شغفه بالحكمة التي تناسب مزاجه الشخصي .ولاشك أن فكره جاء مغايرا للفلسفة في معناها التقليدي.ويجب ألا نفهم من ذلكأن فلسفته هي استسلام منه لمزاجه، فأسلوبه الحدسي والشعري في آن واحد أسلوب غير معتاد،لذا تعتبره مخالفا للانساق. وهو في ذلك له أسبابه الفلسفية الخاصة.أحدث نيتشه ثورةقلبت المباحث الفلسفية الكلاسكية مبحث الانطولوجيا،مبحث الابستمولوجيا،مبحث الاكسيولوجيا،جراء أسئلته التي طرحها عن الوجود،والمعرفة لكنه ركز على مسألة القيم،باعتبارها ذات علاقة بالسلوك البشري .لم يحدث نيتشه خلخلة في تراتب مباحث الفلسفة الكلاسيكية فحسب،بل أعاد ترتيبها منجديد،القيم،المعرفة،الوجود، جاعلا بذلك النظر الفلسفي كله تحت إمرة القيم،لاتحت إمرة الوجود والنظر فيه.لئن اقترح نيتشه المنهج الجنيالوجي* في إعادة تأصيل مباحثها وترتيبها بدءا:بمعرفة شروط وظروف نشأة القيم الإنسانية.[1]

الميتافيزيقا في اعتقاده بقت محصورة،في نطاق مبحث الانطولوجيا،ومبحث الابستمولوجيا فكانت بعيدة عن ملامسة واقع الإنسان،نظرا لما طبعها من التفكير المجرد الخالص ومعالجة معظم الفلاسفة لمثل هذا النمط :دون النزول بها إلى مسألة البحث في أصل القيم وتتبع تطورها،لان هذا المبحث في نظره،هو فتح المجال للانسان،كيما يعبر عن وجوده من خلال:أن منظومة القيم هي جملة أحكام يصدرها المرء عن ذاته، وعن الاشياء المحيطة المراد معرفتها والانتفاع بحقائقها الجوهرية .طالما أن القيمة حكم داتي نابع من الإنسان.

يعتبر نيتشه أن العدمية الحديثة هي نتيجة الفكرة الميتافيزيقية فهو لم يتحامل على أطروحات الفلاسفة الاقدمين،ونقده لمبحث الميتافيزيقابمفهومه الكلاسيكي فقط،بل تجده دائما يثور في العصر الدي يعيش فيه .لذا يعتقد الفكر الفلسفي في العصر الحديث ما زال مسجونا في تافاهات الميتافيزيقاالتي كانت جوهر التفكير في الحصارة الغربية ولكي نتغلب على العدمية ينبغي إدا التخلص من هذا المثال الميتافيزيقي بصورة نهائية .وقد جعل نيتشه مثل هذا التخلص مهمة تجاوز الميتافيزيقابأنّ منح لفعل التجاوز (Surmonter)معنى نيتشويا نموذجيا .حيث

* قد نيتشه بالجنيالوجيا La Généalogies كمنهج تأصيلي لبناء و إعادة التفكير الفلسفي بمراحله المعتادة. و محاولة ترتيب مباحثه الكلاسيكية، واضعا مبحث الإكسيولوجيا (القيم)، قبل مبحث الأنطولوجيا (الوجود)، و مبحث الإبستيمولوجيا (المعرفة). و كان في نظره أن تبدأ الفلسفة بالقيم لأن الجينيالوجيا هي التي تبحث في معرفة و شروط نشأة القيم و تأصيلها، و اعتبره منهج المناهج.

[1] د- محمد الشيخ، **نقد الحداثة في فكر نيتشه، المرجع السابق**، ص: 284-290.

تتركز جميع الدلالات الملازمة لمفهوم إراة القوة،ويرى نيتشه أن الميتافيزيقاتتنكر للواقع ولا تجيب عن مشكلات الإنسان .لذا نقد نيتشه هذا المفهوم الدوغمائي (الوثوقي)لها لانها تركز على الجانب النظري المجرد دونما حاجتها إلى معالجتها للواقع،فلا يصير للحقيقة غاية منشودة .كونها بهذا التصور بعيدة عن الإنسان والواقع .ورؤيته أن القيم تتعارض مع الميتافيزيقا[1]وذلك أن القيم ترتبط بالسلوك العام[2] فتتضح من خلال الاحكام التي يصدرها الفرد عكس الميتافيزيقاقوامها التفكير النظري المجرد وتلك هي مباحث الفلاسفة القدماء،وحتى المحدثون الذين تبنوا الطرح الميتافيزيقي الكلاسيكي،لذا كانت أبحاثهم جافة، فهي مجرد تصورات فلسفيةبقت مفارقة وبعيدة كل البعد عن جوهر الحياة وتلك هي الانساق التي ضيقت مجال البحث الفلسقي والتفكير في حد ذاته .فلا بد إذن من الاعلان عن تجاوز هذه الميتافيزيقا.

يذهب نيتشه في نقده للميتافيزقيا القديمة إلى أنها ولدت من فكرة الجوهر (Substance)[3]فكرة الذات،ومن ثم نظرت إليها على أنها هي الاخرى جوهر ثابت .كانت مقولة الجوهر،في هده الميتافيزيقاهي التي تلخص فهم الفلاسفة للوجود.أضفت الميتافيزيقاالتقليدية على الكون صفةالثبات،وأنكرت عليه التحول والصيرورة .كما ينوه نيتشه بأنّالميتافيزيقاخضعت للذاتية، لان مفهوم الجوهر،في نظره هو مفهوم للدات وليس العكس أي:أن الدات كما يعتقد الفلاسفة –تولد فكرة الجوهر لذا ينقد هو الطرح الكلاسيكي الدي طغى على الميتافيزيقا حيث نجد :مثلا "فكرة الثبات عند بارميندس،المثل عند آفلاطون،الجوهر السبينوزي ....الخ" فهذه التصورات أبقت مجال مبحث الميتافيزيقايشوبه نوعا من التنظير العقلي المجرد الصارم دون ترك الميتافيزيقاتتطور وتقترب أكثر من الواقع حتى يتسنى لها التعبير بحق:عن هموم الإنسان،وقيمه ومجتمعه وثقافته،أو بالأحرى معايشة جوهر الحياة بكل معانيها الحضارية والإنسانية

إن الكون ينقسم إلى جواهر وأشياء يضفي عليه ثباتا يريح العقل والحواس، ويجعل إدراكه والتعامل معه أمرا هيّنا، فلو تصوّرنا مع نيتشه،أن التغير هو الذي يسود فعندئد لاتجد: أي شئ أمامنا ثابتا نتعامل معه،أوتسيطر عليه[4]. "ويتساءل نيتشه كيف نتحصل على المعرفة،أو على الاقل من أين حصلنا على الاعتقاد بأنّ لدينا هده المعرفة يجيب نيتشه هنا:لقد حصلنا عليه،من عالم الحقائق الداخلية التي لم يبرهن الإنسان على واحدة منها حتى الآن"[5] يقصد نيتشه بهذا المسعى،أن الإنسان يدرك حقائقا،عن الاشياء من خلال اعتماده على صفة التجريد من

[1]Friedrich Nietzsche, **Par de là, le bien et le mal**, P23.

[2] جان غرانبييه: نيتشه، ترجمة د- على بوملحم، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص: 45، 46، 47

[3] بيير مونتيبيلو، **نيتشه و إرادة القوة**، ترجمة د- على مفرح، (الدار العربية للعلوم، منشورات الإختلاف)، ص45-46.

[4] فؤاد زكرياء، **نيتشه المرجع السابق**، ص72.

[5]Friedrich Nietzsche, **Le Crépuscule des Idoles**, P03.

المحسوس إلى المعقول،ويتناسى أن هده الاشياء مرتبطة بالواقع، من هنا يسعى نيتشه إلى أن يخضع الميتافيزيقاإلى معرفة الاشياء،وهي موجودة في الواقع فتكون مرتبطة بالوجود .

على أن نقد العمل و مبادئه الأساسية في نظر نيتشه يؤدي مباشرة إلى نقد الميتافيزيقا وكل ما يرتبط بها من تصورات . ذلك لأن الميتافيزيقا في الفلسفة الكلاسيكية قد بنيت على الاعتقاد بوجود حقائق عقلية خالصة، فإذا نقدت هذه الدعائم انهارت الميتافيزيقا . و تعد حملة نيتشه على الميتافيزيقا من أشد الحملات التي تحمس لها طوال حياته الواعية . و يتراءى لنا أن الميتافيزيقا كانت تشكل في رأيه كل ما نجم عن العقل من أخطاء في الماضي فهي مصاحبة للدين، و مؤيدة له. إذ تؤدي إلى ابتكار عالم آخر مستقل تماما عن واقعنا فتجد تصورنا عنه والاهتمام به.[1]

و يذكر نيتشهبأنّ المرء يجد صعوبة من تجاوز فكرة العالم الآخر كونها تفرض عليه بشتى الصور، فإذا لم يقتنع بذلك في منظور الدين، فسوف يجده في الميتافيزيقا مرة أخرى على صور أكثر اتضاحا وإقناعا (عالم المثل، العقل الخالص)... إلخ.

و يرى نيتشه أن الميتافيزيقا التقليدية، لا تدعي خلق العالم الآخر فحسب، بل تريد البرهنة عليه و تريد أيضا التأكيد على أنه "العالم الحقيقي" و يبقى عالمنا هذا هو عالم الظواهر لا غير بهذا المسعى تصل الميتافيزيقا هنا، إلى أعلى درجة التطرّف . هذا التطرف يجب أن نرفضه إطلاقا فكل البراهين التي تقدم على إثبات العالم الميتافزيقي*، ما هي إلا براهين واهية سرعان ما تنهار إذا ما تعرضت للبحث الدقيق. و حتى لو سلمنا بوجود العالم الميتافزيقي، فلن يكون لنا طريقا من محاولة فهمه طالما أن الصفات المطلقة التي تضفي على الميتافيزيقا تجعلها تعلو على الفهم البشري وتتجاوز حدوده.

هكذا يبدو لنا : العالم الميتافزيقي بعيدا عن متناولنا و هو عالم لا يمت بأي صلة إلى عالمنا الواقعي. كما قلنا سلفا – أن نقد نيتشه للميتافزيقا التقليدية يشبه النقد الوضعي المنطقي الحديث خاصة عندما يؤكد أن معرفتنا بهذا العالم تظل مستحيلة . فهو في هذا النقد يقترب نوعا ما من الموقف الوضعي القائل : إن القضايا الميتافزيقية لا يمكن اختبار صحتها عمليا، لأن شروط هذا الاختبار مستحيلة التحقق. أعني أن القضايا الميتافزيقية تقدم إلينا دون أن يكون هناك سبيل إلى الاهتداء للشروط التي نتحقق بها منها. حين يؤكد نيتشه نقده التفصيلي للقضايا الميتافزيقية، نلمس بينه و بين الاتجاه الوضعي التجريبي، مزيدا من التشابه الواضح يجعلنا نطرح التساؤل التالي: **لِمَ لَمْ يهتم الباحثون بإجراء مثل هذه المقارنة ؟!**.

---

[1] فؤاد زكريا، **نيتشه، المرجع السابق**، ص70، 71.

* يستعمل نيتشه عبارة تتعرض الميتافزيقا إلى البحث الدقيق، فهو بهذا النقد نجد لديه بعض التشابه، مع نقد الوضعية المنطقية لمباحث الميتافزيقا، سيما وأنها تستعمل لغة تضلل المعنى الحقيقي لذا وجب الإعلان عن نهاية خرافة الميتافزيقا . وبناء الأفكار الفلسفية على مباحث المنطق المعاصر.

ما قلنا سلفا أن الميتافيزيقا لئن ركزت على فكرة الجوهر، فإنها لم تبقى في البحث عن أصل هذا الموضوع ونظرة كل فيلسوف إلى فكرة الجوهر هذه بل تطرقت إلى فكرة الذات (Subjectif) كما ينظر إليها على أنها جوهر ثابت له كيانه الخاص، فهي المصدر الأول الذي ينبثق منه مختلف الأفكار والمشاعر والإحساسات، وهي الحالة الاستبطانية للشخصية الإنسانية، و العلة المنتجة لكل أفعالها . من الطبيعي أن تألف لدى نيتشه نقدا لفكرة الذات، كما نقد فكرة الجوهر . وقد رأى أن ديكارت (1596-1650) هذا الفيلسوف الفذ الذي عبّر عن الميتافيزيقا التقليدية و لخصّها في الوجود الإنساني الباطني حينما أردف قائلا : أنا أفكر، إذن أنا موجود (donc Je suis،Je pense) فهذا الأنا يستدل عليه ديكارت من خلال الذات الواعية، التي يرجع إليها كل فكر و شعور. من هنا يتساءل نيتشه عن جدوى وجود الجوهر الأساسي في النفس البشرية، و مايطرأ على السلوك من نتائج التبرير الذي يستند عليه ديكارت، هو اليقين المباشر للكوجيتو. لذا نقد نيتشه مثل هذا الاعتقاد بوجود يقين مباشر لمثل هذه القضية الفلسفية "ففيها اعتقاد بأنّني "أنا الذي يفكر، وبأنّه لابد أن يوجد شيء يفكر، وبأنّ الفكر نشاط صادر و ناتج عن كائن ينظر إليه على أنه علة وسبب، و بأنّ هناك "أنا"، وبأنّ معنى كلمة الفكر ثابت، و بأنّني "أعرف" ما هو الفكر[1] . يتضح لنا تعقيد القضية التي اعتقد ديكارت بأنّها يقين مباشر، علاوة على ذلك فهي تتضمن جل المشاكل الميتافزيقية، حيث تدعها هكذا دون أن تجد لها حلولا . يصرح نيتشه برأيه من أن ديكارت بكلمة تفكير ؟ فهل بالضرورة أن يكون التفكير دوما، هو علة الوجود ؟ يبرر نيتشه أن هذه القضية الميتافزيقية الديكارتية تنطوي على تناقض مفاده أن فكرة الجوهر صحيحة، و الأمر الذي أكذ ذلك الاعتقاد أدى بديكارت إلى أن يقع في افتراض سابق، ذي صبغة منطقية ميتافزيقية، لا إزاء قضية مباشرة. إن الطريق الذي انتهجه هذا الأخير لا يؤدي بنا إطلاقا إلى شيء يقيني، بل يؤدي بنا إلى تصور راسخ ذاع صيته بين الناس.[2] نلمس و نحن أمام نقد نيتشه لميتافزيقا ديكارت، نقدا صارما وجهه "آير Ayer" ذلك المتحدث بلسان الوضعية المنطقية (Positivisme Légisme) فيقول عندئذ : إن كلمة "أنا أفكر" كان يجب أن تحل محلها كلمة "هناك فكرة الآن " و لو قيل هذا، فليس في وسعنا أن نستنتج منه وجود الأنا، لأن حدوث فكرة في لحظة معينة لا يستدعي أن تكون هناك أفكار أحرى قد حدثت من قبل، و بالأحرى لا يؤدي إلى ربط متسلسل بين الأفكار، و تكوين ذات واحدة جامعة بينها"[3].

[1] Friedrich Nietzsche, **par de là, le bien et le mal**, P73-74.
[2] Friedrich Nietzsche, **La volenté de puissance**, Traduction Génévieve bianquis, (Gaillmard, Paris 1997,147), P P 81-82.
[3] Alfred jules Ayer, **Language, TruTh and Logic**. (University London, 1936), P P 41-42

لو أمعنا النظر في مثل هذا النقد المتشابه، بين نقد آير الذي يمثل اتجاه الوضعية المنطقية الذي يعتبر اتجاها هاما في فلسفة التحليل المعاصر و بين نقد نيتشه تخلص إلى أنهما لم يشيرا، إلى فكرة الذات المفكرة فحسب، بل يمتد نقدهما نحو فكرة العلية (caussalite).

هنا نقول بالعلة و المعلول، ليس إلا محاولة لتنظيم هذا الكون حتى يغدو معقولا،ومقبولا . ثم وجود العلة، ما هي إلا تنسيق للحوادث الطبيعية المتعاقبة و إدراك ثمة القوانين و تحديد العلاقة بين هذه الظواهر. إن نقد نيتشه هنا: يشبه نقد الفيلسوف الإنجليزي دافيد هيوم* (1711-1776) الذي نقد مبدأ السببية واعتبره مبدءا تجريبيا و هو انتقد ذاته الذي ورثته عنه الوضعية المنطقية . وعلى هذا الأساس ينتقد نيتشه المقولات الميتافزيقية الأساسية . و يدحض كل ما يمتّ بصلة لها، مثل: فكرة الشيء في ذاته.[1] و لسوف تجده: يقدّم نقدا عنيفا مفصلا يتناول فيه كل أسس ومبادئ الميتافيزيقا الرئيسية. وقد وصفها نيتشه ساخرا: "إنها العلم الذي يبحث في الأخطاء الأساسية للإنسان، كما لو كانت هي الحقائق الأساسية "[2] فالغرض من النقد النيتشوي للميتافزيقا لا يتمثل في رفضها، بل فيما تدعو إليه هي من ترفع عن هذا العالم والسمّو عليه، و دحض فكرة العالم المفارق Le monde Paradoxal الذي تضفي عليه من الصفات، ما ترفضه على العالم الحسي ليتضح لنا هنا: أن الروح النيتشوية، هي روح فلسفية قلقة ترفض المفهوم الكلاسيكي للميتافزيقا، حيث اتسمت روحه هذه بالواقعية التي تألفها في الرّوح العلمية . على الرغم من وجود بعض الفوارق بينهما أين نجد : لديه نزعة صوفية، تتجاوز تلك الصرامة المنطقية التي تتميز بها الوضعية المنطقية، كإتجاه فلسفي رائد في العصر الحديث. تلك سمة فلسفة نيتشه، فهي رؤية جزئية ليست تمجيدا لشخصية إلى حد المباهاة، و إنما استناداً إلى كتابات بعض الباحثين و المهتمين بالفكر النيتشوي على وجه التحديد –بأنّه فيلسوف حر جمع في فلسفته كل الأنساق، ولم يتوان في أن لا يترك نفسه ينقاد بسهولة وراء أي مذهب فلسفي يذكر من هنا استخدم نيتشه المنهج العلمي ليس في البحث عن طريق المعرفة والحقيقة فحسب، بل عن قيمتهما.

* وضع هيوم قواعدا لمفهوم السببية على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر و هو أن السبب أحيانا يكون متعددا فتكون النتيجة واحدة، أو قد يكون السبب واحدا فتكون النتيجة واحدة، فالظواهر الطبيعية ندرك علاقاتها و قوانينها إدراكا حسيا لا عقليا لأن التجربة الحسية هي انطباعات للذهن و يكون هيوم قد سبق جون استيوارت ميل في وضع قواعد الإستقراء المعروفة في تفسير مبدأ السببية .

[1] فريدريك نيتشه، **بمعزل عن الخير و الشر**، ترجمة جيزيلا فالور حجّار، دار الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1995 ص44.

[2] فريدريك نيتشه، **أمور إنسانية، إنسانية إلى أقصى حد**، (الجزء الأول، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002)، ص27.

المبحث الثالث: تأويل و حقيقة.

إن تفكير نيتشه ينتسب في الحقيقة إلى نوع من التفكير يحتل موقعا وسطا بين التفكير النظري المجرد و بين التفكير الحسي الحي، "فهو نظري لأن العالم الذي يحيا فيه هو عالم العقل، و لكنه أيضا عيني، لأنه لا يتأمل مشاكله بتلك النظرة الهادئة الباردة التي يتأملها، بها المفكر النظري الخالص، و لأنه لا يشاهد أفكاره كما يشاهد المرء عرضا مسرحيا لا تربطه بما يجري فيه أية صلة عميقة"[1]. و لهذا فإننا أمام مقارنة "بين فلسفة نيتشه ذاته، و بين فلسفات عديدة، و إن استثنينا و على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر، من هؤلاء الفلاسفة نجد الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1724-1804) الذي يتأمل مشاكله الفلسفية كلها بعقل محايد دون أن يقحم ذاته، في موقف مباشر و محتدم مع هذه المشاكل و إنما يكتفي بالحكم عليها بعد تفكير مضني، أما الأمر بالنسبة لنيتشه فإنه على النقيض من ذلك، فهو طرف أصيل في ذلك الصراع فيحاول جاهدا أن يجعل من هذه المشاكل وحدها قوام حياته"[2]، هذا و نجد أن أسلوبه يدل على فكر الفيلسوف، و هو أسلوب نابع من فكره الفلسفي الحر غير النسقي، لذا يختلف عن باقي الفلاسفة في نظرته عن سقراط، و يعتبر أن الفلسفة اليونانية رغم ما وصلت إليه من نضج فلسفي، إلا أنها بحاجة إلى الأصول الشرقية القديمة التي سبقتها، كما يختلف عن ديكارت في تكريسه المنهج الواضح في بناء الكوجيتو. فبهذا التصور لدى نيتشه يدرك أنه أراد أن يؤول كل التفكير الفلسفي برمته و إخضاع قضاياه المتعددة و المتنوعة إلى إرادة الحياة، لذا تجده حتى و إن اتفق معهم في بعض الرؤى يتناقض معهم في أن الفلسفة لا تعترف بالتمذهب فليس غريبا أن تلحظ لديه ميلا نحو الفلسفة اليونانية، أو ميلا نحو شوبنهاور و فانجر، لكنه سرعان ما يثور عليهم و ينتقدهم أشد النقد، انطلاقا من أن الفلسفة قابلة للتأويل والفه، و على هذا الأساس تبدو لنا نظرته إلى الحقيقة الفلسفية، مختلفة أشد الاختلاف عن أقرانه من الفلاسفة، و ذلك من منطلق أن كل موضوع فلفسي كان لا يخرج عن التفكير المجرد لأن الأمر ببساطة لم يكن هنا: لا علاقة بين التفكير الإنساني و الحياة التي تعمل على تأدية غايات هذا التفكير و الإستفادة من نتائجه، و يعود نيتشه و يذكّرنا ب، الحقيقة كان ينظر إليها على أنّها جوهر مطلق عالٍ، لكنّها في حقيقة الأمر تحتاج إلى نقد. فيحدد هكذا مهمتنا . يجب أن نحاول نهائيا أن نطرح للمناقشة قيمة الحقيقة.[3] إن سعي نيتشه هو محاولة الشك في الحقيقة ذاتها و عليه يتساءل بإلحاح لماذا نعتقد دوما أن هذه الحقيقة؟ أليس بوسعنا أن نتصور بأنّ هناك اللاحقيقة؟ من هنا نصل إلى موقف نيتشه أنه أراد أن يخضع الحقيقة إلى الواقع لا أن

[1] د. فؤاد زكريا، **المرجع السابق**، ص20.
[2] **المرجع نفسه**، ص20.
[3] جيل دولوز، **نيتشه و الفلسفة**، ترجمة أسامة الحاج، (المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1993)، ص121.

تبقى مجرّدة كما زعم الفلاسفة القدامى. و هو بهذا النقد أراد أن يتجاوز المفهوم الدوغمائي لكل المواضيع الفلسفية حيث غلب عليها التنكر النظري و إخضاعها كله إلى الواقع . لأنه لا يمكننا فهم هذه القضايا الإنسانية المصيرية دون إعطائنا قيمة للحياة التي نحياها و يسعى من أجل المحافظة عليها. يستعمل نيتشه المفاهيم و أضدادها الميتافيزيقا، باللاميتافزيقا، الدين باللاّدين، الحقيقة باللاّحقيقة، القيّم باللاّقيّم، الفلسفة باللاّفلسفة ...إلخ.

والهدف من هذا التشكيك هو محاولة تحطيم الفكر البديهي من جهة، ومن جهة أخرى تغيير اليقين باللاّيقين، وعليه يمتلك الإنسان في نظر نيتشه تقويما لكل قضاياه الجوهرية ليتبين في آخر الأمر أن الإنسان خلق لفهم الحياة لا ليبتعد عنها. و مرة أخرى يتساءل نيتشه بعمق عن معنى الحقيقة على نمط الطرح الوجودي و لكنه يبدو أكثر منهم قلقا عن مصير الحقيقة، حيث يتساءل هل كل ما نقوله عن الحقيقة نفعله في الواقع؟[1] ماذا أريد أنا بالذات بالضبط؟ إن هذه التساؤلات هي تطبع ثقافتنا في العصر الحديث. ينتج عن ذلك انقلاب جذري لكل المفاهيم على مستوى التفكير في حد ذاته، وعلى مستوى نمط الحياة، و هذا ما كان نيتشه يسعى إلى العمل من أجله طوال حياته، في ابتكار بناء جديد لصرح الفلسفة عموما . وهو في كل مرحلة تاريخية يعلن التجاوز والنقد، وإيمانه بفكرة الصيرورة والتغير لأن الحياة بذاتها تستوجب من الإنسان مسايرتها وفهمها فهماً إنسانيا حقيقيا و متأصلاً، وليس السعي وراء المنافع و تحقيق المآرب الذي أفقد الإنسان وجوده بكل ما يكتسيه من أبعاد إنسانية هادفة، هو تلك الأخطاء التي تمثلت في القصورات الفلسفية التي كنا نعتقدها كافية ومطلقة ولا يمكن نقدها أو الثورة عليها. في هذا الشأن يريد نيتشه أن يضع منهجا فكريا حديثا، و نمطا حياتيا وجودياً يحترم الإنسان ككائن واعٍ له غايات وأماني، يسعى إلى تحقيقها من خلال إعطائه للحياة قيمة إنسانية. وعلى هذا الأساس استعمل نيتشه المنهج الجنيالوجي مكان المنهج التراجيدي القديم.

أراد نيتشه أن يؤول كل الفلسفات برمتها بدءا بالفلسفة اليونانية خصوصا فلسفة سقراط (470-399 ق.م) حتى و إن أتى بالمنهج الشكلي الذي يختلف عن منهج السوفسيطائيين*،فإنّ منهجه هذا قوامه التهكم في مرحلة أولى يرمي إلى تصنيع الجهل و عدم المعرفة، بالنسبة للخصم، و في المرحلة الثانية يأتي منهج التوليد، حيث يعدّ منهجا جوهريا في توليد الأفكار و الردّ على خصومه. من هنا نقد نيتشه المنهج السقراطي و تهجّم عليه ساخراً منه، ويعتبر أن المرحلة التي كانت قبل سقراط، كانت تكتسي طابع التفلسف الناضج، و لا يكتفي نيتشه بتأويل الفكر القديم فحسب بل يتجه إلى الفكر الفلسفي، حيث يؤوّل الأنساق الفلسفية ويهدّم فكرة النسق الذي طبع تاريخ الفلسفة عموماً . فهو يؤوّل كل الفلسفات، و يجعلها خاضعة لخدمة الحياة،

[1]Friedriche Nietzsche, **Aurore traduit julien** (sigma, Edition, 1880), P150.

* إن صفة الشك (Le doite) من صفات التفكير الفلسفي، السوفسطائي هو شك مطلق، في البحث عن الحقيقة المطلقة فهم شكو فيها نظرا لعدم وجودها إطلاقا فالقول: بوجود حقيقة هي عدم وجود حقيقة. على غرار الشك السقراطي فهو شك منهجي، غايته بناء التفكير الفلسفي الخالص، من خلال مقولة، أعرف نفسك بنفسك، ثم الإتجاه إلى معرفة الواقع و محاولة فهمه و بنائه.

فالفلسفة ليست مجرّد تصورات تجريدية جوفاء، أو مجرد إحساسات تنقل انطباعاتها بفضل التجربة باعتبارها مصدرا نحو المعرفة الذاتية. إن نيتشه يعتبر أن الأخطاء الكبرى للفلسفة تكمن في النظر دوما إلى الأصل أي أن الفلاسفة تناولوا قضايا الفلسفة (الكون، المعرفة، القيّم .... إلخ) تناولا نسقيا بعيدا عن جوهر الحياة الإنسانية، من منطلق أن كبرى المشاكل الفلسفية، تمشي معنا في الشوارع، و طبيعي أن ينقد نيتشه فكرة الكوجيتو الديكارتي، بمعنى أن: الذات تتحكم في الوجود و من ثم أن ديكارت لخص الميتافيزيقا التقليدية كلها، وطبعتها على الوجود الإنساني الباطني، و يتساءل نيتشه: هل هناك ما يبرّر القول بهذا الوجود الإنساني؟ فليس بالضرورة؟ أن تكون الذات هي أساس الوجود طالما أن الوجود هذا لا يعيش جوهر الحياة بحرية إنسانية خالصة. كما نقد أيضا شوبنهاور عندما تصور أن الإرادة بمثابة كل شيء في الوجود لذلك فإنها "ستظل دون إشباع و إرضاء لأنها لا تستطيع أن تجد شيئا خارجها يمكن أن يشبع رغباتها و يرضي شهواتها. إنها دائما على هذه الحال من عدم الرضى و التعطش، وهي لا تجد إلا نفسها تحت كل الأقنعة العديدة الظاهرة في الحياة"[1].

إن نيتشه ينتقد تصور شوبنهاور على الرغم من الاتفاق معه على أن الحياة إرادة و أن جوهر الحياة هي الإرادة كما يؤوّل قول شوبنهاور بالإرادة ليس إلا كلمة جوفاء . لئن كانت تصورات الفلاسفة الدوغمائية تنظر إلى الحياة نظرة قاصرة فلأنها ترجع ماهيتها إلى إرادة مضيق عنها، و ذلك يعود إلى نظام المذهب، الذي يترك الفيلسوف داخل هذا المذهب لا تخرج عنه، ولا يمارس حرية فكره الفلسفي، ولا يعيش حياته بشكل منتظم، وهذه الرؤى الفلسفية تنظر إلى الحياة على أنها مأزق دائم، فهي تصورات تضيّق النظرة إلى الحياة، بينما هذه الحياة هي خطر و تضحية و نتيجة لهذه الرابطة بين الفكر والحياة، جاء نتاج نيتشه لا يشبه الفلسفة التقليدية فليس انتقاصا من مجهودات الفلاسفة الذين سبقوه، وإنما وردت دعوته جريئة لم يكتف بتأملات هادئة حول الكون، ولكنها تأملات ثائرة قوامها حبّ إرادة الحياة. وليست مجرّد تنظيرات تجريدية، تبقى على مستوى الميتافويقي الكلاسيكي. تلك هي الميزة التي تجعله يختلف عن الفلاسفة الذين سبقوه، و حتى المعاصرين له على حد سواء، لذا أقّر نيتشه أن يضع تأويلات شاملا للفلسفة، وللعلم، والأخلاق، والميتافيزيقا، والدين، والحقيقة، لأن هذه الموضوعات لم يعط لها العناية و القدر الكافي، من التحليل الفلسفي العميق. فنحن نريد أن نرسم صورة لفلسفة نيتشه، نرجو من جرّائها أن تكون صادقة مع تصوره، هو في حدّ ذاته، ونفهم القضايا الأساسية في فكره في فكره، على أننا نعتقد بالإمكان، أن الحضارة الغربية قد بلغت نهاية من التقويم مع بداية الانحطاط والعدمية، بالموازاة أن نعتبر إرادة القوة، العود السرمدي، الإنسانالأعلى هي سمات فلسفته وبداية تقويم جديد، كتابات بعض الباحثين حول فلسفته تؤكد لنا أنه ناهض التراث الفلسفي بقدر من العنف، من خلال ميتافزيقاه و عقائده، و خاصة الفكر الفلسفي الغربي تجعلنا أمام سؤال جوهري: هل ظلّ نيتشه مرتبطا بالتراث

[1] د. عبد الرحمن بدوي، **نيتشه، المرجع السابق**، ص221.

الفلسفي، أم أنه تجاوزه، و وجد أساساً للفلسفة؟ من هنا يرى الفيلسوف الوجودي الألماني: مارتن هيدغر (1889-1976) أن نيتشه استطاع أن يتجاوز فعلا الميتافيزيقا الغربية و فلسفته تشكل نهايتها، كونه اعتبر أن الفلسفات التقليدية و حتى الحديثة لم تحل خطاباتها من تلك التصورات النظرية التجريدية إطلاقا، ذلك أن فلسفة نيتشه تنم فقط عن النزعة الأساسية للميتافزيقا الغربية، حين تجمع بين موقف (بارمينيدس)* الذي يفسر الموجود بأنّه الحضور الثابت والدائم، و موقف (هراقليطس)*، الذي يفسّر الموجود بأنّه المتغيّر و الزائل[1]. الرأي الذي نلتمسه من نيتشه هو أنه أراد أن يحصل الميتافيزيقا واقعا، عوض أن تكون متعالية عنه فقد كانت منذ العصور السابقة بدون معنى يذكر لها، طالما تعد موضوعا فلسفيا خصبا. يرفضها ليس من أجل الرفض، بل لأنها بقت ضمن نطاق النسق الفلسفي، ممّا أجبرها على الجمود، و عدم الإرتقاء نحو الحياة، و بالتالي يميل نيتشه ميلا واضحاً إلى النزعة اللاّعقلية و يتجه باتجاه الإندماج الطبيعي المباشر بالطبيعة التلقائية في صورتها الأولية. من منطلق أن العقل في اعتقاده هو الذي يشوّه هذه الصورة الأولى للطبيعة. من هذا المنطلق ارتأى نيتشه أن يبدأ حملته على الميتافيزيقا بمفهومها الوثوقي و يراها أقرب إلى الشعور و الخيال، و ينقذ الأخلاق الشائعة . و يدعو إلى قلب كلّ القيم السائدة، و من ثمّ يحاول أن يتخذ من الإتجاه العلمي السائد أحياناً منهجاً لتقويم الأخلاق ؟ إضافة إلى الحقيقة كونها ذات قيمة متغيرة. ولا غرو إذن أن نيتشه يمجّد الحياة الإنسانية، فهي القوة الدافقة لكل نشاط إنساني مبدع و خلاّق. إنّ فعل التأويل (L'interprétation) المزمع اقتراحه من قبل نيتشه مفاده أن جعل الفلسفة والحياة شيئا واحداً، من قبيل أن الفيلسوف يتفلسف بكلّ كيانه و بوجوده الكامل و تمثل الفلسفة عندئذ تجربة رائدة تمتزج فيها ذات الفيلسوف و حياته، حيث لا يفكّر نظرياً، و هكذا يمثل نيتشه في نظر كل كتب عنه بأنّه فيلسوفا فريداً من نوعه. وعليه يريد هو أن تكون الفلسفة بهذا النمط الحيّ الزّاخر، المفعم بتجارب الحياة، لا عبارة عن تجارب هزيلة منحلة.

بعد نقد نيتشه لتاريخ الفلسفة، و نقده أيضا للميتافزيقا بمفهومها الكلاسيكي، يعتبره هو في حد ذاته إعادة تأويل و من ثمّ إعطاء مفاهيم جديدة لها، حيث تصير الفسلفة إذن مزيج من التجارب الفلسفية لشخصية الفيلسوف متطابقة مع حياته، إذ أنّها تشكّل وجوده و فلسفته على الدوام. الأمر ينطبق على الميتافيزيقا، فيجب عليها أن تبتعد عن الجمود و عن التمذهب، لذا كانت نظرته مخالفة أشد الاختلاف عن أقرانه من الفلاسفة. بعدها ينتقل نيتشهإلى تأويل الأخلاق، ممّا يجعل نقده لموضوع الأخلاق الذي يأتي بعد نظرته إلى الفلسفة و الميتافيزيقا، فموقفه الفلسفي بدا محيّراً في نظر الباحثين فهو يهتم بها، و يعطي لها أهمية كبرى، وتتضح هذه الغاية لديه، في أن هناك ظواهر عديدة تختلف في مضمونها عن الأخلاق مع أنها تستند

* بارمينيدس (504- 470 ق.م) فيلسوف يوناني ينتمي إلى المدرسة الأيونية قال بثبات الكون.

* هراقليطس (540-475 ق.م) فيلسوف يوناني ينتمي إلى المدرسة الأيونية، قال: أن كل شيء في تغير مستمر، و الوجود يتحول باستمرار، لأنه دائم السيلان.

[1]Heidegger M ,**Nietzsche**, T1, P P 360-361.

إليها من جهة، و من جهة أخرى تجده يقدّم نقداً عنيفاً لها. تكمن الأهمية في الأخلاق عنده، في أنّ المعرفة هي الدافع الإنساني الجوهري لأننا نريد أن نعرف أكثر حتّى يتسنّى لنا اكتساب المزيد من القدرة على السلوك و من ثمّ امتلاك السيطرة على الأشياء. وهذه تندرج ضمن الفعلي العملي، لا الفكر النظري . فالإنسان عندما يسعى إلى اكتساب المعرفة تكون للأخلاق عندئذ قدرةً نافذةً على تحقيق سلوك قويم. و ليس في اعتبار أن الأخلاق مجرّد تفكير نظري مجرّد بعيد كلّ البعد عن السلوك العام، هذا التصور الأخير لديه يشكل أعنف نقد قدّمه نيتشه لعلم الأخلاق طوال تاريخ الفكر الفلسفي . و عليه فنحن أمام تناقض ظاهري، يحيلنا إلى تحديد ما هو المقصود بالأخلاق من خلال تلك الحملات النقدية لدى نيتشه. حينها نتمكن أين: تتّضح تلك الأهمية التي يبادر بها في الوهلة الأولى، و بين ذلك النقد اللاذع الذي يقدّمه إليها. يقول نيتشه إن الحياة إزار طبعها الضعف فذلك راجع إلى أن الأخلاق أيضاً يسودها هذا الضعف، لكنّها ما تلبث أن تخلق من هذا الضعف قوة و إرادة"[1]، هذه نظرة تأويلية للأخلاق.[2]

إن المعنى الأخلاقي لديه هو اللاّ أخلاق، فيفهم من هذا المعنى كما جرت العادة أنها دعوى إلى التجرّد من القيم الأخلاقية النبيلة، أي الإندفاع نحو الهمجية و الإباحية، و ينجلي ذلك في السلوكات اليومية للنّاس مع بعضهم البعض. التأويل في نظره أن تكون الأخلاق دوماً في تجدد دؤوب للقيم، و عدم الاعتراف بهذا النمط السائد للأخلاق، التي تركتز على مبدأ الخير و الشر. و لا يعدّ هذا جنوحاً عن القيم الأخلاقية كما يفهم لدى الناس أو انحرافاً أو انحلالاً و تلك صفة الناقد الصحيح، فلا يمكن أن نصدر حكماً من خلال القيمة السائدة و إنّما ينبغي وضع هذه القيم ذاتها موضع الشّك (Le doute)، مع إضفاء عليها منهج التّأمل (Méditation) و غايته هي تقويم القيم، و اختبارها منذ البداية، لنقرّر صلاحيتها. وقد سعى نحو تأصيل هذه القيم الأخلاقية السائدة في نفسه، و في كل إنسان. إنّ دعوته هذه معناها الاستقلال عن التقويم الأخلاقي السائد، فلا يعني أنه يخالف أو ينحرف عنها، كما يعتقده البعض، بل جعل من تجاوز ذلك التراث الأخلاقي، الذي أخذت به المجتمعات المتحضرة حتى ذلك الحين، الذي بدا متأصّلا فيها. الأخلاق التي ذاع صيتها إذن، كما يراها نيتشه هي أخلاق قديمة لا تصلح أن تكون مبادئ عامة للنّاس، و لا يمكن لها أن توجّه السلوك الإنساني العام، و إنّ هذا الوضع تدهورت فيه الأخلاق، حيث أخلاق العبيد هي أخلاق منحلة، و أخلاق السادة تتصف قبل كل شيء بأنّها أخلاق للأقوياء، كثيراً ما تشعرنا بالقوة. يقول نيتشه: "خلال جولتي بين عديد من النّظم الأخلاقية التي سادت فوق الأرض حتى اليوم، و منها العميقة و السطحية، اهتديت إلى سمات معينة تتناوب سوياً، و بأنّتظام، و هي سمات يرتبط بعضها ببعض و سمات

[1] Alain Graf ,**Les grands philosophes Contemporaine**, P21.
[2] Friedrich Nietzsche ,**Elément pour le Génécologie de la morale**, P 14-15

بدى لي منها في نهاية الأمر نوعان أساسيان من الأخلاق يميزها تقابل هما: أخلاق السادة، و أخلاق العبيد"[1] .

هذه هي أخلاق السادة و أخلاق العبيد، و هي أخلاق كشف لنا نيتشه باستعمال المنهج الجنيالوجي، الأصول الخفية التي تؤخذ منها، و أبأنّ أن بسبب الانحطاط في الأخلاق راجع إلى انتصار أخلاق العبيد على أخلاق السادة، و أن الذي يتخفى وراء الأنواع المختلفة هي الغرائز[2].

كان علينا أن نلاحظ أن نيتشه لم يقابل أخلاق العبيد و أخلاق السادة من منطلق أنه يسعى إلى تحقيق هدف معيّن، بل تكوّن لديه اعتقاد راسخ بفضل استقراء مؤدّاه تأمّل النظم الأخلاقية في أمم مختلفة و استخلص منها نتيجة و هي تناوب أخلاق السادة، و أخلاق العبيد* من هنا يضع تقسيماً جديداً، العصر اليوناني و الروماني تسوده أخلاق السادة و هنا الغلبة للأقوياء، ثم تنتصر أخلاق العبيد في عصر اليهودية والمسيحية ويسيطرون على الأرستقراطية و الرمانية، و في عصر النهضة الأوروبية تعود أخلاق السادة من جديد بالرجوع إلى المثل العليا اليونانية، غير أنها تقهر من طرف حركة الإصلاح الديني. و هكذا يدبّ الصراع بينهما*. وبالتالي أخلاق العبيد هي التي تسود، بعدما عرفت أخلاق السادة انتعاشاً على يد نابليون. سرعان ما يسود العصر في نهاية الأمر الوهن و الضعف والانحلال. القراءة التأويلية النيتشوية للأخلاق هي يجب الخروج عن الطابع السائد للأخلاق، حيث وصفها باللاّ أخلاقية لمّا سادها تصور دوغمائي يتمحور حول مبدئي الخير و الشر، لكن الأخلاق في نظره، لا تعني أنه خرج عن المألوف و انحرف عن النظم العامة، و إنما يجب أن تكون الأخلاق ذات صلة وثيقة بالحياة و الدعوة إلى الخلق و الابتكار الفردي، و مواجهة المرء لكل حالة على حدة، فيتوق إلى الشعور بالخطأ الناتج عن التجديد المستمر، فيجب في نظره أن تخرج الأخلاق عن ذلك الطابع الساذج العام . و بهذا النقد النيتشوي نصل إلى التأويل الذي يريده نيتشه و هو أن الأخلاق بطابعها المعتاد هي نظم عامة ينقاد لها السلوك، فلا تكون كذلك في رأيه لأنه خالف الفلاسفة في مثل هذا القصور العادي، بل يجب أن تكون بعيدة عن التفكير المجرّد الذي يسيطر على الإنسان فيكون السلوك نتيجة لهذا التفكير.

---

[1] Friedrich Nietzsche, **Par de la bien et le mal paragraplie**, 260, P 324.

[2] أسوالد أشبنغلر، **تدهور الحضارة الغربية**، (الجزء الأول، ترجمة أحمد الشيبانّي، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان الطبعة الأولى، بدون تاريخ)، ص596.

*Friedrich Nietzsche, **Humain trop main** Tome I, P P 92-93.

* في نظر نيتشه يكون الصراع بين أخلاق السادة التي مثلتها الحضارة اليونانية قبل سقراط ، وبين أخلاق العبيد التي تمثلها المسيحية واليهودية، وبعدها ينتقل بينهما في العصر الحديث بين النهضة الأوروبية التي تمثل أخلاق السادة ، وبين حركة الإصلاح الديني التي تمثل أخلاق العبيد، وهذا الأخير يقضي على الإزدهار الذي حدث في عصر نابليون فيسود بعد ذلك الوهن والضعف والإنحطاط.

يدعونا نيتشه في نهاية الأمر إلى استبدال الحالة الأخلاقية عامة، بكلمة تحقيق الحياة وذلك بفضل فكرة الإنسان الأرقى، وفكرة إرادة القوة.

لم يعتاد الفلاسفة قبل نيتشه أن يتساءلوا عن قيمته الحقيقية و عن الفائدة المرجوة منها[1]، ذلك أن المعرفة الإنسانية تسعى إلى تحقيقها. فأحيانا قد نخطئ نحن في اتخاذ الوسائل التي تقربنا نحو الحقيقة فهي قد ارتفعت فوق عالم التغير و الصيرورة، الذي نحياه و نعيشه و ابتعدت عن حياة الإنسان، و اتصفت هنا بالمطلقية، الأزلية فكونت في نهاية الأمر عالما قائما بذاته. و نظرة الفلاسفة إليها على اختلاف مذاهبهم مثل سقراط، أفلاطون، ديكارت، كانط، هيغل، ماكس ... إلخ. على أنها مطلقة و أزلية، لا يمكن الوصول إليها وفهمها لكن نيتشه لا يعترف بهذا التصور، فالحقيقة لا توصف بالأزلية والمطلقية، إلا إذا تساءلنا عن سبب هذا الوصف، فلا يكتفي المرء بطرح تساؤلاته النظرية، و إنما تمتد إلى البحث عن المصدر الأول الذي جاءت منه المطلقية و الأزلية. أما نيتشه فقد بدأ بمهاجمة الأصل محاولا أن يتأكد من هذه الصفات، أمام هذا الموضوع يمكننا أن نطرح السؤال الجوهري وهو: هل أصاب الفلاسفة حين فصلوا الحقيقة عن الحياة أم أنهم أخطأوا ؟ إنّ هذا السؤال أدّى بنيتشهإلى مخالفة جميع الفلاسفة في نظرته إلى الحقيقة فلا ينبغي أن نفصل بين الحقيقة و الحياة.[2] لأن الحياة هي الأصل الذي يتحكم في كل فعل أو فكر إنساني، و بالتالي يجب إخضاع الحقيقة لأصل يتحكم فيها هو الحياة، و يكون علينا تغيير نظرتنا إلى الحقيقة تغييراً شاملا، فالحقيقة كما يشاع عنها بأنّها ثابتة، بمعنى أنّها منفصلة عن الحياة، و غلب عليها القصور الذهني، و أصبحت الحقيقة لذاتها، فتلك في رأيه تصورات فارغة لا معنى فيها. فالحقيقة في نظره يجب أن تكون ناشئة من النفع الحيوي*، فمن الصعوبة بمكان أن تخرج الحقيقة، عن إرادة الحياة، لأنها لا تبحث إلا عن نفعها الخاص، أعني أن الحقيقة لن تكون خالصة، و إن الغرض من الحقيقة هو استمرار لحياتنا الإنسانية أي: الغاية الحيوية.

يؤكد الباحثون بأنّ نظرة نيتشهإلى الحقيقة تشبه نظرة البراغماتيين إليها خصوصا مبالغته في تقدير أهمية الفاعلية الإنسانية، و بالتالي فهي المخالفة للحقيقة، ذلك أنها تعتمد على الإنسان. وعليه في كل الأحوال لا يمكن أن نغفل دور الواقع في تكوين الحقيقة، فيجب أن نخضع الحقيقة للنفع الحيوي، فكل وسائلنا في المعرفة، سوف تخضع لإرادة الحياة. وبهذا التصور لازم نيتشه وفلسفته في حياته، حتى تلك الفترة التي انبهر فيها بالعلم و أعجب بمنهجه. إن التأويل الذي طرحه نيتشه، مفاده أنّ الحقيقة يجب ألاّ تخضع للتفكير العقلي

[1] Jean Granier, **Nietzsche vie et vérité**, P P 47-48.

[2] Friedrich Nietzsche, **Par de là le bien et le mal**, P P 91-93.

* نجد في النفع الحيوي لدى نيتشه ما يقربه من مذهب "البراغماتية" ففلسفة البراغماتية تقضي بدورها على فكرة الحقيقة الخالصة، و تحاول ربطها بالحياة، و ذلك ما قصده نيتشه أيضا أن تكون ذات نفع حيوي إنساني خالص، فالحياة هي أصل الحقيقة، لكن يخالف البراغماتية عندما تدعو إلى المثالية، بينما يدعو هو إلى فاعلية الإنسان، هذا الموقف يخالفهم نيتشه ويقترب نحو الوجوديين.

المجرّد، و أن لا تكون الحقيقة حقيقة لذاتها، بل يجب أن تكون ذات منفعة للإنسان لأنّه هو الذي صنع الحياة . فالأمر إذن يقتضي أن تكون الحقيقة نابعة من الحياة، لا تكون مفارقة لها وبعيدة عنها، كما ادّعت الفلسفات التقليدية. ففي كلّ الأحوال لا نستطيع في نظر نيتشه أن نغفل دور الواقع في تكوين الحقيقة، بمعنى أن نظافر العنصر الإنساني مع العنصر الواقعي، في الوصول إلى أية حقيقة، فنيتشه يرى أن الحقيقة تعتمد على الإنسان في خلقها من جديد، أكثرهما تعتمد عليه في كشفها.

إن الفاعلية تثبت وجودها حين تتعمّق في هذا الواقع وتصل إلى طبيعته الخفيّة، و تصوغ إيقاعه في قوانين تمكّن الذهن من التحكّم فيه[1]، إن النظرة النيتشوية إلى الحقيقة، بما أنها ترتبط بالواقع وتحقق النفع الحيوي، فإنها ذات علاقة وطيدة بالفن و بالقيم[2] و نجد نحن في هذا الأمر كما أكّد بعض الباحثين أن نيتشه اتّصفت رؤيته إلى الحقيقة بنوع من التصوف خصوصاً كتاباته الأخيرة.

يرى نيتشه أن الفلسفة قد انتابها النسيان لمشكلة الحقيقة فهي ليست موضوع المعرفة و إنما من حيث هي المشكلة ذاتها. فقد تفاجأ لكون المشكلة الحقيقة مشكلة جديدة[3] و أنّه أوّل فيلسوف من طرحها يقول: "إن هذه الحقيقة الذائعة الصيت و التي تحدث عنها الفلاسفة دائماً باحترام، يبدو أنّها لم تبدأ إلاّ منذ حين كما يبدو، و بصورة قطعية، أن مشكلة الحقيقة لم تطرح أبداً حتى الآن، و أننا أوّل من لاحظها ويتأمّلها جيداً، و تجرأ على طرحها"[4]. و يعتبر أنّ ما قيل عن الحقيقة محاولات فاشلة و ساذجة. إنّه علينا أن نفرّق – حسب نيتشه– بين معرفة الحقيقة و إرادة الحقيقة التي تنسب إجمالا إلى حقبة الميتافيزيقا التي تبدأ مع أفلاطون لتشرف على نهايتها مع هيغل، فالحقيقة عند نيتشه تتجاوز كل المرأجل التاريخية، بدءا من اليونان، حتى العصر الوسيط المدرسي، فهو كان يشعر على عكس سابقيه،بأنّه ملزم بأنّ يعطي لها معنى آخراً مميّزاً عن التقليد الغربي. فحاول تخطي مفهوم الحقيقة المطلقة وهدم السند الذي تقوم عليه. نقد الحقيقة، حسب نيتشه لا يتمثل في مهاجمتها أو دحضها للحجج الميتافزيقية، بل يجب أن نكرّس النقد الجنيالوجي الذي يتمثل في دحض الأحكام الأخلاقية و القيّمية المسبقة، و أن نرجع بالحقيقة إلى مجراها الطبيعي، أي الصيرورة، و ذلك بأنّ نجعل منها عنصراً وثيق الصلة بالحياة. إن استعمالها وهدفها في خدمة هذه الحياة، فكل تطور لها نابع من الحياة التي تقودها وتوجهها.[5]

[1] فؤاد زكريا: نيتشه، المرجع السابق، ص67.

[2] Roland Hayman, **Nietzsche , Les vois de Nietzsche**, Traduit de l'anglais par christian cler, (Edition du seuil, France 2000), P 32 , P35, P37.

[3]Nietzsche, **La volenté de puissance**, Tome II Traduit Génévieve Bianquis (Edition Gaillmard, Paris, 1948), P 556.

[4] Friedrich Nietzsche, **Par de là, Le bien et le mal** , P 10, P 18.

[5]Heidegger, **Nietzsche** , Tome I, Opcit, P 402.

لم يكن نيتشه يهدف إلى التأويل كتأويل للقضايا الفلسفية على مستوى التفكير النظري، كما هو مألوف عند الفلاسفة التجريديين . إنّما كان يسعى إلى إحداث نظرة فلسفية نقدية متجذرة على مستوى ربط هذه الموضوعات، بالحياة البشرية فيستحيل أن نلقى هذه الأخيرة اهتماماً إذا هي ابتعدت عن الواقع، وعليه فالتفكير لا ينشأ إلا بوجود مشكلة كونها تحفّز الإنسان نحو جادة التفكير المجدي بغية إيجاد حلول لمشاكل عصره في مختلف القضايا المصيرية.

لقد رأى نيتشه أن هذه القضايا سادها التناول النطري، و كثرت حولها أحكام الفلاسفة المتناقضة، حتى صارت عندئذ بعيدة عن الارتقاء إلى مستوى التفكير المنظم. ثم يتبين لنيتشه السبب الحقيقي لتراجع قيمة هذه الأبحاث الفلسفية لما سادها التصور البارمنيدي القائل: بثبات الكون، و لم يجرؤ أحد أن يكرّس نوعا من القول بالصيرورة لدى هرقليطس و مردّ ذلك الخوف من التحول و الصيرورة.[1] و ينوه نيتشه في كثير من الأحيان إلى امتعاضه الشديد من الوضع الذي آل إليه التفكير اليوناني، و كيفية تناول هؤلاء الفلاسفة لقضايا الفلاسفة بنوع من الفتور العقلي و سوء الفهم. طبعا يرجع ذلك إلى الفهم السقراطي خصوصاً مفهوم ظاهرة الديونيزية[2] لدى اليونان، التي كانت تكتسي من قبل نمط حب الحياة و الفهم السليم، وأثناء بزوغ المرحلة السقراطية فقدت ذلك الطابع الحيوي، لمّا اتّسمت بطابع الإغراق في التجريد . ويشبهنيتشه حالة سقراط القديمة بحالة هيغل الحديثة، حيث الإغراق المطلق للتفكير المجرّد. سواء في الفلسفة عموماً، و حتى الفلسفة الألمانية على وجه الخصوص، هذه الحالة في اعتقاد نيتشه بمثابة انحطاط لنمط العقلانية ضد كل ما هو قابل للوضوح و التميّز .

العقلانية في هذا الشكل تمثل أكبر خطر يهدد التفكير البشري و خاصة الحياة و نتيجة لذلك تميّزت الديانة المسيحية، فيمثل هذا السكوت الرهيب الذي ينشئ بقمع كل تصور بولوني أو ديونيزي ومعه كل القيم الجمالية[3]، لذا يدعو نيتشهإلى إحداث ثورة فكرية تعدّل مسار الفكر الفلسفي بقيمة، و معه الحياة و علّو شأنها في نظر الإنسان، و هذا ما كان مغيّباً تماماً في المرحلة السقراطية، حتى فقدت تلك القضايا مصير وجودها و هي بمنأى عن الحياة.

إن الغرض من فكرة التأويل النيتشوي هو محاولة لتكريس فكرة العود الأبدي لأن يعود الفكر الفلسفي اليوناني و حتى الحديث إلى جادة الصواب. و يذكرنا نيتشهبأنّ هناك صراعا بين روحين بدأت ملامحها منذ العصر اليوناني أي بين المرحلة الديونيزية الحيوية التي تمثلت فيما قبل السقراطية، و المرحلة الأبولونية الجامدة التي تمثلت أثناء وجودها بالفعل.

[1] فؤاد زكريا، نوابغ الفكر الغربي، نيتشه، ص72.
[2] Frédriche Nietzsche, **L'antéchrist**, Traduit Jean Claude Héméry, (Edition Gaillmard, Française 1974), P 140.
[3] **Ibid**, P 140.

إن هذا الصراع أيضا انتقل إلى عصرنا فهناك تيار ينزع نحو النسقية المغلقة، و تيار ينزع نحو النفع الحيوي للحياة و الاندماج معها، حيث ترى نيتشه في كل مرة من مراحل عمره يكرّس فكرة العود الدائم (Le retour ternel) لا شيء و إنما قصد تمكين الإنسان في الفهم السليم لكل القضايا وربطها بالحياة، و هذا ما لم يكن موجودا طيلة الحقب التاريخية التي مرّت بها الفلسفة.

إننا نلمس في شخصيته بزوغ الحرية و عدم الوقوف عند تصور معين، فيجب على الإنسان أن يساير الحياة و يتعمق في حل مشاكلها، و لعلّ هذا ما كان يصبوا إليهنيتشه في مشروعه الفلسفي سيّما عند استعماله للمنهج الجنيالوجي أي الحفري و يعني به دراسة أصول كل القضايا الفلسفية و مرجعيتها التاريخية و من ثمّ تحديد نظرة كل الآراء الفكرية لدى كل عصر معين. و على إثرها يبدأ في إبداء نظرته هو في قضايا الفلسفة و الحياة، من هنا استطاع فكره أن ينفذ بسهولة و مرونة فائقة في كل المذاهب الفلسفية السائدة في عصره. فأثر فيها تأثيراً لا يكاد يوصف! حقاً إنّه شعور فيلسوف محبّ للحياة يعرف معناها، و ذلك من منطلق أن التجارب الإنسانية لا تلق وجودها إلا إذا صقلت في معاناة وقلق و اضطراب مستمر، فتزيد المرء تضحية لأجل الحياة طالما أن هذه الأخيرة تتيح لنا الفهم السليم بكل ما يهم الإنسان من أفكار و مواقف بطولية. و من الواجب علينا أن نستفيد من الدين أو الميتافيزيقا، الأخلاق و غيرها من القضايا الفكرية، خصوصاً إذا نحن ربطنا قيمة كل واحدة بالحياة، لأنّ الفتور الذي اكتساها – كما يصرّح نيتشه– كان بفضل ذلك الطرح الفلسفي الجاف، إذ أنه لم يعر أي اهتمام بواقع الحياة، ربّما أفقدها بعدها المعرفي و الإنساني و عليه كان لزاماً على نيتشه أن يعلن التأويل لتجاوز هذا التصور ثم يشرع هو في إبداء رأيه في الحقيقة و الميتافيزيقا مخالفاً للإتجاهات السابقة و يكون على شاكلة الطرح الوجودي و البنيوي المعاصرين.

الحقيقة المراد تحقيقها في تصور نيتشه هي أن نخضها إلى الواقع . و بالتالي ضرورة فهم حقيقة العلم و تميّزها عن حقيقة دور الفلسفة و الوصول إلى ضرورة الالتقاء بينهما من خلال الكشف عن الدور المنوط لكل منهما في خدمة الإنسان و الحضارة، و من هنا أولى نيتشه اهتماما بتصحيح تلك الآراء التي تشوب العلم و التقليل من خلو*** النزعة الوضعية المنطقية في إرجاع كل الحقائق نحو التحليل و التجريب. رغم ما نألفه من تأثر في بادئ الأمر من قبل نيتشه بالمرحلة الوضعية، لكنّه لا يتوان في الإعلان بالثورة على العلم في حد ذاته، و إنّما في تلك السلوكات التي بات ينتهجها العالم مهما كان تخصصه العلمي، من استفحال التفسير الحتمي و الغائي على كلّ ما يمتّ للعلم من أخلاق و مواقف شخصيته، تؤهله لاكتساب خصال الرّوح العلمية.

يجب على العالم أن يتجاوز دوما[1] الظاهرة المدروسة وذلك بكشف ماهيتها، فلا تكتفي المجرد التجريب عليها حسيا فحسب، بل لماذا ندرسها و ما الفائدة المرجوة منها؟ و كأنّ نيتشه يريد من العالم أن يسير على نمط الفيلسوف أي يكثر التساؤلات ! لأنّه بحثه لا يكتفي بالإستقراء الحسي بل يلجأ إلى استخدام الاستنتاج المنطقي. هذا ما ينذر لنا بظهور فلسفة العلوم التي تحتم بدراسة المناهج المختلفة. و بالتالي تكون الابستمولوجيا نظرية نقدية في قضايا العلم و إضفاء عليه الجانب الفلسفي النقدي، بضرورة معرفة أسباب بحث العلماء في طبيعة الظواهر الطبيعية و النتائج المرجون منها.

من هنا يلّح نيتشه أن يكون العلم* خادماً حقيقياً للإنسان و الحضارة دون أن تظهر عليه النزعة المادية الحسية المبالغ فيها، معها يفقد الإنسان كل قيمة أخلاقه و ذلك نتيجة غياب الوعي في صرح العلم، علاوة على ذلك يصّرح نيتشه تأويلاً نقدياً للعلم بغية تعديل مساره و نظرته إلىالإنسان و الحياة معاً، يريد نيتشه أن يضع تأويلاً عاماً لكل القضايا الفلسفية، لأنّها فقدت صلتها بالواقع و عولجت و كأنها تفهم من قبل النّاس و هي بمنأى عن الحياة. فتح التأويل مجال النقد الفلسفي من قبل نيتشه، الأمر الذي جعله يؤثر في غيره من الفلاسفة بهذه النزعة التحررية الثورية ضد الفلسفات التقليدية. هنا تكمن لنا الرؤية النيتشوية إزاء هذه القضايا، فهي رؤية ليست تجريدية بل على النقيض من ذلك رؤية حياتية واقعية.

أكّد نيتشه من قبل أن العالم في حقيقته عالم تغير دائم و صيرورة لا تنقطع، عل العلم أن يعترف بذلك فلا ينظر إلى هذا العالم أنّه مجرّد سكون ثابت يستطيع العلم فيه أن يدرس كل الظواهر الطبيعية طالما هي خاضعة لمجال التجربة و الملاحظة، و بالأحرى لخطوات المنهج الإستقرائي، و نغفل عن الجانب الجوهري فيها و هو محاولة تقصي الأسباب الدافعة للعلماء لدراسة ظواهر الكون، و يؤكد نيتشهبأنّ هذا الطرح الفكري النقدي لم يكن بحوزة أي عالم معتقدين في ذات الأمر أن العلم يجيب عن كل سؤال و يعرف السبيل لمعرفة الحقائق الكونية، إذا فليس العلم هو المصدر لإكتساب المعرفة الإنسانية و ينوّه نيتشه أن التفكير العقلي المجرّد هو الذي ساد القضايا المصيرية للعلم و أبعده عن واقع الإنسان فالعالم أثناء دراسته للظواهر الطبيعية يدرسها من الجانب النظري بالرّغم ممّا يغلب عليها جانب التطبيق و الممارسة فتبقى في نهاية الأمر مجرّد قوانين جوفاء نظرية لا يستفيد منها العالم و حتى الإنسان العادي أي شيء يذكر.

[1]Jean Paule Sartre, **L'être Et Le Néant,** (Librairie Gaillmard, Paris France, 1953), P 15.

* يشبه نقد نيتشه للعلم نقد الوجوديين، في أنه لم يحترم القيم الاستارنية، نظراً لطغيان النزعة المادية التي سادت العصر الحديث، لكن نيتشه يختلف معهم في أنه يدعو إلى أن يكون العلم مثل شأن الفلسفة، حيث يهدف إلى بناء الحضارة، و أن يصير العالم بتخصصه العلمي، حيث يتساءل عن دور العلم و الغاية المرجوة في دراسة الظواهر الطبيعية، و حاجة الإنسان إليها. أمّا الوجوديون نقدوا كثيراً العلم و لم يقدّموا لنا تبريرات بديلة عن ذلك.

يتساءل نيتشه على شاكلة الوجوديين دائما لماذا يعتمد العالم كلية على التفكير الذهني متناسيا دور التجربة الإنسانية في الحياة؟ أليس للواقع دخل في هذا الشأن ؟ من خلال الواقع يقول نيتشه أنّ هناك تصوراً جازماً تجعلنا نميّز بين حقيقة هذه الظواهر الطبيعية، لأن الواقع يثبت لنا أن الظواهر إذا كانت مقترن هبه يسهّل على العالم الدراسة، أمّا إذا تصدر العالم أنّها منفصلة عنه سرعان ما تكون نتائجه متناقضة و باطلة[1]. و بالتالي فالإرادة وحدها غير كافية لفهم حقائق الظواهر الموجودة في الكون فلا يمكننا إطلاقاً أن نتناول أي ظاهرة طبيعية و هي بعيدة عن الواقع، لأنّ التفكير العلمي المنظّم يتطلب من العالم خاصة أن يكون على دراية تامة بحقيقة الكون فهو يتطلب فهماً و تفكيراً عميقاً[2]، ناهيك على أنّ الظاهرة لا تحتاج منّا التجريب عليها فحسب، بقدر ما تتطلب منّا فهمها و إدراك مبدأ العلة و المعلول فيها.

إن قيمة البحث العلمي تظهر إذا تمكّن الباحث من ردّ الظواهر إلى أصلها التاريخي، ومعرفة طبيعتها الحاضرة من خلال ماضيها. و لعلّ ذلك من أصول المنهج العلمي المنظّم وبالتالي يتحلى العالم بقيمة الروح العلمية، و الأهم فيها هو الوصول إلى الإستفادة من النتائج المرجوة. و يظل هذا الاعتقاد لدى نيتشه أنّ هدف العالم هو أن يعقلن الطبيعة فيتجلّى لنا الفهم السليم لنظام الكون، يريد نيتشه أن يجعل من العلم أداةً لفهم الحياة و من الواجب على العالم أن يخرج العلم من الجانب الحسي إلى جانب الاهتمام بالتفكير في دور العلم و ما يقدّمه من دور هام للفرد و للمجتمع، أين يتحقق ذلك بفضل التشبث بالأخلاق التي رأى نيتشه أن علم العصر الحديث ابتعد كله عن الأخلاق و القيم النبيلة للبشرية و أنْ الأوان لكي نتجاوز تلك النظرة الدوغمائية الضيّقة في نظرياته و أهدافه.

بعد هذا التنويه من قبل نيتشه في الإعلان عن إعادة تأويل كل الموضوعات الفلسفية تأويلات شاملاً نريد معرفة آراءه الفلسفية التي يراها هو جديرة بالإهتمام من خلال محاولته الدؤوبة في خلق منهج فلسفي حديث أسماه بالمنهج الجنيالوجي المنهجي و يقصد به بداية هدم كل الأفكار الفلسفية، و الميتافزيقية، و الدينية و الأخلاقية، بغية تقريبها أكثر من واقعنا المعيش . و قد رأى نيتشه أنّه يجب إفساح المجال أمام الإنسان ليحدّد مصيره اتجاه تلك القضايا الجوهرية التي شكلت طابع حياته. لم يكن هذا الهدم غرضه تحطيم النماذج العامة للتفكير الفلسفي في نظر البعض من قبل الباحثين، في أن هذه الثورة النيتشوية ما هي إلاّ مجرّد سفسطة و إثارة الشّك من أجل الشك؛ بل تراه يجب نفعاً سيّما في ما يقترحه من آراء فلسفية نقدية جريئة. تتبنى النمط المنهجي القويم في إعادة ترتيب القضايا الفلسفية، كونها بعيدة عن التفكير المنطقي السليم.

[1]Friedrich Nietzsche, **humain trop humain**, Tome II, Traduit Robert Rovini, (Edition Gaillmard, 1879), P 181.
[2]**Ibid**, P 181.

حيث طغى عليها التفكير الفلسفي المجرّد المغلق، ممّا حال دون تناول الفلسفة موضوع الفن و الإبداع و علاقتهما بالإنسان، فهو زاخر بالآمال و الطموح قصد تحقيق غاياته و منافعه و إثبات وجوده على الدوام!. أمّا مرحلة البناء و ابداء الحقيقة لديه فهي تكمن في إبداء آرائه بوضوح في وظيفة الفلسفة و الميتافيزيقا و الدين. و لا تستقيم المفاهيم حولها و تتّحد إلاّ إذا أدّت أدواراً منوطة و فعّالة في الحياة، الأمر الذي أدى بنيتش إلى الإعلان عن مفهومي التأويل (L'interprétation) و الحقيقة (La vérité).

كل هذه الأسباب و غيرها جعلت نيتشه يؤثر تأثيراً بالغاً في عصره خاصة لدى فلاسفة النّسق (Système) رغم ما يهدف إليه كل فيلسوف صاحب نسق معيّن، في الحفاظ على وحدة الموقف و تماسك المبادئ المشكّلة للمذهب (La doctrine) ممّا ترك المجال أمام تطور الفكر البشري الذي يتطور مع الحياة. من هذا الشأن نستطيع أن نصل إلى موقف نيتشه البطولي: فيه الحبّ لإرادة الحياة و التضحية من أجلها، و أيضاً الرّوح اليافعة المفتونة بحبّ الطبيعة المتحرّر من السكونية القاتلة و الجمود الذي يغلق مجال الإبداع و الفن عن الإنسان.

فالحقيقة هنا هي ابتكار منهج جنيالوجي (Généalogie) لتقويم كل القيم المتنوعة بمعية الموضوعات الأخرى، إذا نحن أعدنا الاعتبار للإنسان وفي نهاية الأمر تأثر الفلسفة الوجودية بهذه الثورة النيتشوية الفلسفية.

الفصل الثاني
الأبعاد الوجودية في فلسفة نيتشة

تمهيد:

المبحث الأول: الإنسان، الوجود والماهية

المبحث الثاني: إرادة القوة

المبحث الثالث: القلق عند كيركجارد والخطر عن نيتشه.

المبحث الرابع: اللامعقول عند فريدريك نيتشه وألبيركامي

تمهيد:

لقد أشرنا في بداية الفصل الأول، من ضمن مباحثه أن نيتشه فيلسوف لا مذهبي .

فلا يمكن أن تجد لديه أي ميل إزاء مذهب فلسفي معين و بوجه عام[1] . فلم يكن ينساق وراءها؛ بل هذه الأنساق الفلسفية ذاتها تسعى إلى ربط فلسفتها بفلسفته حتى تغدو فلسفة مذهبية في منطلقاتها الفلسفية، و هادفة نحو تحقيق الغايات المنشودة منها .

إن فلسفة نيتشه بهذا المقام هي التي أثرت في الفلسفة الحديثة من ناحية تاريخها الفكري والسياسي و الاجتماعي . و ممّا لا ريب فيه أن دراسات الباحثين حول فلسفته تجمع في معظمها – ولا سيّما المهتمين بفلسفته – على أنها فلسفة رائدة و جديرة بالاهتمام.

و تتجلى لنا هذه الحقيقة المؤكدة في أنه يفوق أصحاب المذاهب الفلسفية، رغم ما نألفه من وحدة و تماسك في الأفكار و المواقف الفلسفية لديهم . و تصور جلّي نحو الحياة الإنسانية و هو بذاته لا يؤمن بهذا النسق وتجده لا يتأثر بهم! بل هم على النقيض من ذلك يتأثرون به. ولعلّ هذه الميزة جعلت نيتشه أحد أساطين الفكر الأوروبي الغربي ففلسفته وردت إلينا حرة، مفعمة بحب الحياة و العيش فيها بكل ما تكتنفه من مشاكل الإنسانية المتنوعة. فيها تضحية ومعانات، و إخلاص أبدي من أجل الارتقاء بها نحو قيمة الإنسان و الحضارة.!هنا تبرز قيمة الإنسان ككائن حر يتطور و ينمو و يتفاعل، مع تجارب حياته لا أن يبقى متقوقعا داخل أفكار تجريدية تصورية يحكمها نظام نسقي صارم يكبّل طبيعة التفكير الفلسفي و حياة المرء في الوقت نفسه.

كان أشد ما يخشاه نيتشه أن تصير فلسفته ضمن نطاق مذهبي معين، فليس للفلسفة قيمة أصيلة إذا هي لم تناظل من أجل بناء الحياة الإنسانية! . فالفلسفة تنمو و تتطور بنمو و تطور الحياة ذاتها طالما أن أفكار الفيلسوف – مهما كان نسقه – تكون ذات اهتمام بالغ إذا صُقلت في تجارب حياتية تؤكد مدى العمق و الانسجام، الذي يربط شخصية الفيلسوف بمجتمعه وحياته على الدوام.

يقرّ بعض الباحثين أن نيتشه يبدو متناقضا عندما يخضع الفلسفة لإرادة الحياة[2]، على غرار أن الحياة في اعتقادهم يجب أن تخضع للفلسفة. و عليه فالأفكار الفلسفية مهما تنوعت، فإنها تظل تخضع لنظام الحياة. هذا ما جعل نيتشه يتساءل: أليس هذه الأفكار ذاتها مهما تنوعت و تقلبت تخضع للحياة؟ ! . إنك لا تجد أن هذه الأفكار تحتوي على صفة مشتركة بين

1- M du frenne et P.Ricoeur ,**Karl Jaspers et la philosophie de L'existence** , (Edition du seuil , Paris France, 1947) , P 19.

2د. فؤاد زكرياء، **سلسلة نوابغ الفكر العربي، نيتشه،** (دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر الغربية، الطبعة)، ص ص 37-38.

الفلاسفة و هي أن أفكار الفيلسوف تنسجم مع حياته في كل تطوراتها التاريخية . الحق هنا أن نظرة بعض الباحثين تتسم نوعا ما بالتطرف و المبالغة، في الحكم على فلسفة نيتشه؛ من منطلق أنه يخالف بعض الفلاسفة في هذا التصور و مؤداه أن الفلسفة وجدت لتخدم حياة الإنسان و لم توجد لتخضع هي الحياة لها. و لعلّ السبب الذي أفضى إلى نعت نيتشه بأنّه فيلسوف متناقض في آرائه، هو أنه لا ينضوي تحت أي مذهب فلسفي كان. و بالتالي في نظرهم لا ينقاد نحو تفكير منطقي منسجم، ناهيك على أنه يترفع و يتعالى على جميع الفلاسفة و ينقدهم أشد النقد .

هذه الميزات ألفها كل من كتب عن نيتشه لكونه أثّر في عصره تأثيرا باديا[1]؛ إضافة إلى ذلك تأثر بعض الفلاسفة به إلى درجة أن كل المذاهب الفلسفية تريد أن تجتذبه إليها!. من الفلسفات هذه : نذكر على سبيل المثال الفلسفة الوجودية " La Philosophie de l'existentialisme" .

إذ تأثر به الوجوديون جدا، و ذلك لما وجدوا في فلسفته من تصورات و مفاهيم وجودية خالصة. و لم يعد هناك من شك مريب في أن نيتشه فيلسوف وجودي في المقام الأول، بما تحمله هذه الكلمة من معنى . علاوة على أن الوجودية تشترك معه، في امتعاضهما الشديد لفكرة النسق الموجودة في تاريخ الفلسفة على الرغم من اختلاف وجهات النظر لدى الوجوديين أنفسهم من جهة، و من جهة أخرى اختلافهم مع نيتشه أحيانا. على اعتبار أن التمذهب في الفلسفة التقليدية صار تصورا دغمائيا متحجرا قيد من حرية الفكر و من حرية الفيلسوف ذاته . فغدت الفلسفة في نظرهم ليست ذات أبعاد إنسانية و حضارية، تعزز من الوجود الإنساني الحقيقي.

إن الأبعاد الوجودية التي يمكن أن نلتمسها في فلسفة نيتشه، هي كما قلنا : سلفا أنه يشجّب النظرة الفلسفية الجامدة التي طبعت أنساق الفلاسفة على اختلاف عصورهم. تلك الرؤية المتحررة جعلت من نيتشه فيلسوفا ثائرا يمجد من تقديس الإنسان، والإعتراف بصفاته الجوهرية و الحضارية. ربّما حرص الكثير من الفلاسفة الوجوديين على أن ينسبوا تفكير نيتشهإلى مذهبهم، و يعتبرونه واحدا منهم . خصوصا لما يتمتع به من مرونه مذهلة طبعت أسلوبه، و ما وجود تفاسير عدة حول كتاباته الفلسفية لدليل على تأثر المذاهب الفلسفية به.

ولئن كانت الوجودية أكثر نجاحا من غيرها فلأن هناك علاقة متميزة بينه و بين الوجودية؛ يؤدي بنا إلى إبراز هذه الفكرة المحورية بمزيد من الإسهاب لنتبين في النهاية كيف يمكن قراءة تيتشة وجوديا؟ ثم كيف ندرك الأبعاد الوجودية في فلسفته ؟

[1]Martin Heidegger, **Nietzsche** Tome I , Traduit de l'allemand par pierre klossowski (Gaillmard, Paris), P P 14-15.

مما يؤكد لنا أن نيتشه يقترب من الوجوديين أكثر هو ما اكتشفه الباحثون من ارتباط وثيق بين شخصيته و بين تفكيره الفلسفي وإن كان هذا الارتباط إنما يتم عن طريق إثراء الفكر و بعث الحياة فيه لا عن سبيل امتلاء الحياة و استخلاص الفكر منها.

و بهذا التصور الفلسفي الإبستمولوجي ندرك أن نيتشه امتعض من ذلك التفكير الفلسفي المجرد الذي بقي في نظره بمنأى شديد عن جوهر الحياة البشرية، هذا أيضا بعد حقيقي يقرب إليه الوجودية أكثر سيما و أنها فلسفة إنسانية في المقام الأول، ناهيك على أنه يقدم فهما فلسفيا للإنسان لا يخلو من التعبير الوجودي الصادق في معالجة همومه و قلقه و مشاكله .

الأمر الذي جعله –في نظر جل الباحثين - يتبنى التفكير الوجودي في موقفه الفلسفي أحيانا. ليس اعتباطا و إنما لدى نيتشه تجد سمات الفلسفة الوجودية : من الاهتمام بالإنسان و تمجيده، رغم الإجحاف الذي طبع الأنساق الفلسفية التقليدية، و كذا أيضا التركيز على الفعل الوجودي له، و تقديس الحياة و حبها . هذه الصفات يركز عليها الفلاسفة الوجوديون و مدى تأثرهم العميق بوجوديته.

ذلك أن نيتشه لا يتموقع داخل نسق معين، فتراه يتحدث عن كل المذاهب؛ مما يصعّب على الباحث تحديد نمط تفكيره الفلسفي . و هذا ما أدّى بتيار الوجودية إلى اعتباره رائدا من روادها شأنه شأن كيركجارد "Kierkeggard"، هيدغر "Heidegger" سارتر "Sarter"، ياسبرز "Jaspers"، مارسيل "Marcel" ... إلخ . و بالتالي ينبغي علينا تحديد الفكرة المحورية في فلسفته طالما ما نراه فيها، من دعوة صريحة إلى إحياء التراث الوجودي بشقيه المسيحي و الإلحادي.

إن الوجودية اهتمت بالوجود الإنساني كثيرا بالمقارنة مع غيرها من الفلسفات الكلاسيكية، حيث أولت هذه الأخيرة : اهتماماتها بموضوعات أخرى خلاف الإنسان. لذا كان من الضروري أن تثور و تقدم انتقادات لتاريخ الفلسفة عموما لما ساد التفكير الفلسفي من أفكار تجريدية، بدت أكثر بعدا عن واقع الإنسان . من هنا جاءت الفلسفة الوجودية لتدافع عن كرامة الإنسان وتكرس قدسيته التي ضاعت في خضم بروز تيارات فلسفية منها : العقلانية و المثالية و التجريبية، البراغماتية إلى غير ذلك، إضافة إلى بروز النزعة العلمية المنطقية. كل هذه الأسباب جعلت نيتشه يناضل من أجل رد الاعتبار للإنسان؛ باعتباره القضية الجوهرية في التفكير الفلسفي قبل كل الموضوعات.

لأنه بهذا المنطق يصبح الإنسان خالق لوجوده ولقيمه، من هنا اقتربت الوجودية أكثرإلىالإنسان، و تبنى الفلاسفة الوجوديون أساليب أفضل: بفتح مجال للموسيقى، للفن،

القصة، الرواية، الشعر، الفيلم، السينما، المسرح*إلى غير ذلك التي حققت نجاحا و إقبالا منقطع النظير .

الأمر الذي جعل الوجودية –في نظر الباحثين – فلسفة إنسانية خالصة في المقام الأول.

وانتشرت أفكارها خصوصا في فرنسا و ألمانيا؛ ولئن أقدمت الوجودية على هذه التصورات؛ فلأنها أرادت بذلك أن تنصف الإنسان و تنتشله من براثن التفكير المجرّد، وطغيان النزعة المادية. أولى نيتشه اهتماما بموسيقى صديقه فاجنر "Wagner"* و توطّدت العلاقة بينهما إلى درجة أن نيتشه أعجب كثيرا بهذه الموسيقى! و أضحى يحفظ مقطوعات عديدة . وما كان من فاجنر أن يتعجب ! هو الآخر من حماسة هذا الفيلسوف الثائر.

هذا البعد الجمالي الموسيقي نجده في فلسفته طالما أن الوجودية هي أيضا رأت أن الموسيقى هي أصدق تعبير عن معاناةالإنسان اليومية، شأنها شأن الفنون الجمالية الأخرى. فالفلاسفة الوجوديون أظهروا في نواحي عدة أن فلسفة نيتشه قد عبّرت بحق : عن أسس التفكير الوجودي. هذه الأبعاد صرّح بها هو في حدّ ذاته فهي نابعة من تجاربه في الحياة . و لا سيّما و أن فلسفته تشكل تطابقا كليا مع حياته

إن اختيار نيتشه لفكرة الفن التي اعتبرها شوبنهاور خلاصا من سطوة الألم التي طبعت الحياة في اعتقاده إنما حسب نيتشه: أن الفن يمنح للإنسان قدرة فعالة على اندماجه بالطبيعة والخضوع للغريزة التلقائية، لأن الفن ينسي الإنسان ما في إرادته من قلق واضطراب، وبالتالي الإغراق في الإنتاج والتأمل الفني يعطي له راحة وطمأنينة سكونية تذكره بفطرته السليمة، عوض أن يلجأ إلى القداسة والزهد، والابتعاد عن ممارسة ارادة الحياة ..... الإنسان، يتساءل نيتشه: ماجدوى التفكير الفلسفي إذا لم يكن يهدف إلى حب الحياة؟، وما قيمة الوجود الإنساني إذا كان هو الآخر لا يستشعر دائما بالتجدد في هذه الحياة؟!.

تزداد هذه الفكرة النيتشوية وضوحا فيما نراه من مباهاة وإعجاب فيها **بفاجنر (**WAGNER**)**[1]، كون موسيقاه أو بالأحرى فنه منح للحياة بعدا إنسانيا وجوديا، يتأمل نيتشه

* لجأت الفلسفة الوجودية بروادها من الفلاسفة الوجوديين، بعد الحرب العالمية الثانية 1945 إلى محاولة تغيير التعامل مع الإنسان. حيث اعتبرت أن الفلسفات التقليدية السابقة لم تصل إلى مبتغى الإنسان خصوصا نتيجة ما عاشه من معاناة و شقاء و حروب و دمار. فكرّست مجالات عدة فنية، موسيقية، إبداعية، جمالية إلى غير ذلك، لتعيد المجد بعد ضياعه بسبب غلو النزعة المادية، و اضمحلال القيم الأخلاقية. لذا دافع نيتشه و غيره من الوجوديين عن الوجود البشري. وإن كان المؤرخون يعتبرون أن الفلسفات النامية (كالتطورية) أيضا ساهمت في تكريس الفعالية الإنسانية من خلال فكرة التطور و الانتخاب الطبيعي .

* هذه إشارة إلى تأثر نيتشه بشوبنهاور "Schopenhaeur" في فكرته التشاؤمية حول العالم و أن فكرة الألم يتم الخلاص منها، إما بالأخلاق و الزهد، و إما بالفن. لكن نيتشه تأثّر بالفن، و اعتبره وسيلة لفهم إرادة الحياة، و يعتبر نيتشه أن الذي مثّل مرحلة الفن هي موسيقى فاجنر، لما فيها تقويم للحياة القديمة و الحديثة و هذا مثار الإعجاب و الإندهاش! ...

[1] Ronald Haywan, **Nietzsche les voix de Nietzsche,** Traduit de anglais par Christian Léau, (Edition du seuil, Paris France 1997), P26.

الحياة من خلال فكرة الأبولونية* والديونيزية التي جسدت في الفكر اليوناني، فقد تنازعت العالم فترات سادتها الروح الأبولونية أي: روح النظام والوضوح، وفترة أخرى سادتها الروح الديونيزية أي: روح الاندماج بالطبيعة (حيوية الطبيعة) (AMINISME).

وظل هذا الصراح موجودا حتى أتى سقراط حيث انتصرت الروح الأبولونية على الروح الديونيزية، بقي كذلك إلى يومنا هذا، بيد أن نيتشه يدعو إلى عودة الروح الديونيزية ويرى حينئذ: أن فن **فاجنر**[1] هو الملهم لإعادة هذه النهضة وإحياءها من جديد، هذا التقييم يعبر عنه في العصر الحديث: بالمعقول واللامعقول.

أراد نيتشه بهذا التقسيم وهو مستوحى من الفكر الإغريقي في عصر ما قبل سقراط، أن يتبين لنا أن الإنسان نوعان السادة تسودهم الروح الديونيزية والعبيد تسوهم الروح الأبولونية، ويظل النزاع بينهما موجودا حتى تنتصر في النهاية إرادة الإنسان القوي، فهو لا يعرف الاستسلام والخنوع، بل يقدم على الحياة بكل عنفوانه، أما الإنسان العادي المستكين يرضى بما هو ماثل أمامهولا يخاطر في هذه الحياة، هنا يذكرنا نيتشه بالصراع بين الخير والشر، وهي فكرة جسدت في التفكير الشرقي القديم قبل نشأة الحضارة اليونانية، وغلب عليها طابع الحكمة عكس ما وجد في الحضارة اليونانية، حيث عالجها الفلاسفة بنوع من التأمل والتحليل الفلسفي عبر مراحل الفكر اليوناني برمته.

لعل النقد الذي استخدمه نيتشه في كل مرحلة من مراحل الفكر الفلسفي التي أدت به إلى أن يكون محل اهتمام بالغ من لدن الوجوديين أنفسهم وكذا كل من كتب عنه بأنّه فيلسوف ليس كباقي فلاسفة عصره أو قبله بكثير، هذه الخصوصية هي التي جعلته أن يكون رائدا من بين الفلاسفة الوجوديين أو بالأحرى فيلسوفا وجوديا بما تحمله هذه الكلمة من معنى!، فكل ما تقول به الفلسفة الوجودية من مفاهيم فلسفية قد عبرت عنها فلسفته فوجد كما قلنا: في فاجنر فنان أحياء آراء **شوبنهاور** (SCHOPENHEUR) النظرية وجسدها عمليا.

وأضحت الموسيقى تسير مع الفكر كليا، كما نألف لديه ولوعه بالشعر فهذه الصفات الجمالية اتخذها الوجوديون في مواقفهم الفلسفية لتكون على مقربة من الواقع الإنساني بل وتحقق الهدف المنشود منها في معالجة همومه وآماله الدؤوبة، والذي يجعلنا نقول أن نيتشه أحيا التراث الوجودي هو ميله وإعجابه الشديد بحيوية الحياة، فهو يريدها حركية دائبة ومفعمة

* يستعمل نيتشه هاتين الفكرتين الأبولونية وتعني روح النظام والوضوح تمثلها مرحلة مجيء سقراط، وفكرة الديونيزية وتعني الاندماج مع الطبيعة، وهي تلك المرحلة التي سادت عصر ما قبل سقراط وخاصة هراقليطس وبارمينيدس، هذا ما يفسر تأثره بالفكر الإغريقي المرحلة الأولى هي المأساة والمرحلة الثانية هي الوجود التراجيدي بمعنى الإنسانية.

[1]Friedrich Nietzsche, **Le Cas Wagner**, Traduit par Jean Claude héméry, (Edition Gaillmard, Paris, France), P30.

بالتجارب الإنسانية العظيمة، على اختلاف القدرات الإبداعية الجمالية، عندما يتيح المجتمع للفرد تفجير مكنوناته الطبيعية، ولا يعمل على قمعها وقتلها.

والذي يؤكد هذا الإعجاب فيما دعا فاجنر نيتشه إلى حضور أعياد **بايرويت(BAYREUTH)***، إن الغرض من هذا الفن هو أن نيتشه استطاع أن يجعل من الروح الفلسفية تخدم حياة الإنسان ومن هنا سر النجاح الذي أدى بذيوع وانتشار أعماله الفلسفية حتى كثرت حولها كتابات الباحثين وإعجاب الفلاسفة على اختلاف مذاهبهم الفلسفية.

إننا نريد أن نستشف الأبعاد الوجودية في فلسفته التي تبين ما جدوى تأثر الوجودية به إلى حد الإعجاب؟!.

وعلاوة على ذلك فقد رأى فاجنر في فلسفة نيتشه خير معين له وسند متين في نشر آرائه الفنية في ميدان الفكر والفلسفة، ولكن نيتشه حاول أن يهتدي إلى الصلة بين فن فاجنر ومأساة الإغريق ليضع حدا لغلو النزعة التنظيرية العقلية على حياة الإنسان برمتها، ذلك ما كان نيتشه يقصده تحديدا باستعماله لفكرتي الأبولونية والديونيزية[1]، في إبراز المقارنة بين حياة الإنسان لمفهومها الدوغماتي (الكلاسيكي) وبين حياته الحديثة والمعاصرة بمفهومها1 الاستيمولوجي التطوري.

إن مثل هذا البعد الفلسفي الإنساني، فتح منفذا لتطور أفكار الفلسفة الوجودية وربما كان نيتشه في ثورته العارمة هذه معينا لا ينضب في تحرر الوجودية أكثر فأكثر، تصير فلسفة إنسانية عدلت مسار تاريخ الفكر الفلسفي ليهتم بالإنسان.

أثرت موسيقى فاجنر في حياة نيتشه تأثيرا هاما، وكانت موسيقاه تسبب له إجهادا فكريا عميقا جعلته في نشاط وحيوية فيقول: "إن كل ما هو جيد خفيف وكل ما هو إلهي يسير على أرجل دقيقة حساسة"[2]، إن تقلب نيتشه على موسيقى فاجنر لم يكن إزدراءا أو مهانة بل كان نتيجة أن فاجنر قد مال إلى المسيحية التي طالما كان نيتشه يرفضها ويعتبرها سبب اندثار الحضارة الغربية تجسدت في فكرة العدمية **(Le Nihilisme)**، كما أشرنا إليها في أحد مباحث الفصل الأول، حيث كان الانحطاط مرضا خطيرا أصاب كل مقومات الحياة في العصر الحديث، ثم ما وجده نيتشه فيها من جفاء وعنف طبع كل أوبيراه الموسيقية، فلم تكن حينئذ ذات رقة وعذوبة تسري مباشرة إلى الآذان والأذهان.

* مدينة في ولاية بارفاريا حيث شيد لودفج الثاني ملك بافاريا مسرحا خاصا لأداء مسرحيات ريتشارد فاجنر الغنائية، هذه الصلة بين نيتشه وفاجنر تؤكد لنا أن هذا البعد الحياتي الجمالي عنده هو ما وطد العلاقة بينه وبين الوجودية واعتبره الباحثون رائدا من روادها.

[1] Friedrich Nietzsche, **Ainsi Parlait ZaraThroustra, (**Sigma, Edition,1885), P08.

[2] د. فؤاد زكريا، **نيتشه المرجع السابق،** ص 31.

لئن كانت هذه السمات الوجودية في الموسيقى وغيرها من الفنون الاستيطيقية (الجمالية) لم تتوفر لدى فاجنر فإنها توفرت في ألحان **بيزيه** (BIZET)، وأعجب بها نيتشه كثيرا نتيجة ما أدرك فيها من تمثل حقيقي لأعماله الفلسفية وكان هو في حد ذاته محبا للحن.

إننا نجد نيتشه هنا لا يستقر على حال واحدة في نظرته النقدية للفكر وللحياة وهذا الدافع أو بالأحرى البعد الوجودي هو ما أذهل الوجوديين كثيرا في أنه فيلسوف حرر الفكر الأوروبي من القيود والجمود الذي ساد العصر الحديث في جميع المستويات الأخلاقية، الاجتماعية والسياسية والعلمية والفلسفية والدينية،... إلخ.

ثورة نيتشه على موسيقى صديقه فاجنر وتفضيل موسيقى بيزيه عليها شبيهة بفكرته المستوحاة من حياة الإغريق ألا وهي الفترة: الأبولونية والفترة الديونيزية[1]، فإذا كان شوبنهاور يسعى في النهاية إلى إيجاد مخرج من العالم وصراعاته المريرة فإنّ نيته على العكس من ذلك، وليس بمقدور المرء أن يلخص مضمون تفكيره، إذ أنه ليس فيلسوفا كباقي الفلاسفة ولم تكن آرائه ذات منهج ثابت، وربما جاز لنا أن نصفه بأنّه صاحب نزعة إنسانية ارستقراطية بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، فقد كان حرصه الأكثر هو تأكيده على علو همة الإنسان ووجوده، لذا تأثرت الوجودية به، لما لاحظته في فلسفته من أبعاد وجودية، وعبرت هي الأخرى في منطلقاتها الفلسفية.

[1] برتراند رسل، **حكمة الغرب ج2**، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، (سلسلة عالم المعرفة، الكويت، الطبعة الأولى، سنة 1983)، ص ص 203-204.

المبحث الأول: الإنسانوالوجود والماهية.

لقد منح نيتشه للإنسان أبعادا وجودية خالصة في ما أضفاه من صفات متعددة عليه، ونخص بالذكر: التفكير الوجود وتأكيده تجدد الوجود الإنساني فليس ثمة ماهية (ESSENCE) ثابتة تطرأ على سلوكه الاعتيادي، كما يتصور بعض الفلاسفة، إنه من الضروري أن يكون ماهيته ضمن خلال سابق على الماهية[1]، أو بالأحرى أن الإنسان يكون ماهيته، فمن خلال وجوده تتحقق ماهيته بالفعل، ويعبر نيتشه عن هذه الفكرة بوضوح حينما يصرح بأنّ الإنسان في محاولة دائمة لا تعرف الاستقرار[2].

وعليه فهو لا يرضى بشيء ولا يقف عند حده لذا ثار نيتشه على الأفكار الفلسفية النظرية التجريدية التي فقدت صلتها بالحياة، ولم يعد يثق بأي مشكلة عقلية لا تسري مع الحياة في تيارها، ولا تنبع من أعماق شخصية من يفكر فيها.

من هذا المسعى ترى أن فكره الفلسفي المتقد (التنويري) قد امتزج كليا مع الحياة في سيرانها الطبيعي المألوف، ومن واجب الفيلسوف أن يتفلسف بكل كيانه وبوجوده الكامل، إنها لدعوة جريئة يدلي بها نيتشه إزاء الإنسان ويعلي من شأنه برغم النقص الموجود فيه، إلا أنه الكائن الذي لم يصنف ولم يحدد نوعه، من هنا عرف الإنسان في كتاب هكذا تكلم زرادشت بأنّه "خالق ذاته"[3] أي أن هذا النقص الكامن فيه هو مصدر حريته، الأمر الذي يمكنه من تجديد حياته على الدوام ،هدا ماينبهنا أن هده الفكرة الجوهرية عند نيتشه تسمى بفكرة إرادة القوة (la volonté de puissance) إذ تعد مظهرا أساسيا تميزت به الفلسفة الوجودية أعني هنا :أن الوجودية تأثرت بهذا الاتجاه النيتشوي سيما وأنه يجعل من المرء كائنا يتجاوز ماهيته دون أن يأبه بالعوائق التي تعترض سبيله في هذه الحياة.

هنا ألح الوجوديون أن يكون نيتشه فيلسوفا وجوديا لما التمسوه في بعض آرائه من اهتمام بالإنسان وعلاقته بالحياة، وكيف يعيشها وكيف يفكر فيها، وما هي آماله وأمانيه وطموحاته التي يسعى إليها؟ لكن نيتشه لم يتأثر هو في حد ذاته بتيار الوجودية أو غيرها من التيارات الفلسفية في عصره، وفي حياته بل هذه الأخيرة سعت كل منها إليه، ولعل الوجودية غدت أكثر من غيرها تأثرا به.

---

[1] Paul Foulquié, **L'existentialisme (que Sais je)**, (Presses Universitaires, Paris, France 1948) P7,8,9,10.

[2] د. فؤاد زكرياء: سلسلة نوابغ الفكر العربي، نيتشه، ص 44،43.

[3] Nietzsche, **Ainsi Parlait ZaraThroustra**, (Sigma, Edition,1885), P138,139.

فتح نيتشه أمام الإنسان آفاقا واسعة في إثبات كينونته حيث صيره واثقا بنفسه حتى حرر حياته من السكون والجمود، تائقا إلى أبعاد إنسان يتفوق على إنسانيته بالمجاهدة والتغلب على العناصر والعادات الموهنة للعزم، يقول: "إن العالم الذي يتفوق على الإنسانية إنما يعود بعد هذا الجنوح إلى بذل حبه للأصاغر والمتضعين"[1].

وذهب إلى أبعد مدى في تفحص سرائر الإنسان وأهوائه يضيق به المجال عندما يتجه إلى حل المعضلات الاجتماعية، لأنه يصطدم بواقعه المرير فيختط الإنسان لذاته منهجا يستطيع به مسايرة مشاكل الحياة، ومن ثم يحاول بجد أن يعالج همومه ومآسيه دون أن يرضخ، مستسلما لها فتفشل معه إرادة القوة، في هذا البعد معنى الإنسانية الحقيقية لدى نيتشه نجده بلا ريب قد عاشها هو في صباه عندما مات أبوه وتركه وحيدا في بيئة نسائية خالصة، ناهيك عن صعوبة العيش في الحياة في ظل الرواج الهائل لأفكار شوبنهاور، شلينغ، فيخته، هيغل الذي انتشر في أرجاء أوروبا خالقا مزيجا من مذاهب القدرية والعدمية ووحدة الوجود والإرادة الحرة ولم يجد هذا الفيلسوف من علاج لهذه العلة، غير التمرد[2] على الحياة نفسها، بترك ملذاتها والالتجاء إلى الزهد وانتظار الفناء في ما يشبه **النيرفانا** (NIRVANA)*.

كانت هذه الأبعاد الوجودية وغيرها ما جعلته على صلة وثيقة بالوجوديين كما يؤكد كل من كتب عنه، تشترك فلسفته مع منطلقات الفلسفة الوجودية في رفضها لتاريخ الفلسفة عموما بكل مراحله التاريخية المعهودة من وجود أفكار عقلية صرفة وتناول الموضوعات الفلسفية (الوجود، المعرفة، القيم) تناولا ينأى كثيرا عن الروح الإنسانية.

وكما قلنا آنفا أن نيتشه أراد أن يعيد ترتيب موضوعات الفلسفة باعتماده على المنهج الجنيالوجي الذي يعني أن الإنسان هو الذي تحكم في القضايا الأخرى، لأنه يعد محور التفكير الفلسفي برمته، ويتعجب نيتشه! لماذا لم يعط الفلاسفة على اختلاف عصورهم اهتماما بقيمة الإنسان؟!.

كل تجاوز يقترحه نيتشه ونقد لاذع يوجهه لأفكار عصره يكون له عميق الأثر البالغ في خطابات الوجوديين على اختلاف مواقفهم فيكون بذلك خير من يعبر عن الإنسان ووجوده في اعتقادهم.

---

[1] فريديك نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، ترجمة فيليكس فارس، (دار القلم بيروت، لبنان)، ص 07.

[2] **المرجع السابق**، ص 18.

* مصطلح النيرفانا (NIRVANA): استعمل كثيرا في الأساطير البوذية ويعني عندهم أن الإنسان يتوصل إلى النشوة وصفاء الروح بعدما يبتعد عن الملذات والشهوات الموجودة في الواقع الحسي الذي يشكل ألما مريرا للإنسانية فيلجأ إلى الزهد والتصوف لتحقيق السعادة ويرى نيتشه أن النيرفانا هنا: هي الخلاص الأبدي للإنسان الذي عانى من رتابة الحياة وجمودها في العصر الحديث وعليه أن يتركها ويسمو بذاته نحو انتظار الفناء باعتباره ميلاد جديد للإنسان الأعلى وهذا ما جسد في الفكر والقيم والأخلاق وتقويم شامل للحياة.

للإنسان في كل فلسفة وجودية موقف أساسي حيث يعبر كل موقف من هذه المواقف عن أعمق ما يطمح إليه من أماني وآمال يصبو إلى تحقيقها في حياته ويبدو أكثر إنسانية في كل لحظة زمانية ومكانية.

في هذا الموقف يتجاوز كل ثبات وسكون ويشرع في إرساء حريته التي لا يعتبرها شعورا ميتافيزيقيا فحسب، بل تكون تحررا (Liberation)[1] من كل حتمية تعترض سبيل الإنسان، من هنا ترك نيتشه أثرا هاما في صرح الفلسفة بصفة عامة، والفلسفة الوجودية بصفة خاصة.

لقد أحب نيتشه الحياة الإنسانية ودعا الإنسان لأن يعيشها بكل وجوده الفعلي فهي فرح حزن، قساوة، تمرد معاناة، إبداع، فن، ...، إلخ، ولست مجرد تصور مثالي نمتلكه في أذهاننا عنها، في نظرته إلى الحياة تحليل نفسي لشعور الإنسان، كشف خبايا النفس الإنسانية فيما تعانيه من كبت رهيب يجعل الإنسان يتحرر من أزماته فينطلق نحو ممارسة حياته بكل عنفوان وفيها وصف شعري سحري يتناغم مع أشجان الموسيقى الهادئة الطروبة وهي تنساب مع الآذان البشرية.

إضافة إلى كونه محث للإنسان بأنّ لا يفشل في مطالبته بتحديد حياته على الدوام فهي قوام فكره وشخصه ليتوجه إلى حالة يسمو عليها، اما الإنسان الذي يستسلم للركود والسكون فلن يقدر على مجابهة الحياة، وبالتالي لن تتحقق إنسانيته في حديث نيتشه عن الإنسان هنا تجده متأثرا بالمثل العليا اليونانية خصوصا في عالجه في كتابه "ميلاد التراجيديا" أن فكرة المأساة التي خالف فيها نظره أرسطو (384-322 ق.م) الذي اعتبرها وسيلة لتطهير الانفعالات ونظرة شوبنهاور (1789-1860) الذي اعتبرها هو الآخر نتيجة تشاؤمية بينما هي في نظره التفاؤل الذي يجعل الإنسان في نوع من القبول العدواني لحقائق الحياة الصعبة القاسية غير أن هذا التفاؤل ليس بالمعنى المعتاد بين الناس، وإنما يتضح أكثر وجودا عندما يعبر عن الإرادة القوية كونها أبرز سمات الإنسانالأعلى الخير[2].

على حين أن شوبنهاور رأى في الإرادة مصدرا لكل شر، تلك هي المفارقة التي جعلته يصنف الإنسانإلى نوعين: الإنسانالأعلى والإنسان العادي، فهو يزدري ذلك النوع من الإنسانية الحديثة في ظل تطور التكنولوجيا الجديدة، حيث طمست الوجود الحقيقي لمعنى الإنسانية في

[1] Fridrich Nietzsche, **Ainsi parlait ZaraThroustra**, P 12.
[2] **Ibird**, P11.

* فضلنا أن نترجم هذه العبارةالمشهورة لنيتشه باستخدام لفظ "الرب" بدلا من "الإله" أو "الله" كما تشيع ترجمتها، وذلك لأن تعبير "الرب" أكثر استعمالا في الكتابات المسيحية، ومن ثم هو أكثر ملائمة لما يقصده نيتشه، لأن هذه العبارة فيلب في سياق الصراع المرير بين نيتشه والمسيحية على وجد التحديد (بينما يرى بعض المفسرين أن نيتشه لا يقصد موت "الإله" وفناءه من الوجود كجنس مطلق، بل يقصد موت الحضارة الغربية بأكملها على اعتبار أنها ترتكز على المسيحية وهي سياق لا يضبط معنى الحقيقي لهذا اللفظ يخرجه من معناه الجوهري المرتبط بالغرب المسيحي بالذات.

حد ذاتها، لذا ينبغي على الإنسان الحر أن يعرف بأنّ "الرب قد مات"، وهي من الأفكار التي نجد نيتشه يشترك فيها مع الوجوديين، وترمي إلى أبعد من ذلك إلى بث الروح الإنسانية.

الإنسان الذي يريده نيتشه إنسان يتوق دائما إلى تجاوز ذاته باستمرار لأنه لا يرضى بأنّ يبقى رهين وضعه السائد، وعليه يبدو نيتشه هنا أكثر وجودية من الوجوديين أنفسهم حينما يلجا إلى ابتكار تصنيف جديد لمفهوم الإنسان، فيه صفات عدة تجاوزت صفات الإنسان الوجودي ففيه ميل نحو معرفة ذاته بذاته على منوال المنهج السقراطي، وفيه صلة وثيقة بين الفكر ومشاكل الحياة وسعي الإنسان نحو تحقيق منافع وغايات، لأن المشاكل هي التي تشحن الفكر البشري لإيجاد حلول ملموسة حتى تبرز قيمة التفكير الإنساني وفي هذا طرح براغماتي واضح.

كما نلتمس أيضا لدى نيتشه أن الإنسان له تصور مثالي للحياة، حيث يمتلك قدرة فكرية على تجريد مشاكل الحياة مما يضفي عليها طابع التنظير العقلي، ثم ما يتسم به الإنسان أحيانا في نفوره الشديد من ما آل إليه العلم الحديث من سلب للقيم والأخلاق الإنسانية المتعالية*، وليس في هذا نكران لقيمة وصرح العلم في حد ذاته سيما ما حبذه نيتشه من وجود تفسير منطقي وضعي لقضايا العلم.

في هذا الأمر يتجاوز نيتشه الوجوديين عندما حصروا مفهوم الإنسان في أن وجوده الحقيقي سابق لماهيته، لذا بدا الإنسان النيتشوي أكثر وجودا من الإنسان الوجودي الذي دعت إليه الوجودية، ولعل في هذا الموقف تظل الوجودية تعترف بالفضل والعرفان لنيتشه، حيث رأت فيه تغيير معين لها على ذيوع صيتها الفلسفي ووقوفها ضد الدوغمائيات التي سادت مراحل تاريخ الفلسفة عموما.

يقول نيتشه: "السؤال الذي يجب أن أطرحه هنا" أليس بمقدورنا معرفة إلى أي مدى يمكن فهم ما تريده الإنسانية من غايات ملحة ضمن هذا الوجود؟، أقول إذن: هناك نوع راقي من الإنسانية يمكن فهمه بدون عناء! هو الإنسانالأعلى الذي يريد أن يعيش حياته بحرية، ويتمتع بقيمة الإنسانية العليا تسمح له بضمان مستقبله المنشود"[1].

إن هذا النوع من الإنسانية يرفض أن يستسلم أو يفشل وإنما يسعى نحو إثبات حضوره وفي هذا تطور خلاق للإنسان **الراقي (SURHOMME)**، لأنه ينشد الكمال والقوة التي لم تعد

* لفظ التعالي (Tranxendance) استعمله الفيلسوف الأماني إيمانويل كانط (1724-1804) في نسقه الفلسفي وخاصة في نظرته لعلم الأخلاق القائمة على مبدأ فكرة الواجب باعتباره فعلا منزها عن كل منفعة أو غرض، فالأخلاق هي مبدأ وليس وسيلة، استوحى نيتشه هذا اللفظ ليعبر عن أخلاق الإنسان الراقي اخلاق راقية ومتعالية، عكس الأخلاق السائدة التي تسيطر عليها العبودية والخنوع التي جسدت في الحضارة الأوروبية الحديثة، التي دمرت كل قيم الإنسان الاصيل.

[1] Friedrich Nietzsche, **L'antechrist**, Traduit de l'allemand yeau (Claude Hémery (Edition, Gaillmard Paris, France 1888), P16-17.

موجودة في الحياة الأوروبية الحديثة، لذا كان لزاما عليه أن يثور ضدها ويرى أن هذا التطور لا يخدم طموح الإنسان، لما فيه من انتقاص لقيم الإنسان ووجوده.

يدعو نيتشه الإنسان أن يحيا وجوده الحقيقي في مقابل الوجود الموضوعي وأن لا يترك عزيمته القوية تفشل، في محاولة إحياء نهضة جيدة بكل تجلياتها الثقافية والدينية وغيرها من الصفات التي يقترح نيتشه أن تتجسد أكثر في الإنسان الأصيل.

الوجود الحقيقي يعطي للإنسان رغبة جامحة في التعبير عن طموحه في السيطرة على الزمان، فحين يدرك أن المحاولات السابقة التي قام بها هي مجرد أفعال إرادية تليها أفعال أخرى، وهكذا يستوي الماضي والمستقبل، ويصبح كل ما قمت به مستقبلا سأقوم به فيما بعد، فتحرر النفس من الماضي بإحالته إلى المستقبل وتقوى الإرادة القوية على الزمان بكل مظاهره ومستقبله، في هذا المنحى تأكيد لفكرة العود الأبدي يبدو نيتشه وجوديا خالصا تجاوز أطروحات الوجوديين الذين اقتصروا على تأكيد سيطرة النفس على المستقبل وتحكمها فيه، ومما وطد العلاقة بين فلسفة نيتشه والوجوديةأكثر فكرة **"موت الإله"[1]** " La Mort DeDieu"فهيدغرHeidegger[2] يفسر هذه الفكرة تفسيرا سلبيا، حينما يقصد بها الميتافيزيقا والمثل بوجه عام، وأن فكرة "موت الإله" لا تعني الإله المسيحي، ولا حتى الأديان بصفة شاملة.

إن نيتشه يهدف من خلال هذه الفكرة أن العالم الحديث فقد كل صلته بالحياة بمعناها الإنساني الجوهري وتجسدت أكثر في موقفه من الفلسفات التقليدية، وفي رفضه للميتافيزيقا القديمة، ولم يبق للفكر سوى البحث في القيم ومحاولة تقويمها وتفعيلها من أجل بناء الحياة، ويصبح الإنسان في ارتباط وثيق بينه وبين حياته، وبالتالي هذه غاية كل فلسفة وجودية.

إن الفهم العميق لهذا التقارب يبرز لنا أن نيتشه سعى إلى التعالي ليس كما تصوره كانط تعالي في التصور العقلي والإغراق في التجريد بل تعال يتحقق عن طريق الإنسان ذاته، ولعل مضمون فكرة "موت الإله" لا تعني لديه إنكار صفة خالق يفوت قدرة الإنسان وإنما أنه آن الأوان لكي نفسح الطريق أمام الإنسان حتى يتمكن من تحقيق كل ما يبتغيه وما يرجو أن يجسده في واقعه.

---

[1] Alaine Graf ,**Les Grands Philosophes Comtenporains**, P16.17.

[2] Alain Juranville, **La philosophie comme sevoir de L'existance** (Volume l'alterité presse universitaires de France 2000), P 01.

* الفرق بين نظرة نيتشه إلى "موت الإله" ونظرة هيدغر هو أن نيتشه يعتبر أن المسيحية هي التي كرست البؤس والشقاء بالنسبة للإنسان المعاصر لذا يقترح محض هذه الفكرة أمام الإنسان الأعلى فهي تعوق سبيله، أما عند هيدغر فموت الإله يعني به فناء الميتافيزيقا والمثل بوجه عام فهو لا ينتقد المسيحية كدين وهذا هو الفرق الواضح بينهما وبالتالي نيتشه يعتبر أن هذه الفكرة مظهرا من مظاهر العدمية وخاصة في ما نجم عن المسيحية من تصرفات بذيئة طمست الروح الإنسانية للمسيح.

إن هذا الإنسان لا يتوان في إزاحة كل العوائق والعقبات من طريقه ولئن كنا قد لاحظنا أن هناك مبادئاَ يشترك فيها نيتشه مع الفلسفة الوجودية فإنّ هذا لا يعني إطلاقا أن هذا الأمر ينطبق على الوجودية وحدها، فهناك فلسفات دينامية تدعو هي الأخرى إلى الحركة وعدم الثبات وأيضا نحو تفعيل التاريخ، وهذا خط مشرك بينهم في إعلاء شأن الإنسان بنفسه وتجاوزه لذاته على الدوام.

لقد سعت الفلسفة الوجودية إلى رد الاعتبار للإنسان بعدما غيب تماما ضمن الأنساق الفلسفية التقليدية[1] وحتى الحديثة منها، لذلك كان الإنسان في نظرها هو المحرك الأساسي للتفكير الفلسفي قبل كل الموضوعات الأخرى.

من هنا نجد نيتشه يشاطر كل الوجوديين في مثل هذا الرأي ويدعو إلى الاهتمام به، ولن تأتى لنا ذلك إلا بالرجوع إلى فهم معنى الحياة ومن ثمة ربط الوجود الإنساني بالواقع وما يكتسبه متن أبعاد إنسانية متعددة، هذا الأمر جعل الفلسفة الوجودية لا تعترف إطلاقا بفكرة النسق (Système) وعدت عندئذ فلسفة لا مذهبية فتحت الآفاق للإنسان لكي يعيش وجوده وحريته وكل ما يصبو إليه من طموح.

لقد كان هذا الإعجاب من قبل الوجودية إزاء الفيلسوف نيتشه ليس إعجابا ومباهاة به، وانما نتيجة تفكيره الفلسفي الذي عبر طوال تاريخه عن مشاكل الإنسان وهمومه وقلقه الدؤوب فليس الإنسان مجرد تصور ذاتي أو مجرد تجربة حسية منحلة، بل هو الوجود بأكمله ويعتبر نيتشه أن الذي عبر عن الإنسانأكثر هو زرادشت حيث يرى فيه التسامي والطموح فيما كان نيتشه في حكم مؤثرة تدعو إلى إحياء الإنسان في كل مراحله التاريخية.

يقول نيتشه: "عندما أتيت إلى العالم وجدته جالسا على افتراضات قديمة واثقا أنه عرف كل شيء وميز بين خير الحياة وشرها، ورأيت الناس يعتقدون أن كل بحث عن الفضيلة قد انقضى زمانه وبالرغم من هذه العقيدة كان كل منهم يأتي على ذكر الخير وهو متجه إلى سريره طلبا للنوم الهنيئ"[2].

من خلال هذا القول يرى نيتشه أن الإنسان كائن حر يجب أن يختار حياته ويشعر بها شعورا حقيقيا وذلك بمعالجة مشاكله وهمومه فيحاول دوما أن يجد لها حلا يزيد من قيمته ومن وجوده الفعلي.

[1] Poule Foulquie, **Que Sais Je L'extentialisme**, P10.

[2] فريدريك نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، ترجمة فليكس فارس، (دار القلم بيروت، لبنان)، ص 225.

من هنا يدرك معنى حياته ولا يبقى بعيدا عنها وهذا ما لاحظه نيتشه في جميع الفلاسفة أصحاب المذاهب الفلسفية إذ جردوا الحياة من معناها الإنساني الأصيل وعليه فكانت انتقادات نيتشه أكثر حدة لهم تزامنت مع نقد الوجودية أيضا لهم.

في هذا الصدد يقول نيتشه: "هنالك أيضا ظفرت بكلمة (الإنسان المتفوق) وبالتعليم القائم على أن الإنسان كائن يجب أن ينشأ منه ما يجتازه ليس الإنسان هدفا وغاية إن هو إلا عابر يدعي السعادة في ظهيرته ومسائه"[1].

حقا إن اختلاف هذه الفلسفات والمذاهب اختلافا عميقا هي في نظر نيتشه لا تقدر أن تتقدم إلى الأمام إذا لم تفترض مسبقا قابلية الماهية الإنسانية للتحول والتغير، وعليه فالفلسفة إذا أخذت بهذا المسعى فإنها تكون ذات قدرة على مخاطبة الإنسان والإطلاع عن كثب على مختلف التطورات الناشئة عن معترك الحياة.

لذا ركز نيتشه على أن الوجود يسبق تماما الماهية لأننا لا نتصور إطلاقا أن الإنسان يعرف قبليا ماهيته دون أن يعرف وجوده فالوجودية ترى أن الإنسان يوجد أولا ثم تتحقق ماهيته، وفي هذا تطابق بين تفكير الإنسان وحياته فليس للفلسفة قيمة إنسانية إذا هي لم تراع ما يحدث في الحياة ناهيك عم يحدث فيها من تطورات متعددة في مجالات شتى.

إن نيتشه يتفق مع الفلاسفة الوجوديين في رد الاعتبار للإنسان أمام استفحال وبروز النزعة المادية التي انعكست على مستوى التفكير البشري ومستوى الحياة بصفة عامة، وردا على تلك التصورات الفلسفية التقليدية كونها أولت اهتماما للماهية عن الوجود، تمثلت في السقراطية والأفلاطونية وصولا إلى المذاهب الفلسفية في العصر الحديث.

لا شك أن نيتشه يقترب كثيرا من الوجودية في هذا الطرح فهو بحق لا يروق له إطلاقا أن يبقى الإنسان رهين تصورات فلسفية تجريدية تكون بمنأى عن حياته المعيشية فما جدوى هذه الحياة إذا لم يعش فيها المرء حرا طليقا يشعر فيها بكينونته وبأنّسانيته المفعمة بالتجارب الحياتية، تكون حياة زاخرة حيوية يصل فيها الإنسانإلى قمة النشوة والسعادة والأخلاق السامية لا أن تكون حياة جافة تقتل الشهامة والمروءة والإقدام في الإنسانية فيتولد على أثرها الاستسلام الوهن والضعف والدناءة والاحتقار.

تلك ولا ريب شيم الإنسان العادي الفاشل لذا كان لزاما أن يثور الإنسانالأعلى أمام هذه الأوضاع المتردية التي تفشت كثيرا في الحضارة الأوروبية الحديثة فنتج عنها الانحطاط الذي انكشف في جميع ضروريات الحياة البشرية.

[1] فريدريك نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، ترجمة فليكس فارس،، **المصدر نفسه**، ص 226.227.

تراءى نيتشه أن الإنسان بإمكانه أن ينهض من جديد حيث يغير مجرى الحياة بكل تجلياتها ويجعلها ذات قيمة إنسانية خالصة فيلجا إلى بناء ذاته وأخلاقه وتقويم قيمه بعدما أفسدتها الحضارة الغربية المسحية، فلابد إذن من إعلان ميلاد جديد للإنسانية التي تسعى جاهدة نحو امتلاك إرادة القوة والتضحية من أجل المحافظة على الحرية كصفة جوهرية أساسية لكل امرئ وخاصة الإنسان الراقي الذي وحده يعرف معنى الإنسان ومعنى الحياة.

إن فلسفة نيتشه تسعى دوما إلى تجاوز كل مرحلة تاريخية إنسانية فهو في نظر الوجوديين أنفسهم وحتى غيرهم فيلسوف كثير النقد يدعو الإنسانإلى تجاوز كل العوائق التي تعترض سبيله.

نلمس ذلك كما يدعي هو في الإنسان الراقي (الأعلى) الذي يراه نيتشه إنسانا كاملا يتمتع بخصال الإنسان الشرقي العفيف الطاهر كونه محبا لإرادة القوة وعدم الخضوع أو الاستسلام لمشاكل الحياة.

هذا ما يفسر لنا أن التصنيف النيتشوي للإنسان يهدف إلى إحياء الصفات الجوهرية لمعنى الإنسان وإيجاد تعريف شامل له ولوجوده، الأمر ذاته هدفت إليه الوجودية من أجل تعزيز مكانته والاعتراف بفضله في بناء الحياة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى دقيق إنساني نبيل وليس ذلك المعنى الجاف الذي لا يستشعر لحظة الوجود والامتنان لجملة الخصال الإنسانية المتعددة.

ويرى نيتشه ها هنا نظرة خير من عبر عن الإنسانية والحياة أكثر مما عبر عنه الفلاسفة الوجوديون لذلك ندرك أن أثر فلسفة نيتشه واضح للعيان في كتابات الفلاسفة الوجوديين فيقول: "أنا أحب الإنسانية"[1]، ولكن لماذا؟ن يتساءل نيتشه على لسان زرادشت فيجيب: لأن الإنسان يريد أن يحيا الحياة بوجودها الإنساني الخالص، وهذا نابع من تعلقه بالمصير الذي يجعلنا دائما نلتهف لمعرفة خبايا الحياة والدفاع عن وجودها دون أن نترك هذا الكائن يهيم في خضم المشاكل اليومية التي يطغى عليها السكون والجمود فيقول نيتشه: "الآن أحب الله: أحب تحديدا البشر، فالإنسان بالنسبة لي هو الكمال الحقيقي الذي يمنح الحب لأخيه الإنسان"[2]، إن التأويل الذي اقترحه نيتشه حول مسار تاريخ الفكر الفلسفي، ليس مرده في إبراز النقد فحسب بل من أجل رد الاعتبار لكرامة الإنسان.

[1] Fridrich Nietzsche, **Ainsi parlait ZaraThroustra,** P16.
[2] **Ibird**, P 17.

فنيتشه استطاع أن يضع الإنسان كفكرة محورية جوهرية ضمن التفكير الفلسفي واعتبر حينئذ قضية وجودية بالنظر إلى التاريخ البعيد للثقافة الأوروبية حسب نظرة نيتشه[1].

الإنسان النيتشوي يختلف عن إنسان الفلاسفة الآخرين فهو إنسان يرفض الرقابة والتحجر ويقبل على مسايرة الحياة بجد وحيوية ونشاط وبالتالي يسترد الإنسان قيمه ووجوده وبالأحرى صفاته التي تجعله كائنا حرا ومقدسا هذا ما كانت الوجودية تسعى إليه في خطاباتها الفلسفية.

من خلال رؤية نيتشه للفلسفة نجد انه أراد أن يعطي لنا مفهوما جديدا للفلسفة فهناك فلسفة سلبية تمثلت في تقديس طابع التجريد العقلي في جميع موضوعاته بحيث لم تدرس من خلال الواقع بل درست وهي بمنأى عنه إطلاقا، فهذه الفلسفة أصبحت بدون قيمة تذكر.

كما يصرح نيتشه أما الفلسفة الايجابية فهي تتعلق بمصير هذه الموضوعات الفلسفية ومن ثم محاولة ربطها أشد الارتباط بالحياة لأننا لا نستطيع أن نفهم كافة الأشياء والأفكار إلا جراء الواقع المعيش.

هذا ما أكدته الدراسات الوجودية عندما فصلت الإرادة عن العقل[2] حتى تلفت انتباهنا إلى حاجة الإنسان إلى أن يفعل ويختار لا نتيجة لتفكير فلسفي بل بدافع الممارسة التلقائية للارادة تزامن تأثر الوجوديين بفلسفة نيتشه خاصة في مرحلة الرومانتيكية* حيث تجسدت في كتاباته الفلسفية الأولى.

نلتمس في ولوعه بالشعر والموسيقى والفن ولعل هذه السمات هي التي أوحت للوجودية بأنّ نيتشه فيلسوف وجودي يمكن تصنيفه ضمن التراث الفلسفي الوجودي لا غير.

إن كثرة الدراسات من قبل الباحثين في فلسفة نيتشه هي دراسات رغم تعددها فتحت مجال التأويل، كيف يقرأ نيتشه؟، كل الموضوعات التي تناولتها الفلسفة يجب أن ترتبط بالإنسان لأننا لسنا مخولين كليا أن نفهم معنى الإنسان ففهم الفلسفة يتوقف على مدى فهمنا لإرادة الحياة، وفي فهمنا للحياة بعمق يجب معرفة ما هو الإنسان؟، كيف يفكر؟، كيف يعيش حياته؟، كل هذه التساؤلات المقلقة انتابت أذهان الفلاسفة عموما والوجوديون على وجه الخصوص.

---

[1] Vattimo Agianni, **Introduction a Nietzsche**, Traduit de l'intalim par fabisme zanussi (le poit phislosophique de BOOK Université, Paris, France, 1991), P 09.

[2] برتراندرسل، **حكمة الغرب ج1**، (الفلسفة الحديثة والمعاصرة)، ترجمة فؤاد زكريا، ص 194-195.

* الحركة الرومانتيكية (Mouvement Romantique) هي نزعة ظهرت في فرنسا خلال القرن الثامن عشر حيث أصبحت عبادة للانفعالات وكانت تمثل رد فعل على تلك التصورات الرفيعة لدى المفكرين العقليين وهنا علاقة بين الحركة الرومانتيكية وبين الحركة التنويرية، تذكرنا بالنظرة اليونانية الموجودة في النظرة الديونيزية مقابل النظرة البولونية، فالرومانتيكية نزعة تنشد فترة الخطر والمغامرة، وهذا ما جعل نيتشه يتشبع بهذه الحركة سيما في مرحلته الأولى من حياته الفلسفية.

لئن كان هذا الانقلاب الذي أحدثه نيتشه في تاريخ الفكر الفلسفي برمته، فإنما يرجع إلى مفهوم التجاوز الذي انطوت عليه كل فلسفته بمراحلها التاريخية، هذا نابع من تأثره البالغ بالثورة التي أحدثها الفيلسوف الوجودي الدانماركي سورين كير كجارد (SOREN (KIERKEGGARD) (1813-1855) على الفيلسوف الألماني فريديريك هيغل (1770-1831).

في هدم فكرة النسق المنطقي وهي نقطة البدء في الهجوم العنيف الذي كرسته الوجودية ضد الفلسفة التقليدية الأمر الذي جعل نيتشه يجنح إلى مثل هذا التجاوز حيث يراه مفيدا لتطور الفكر والحياة لا تطور يفصل بين فكر الإنسان وبين واقعه الحياتي وهذا ما تجلى فيما بعد في كتابات الوجوديين المعاصرة.

يؤكد نيتشه دوما أن الوجود الإنساني يمنح لنا معرفة ماهيته لأن الإنسان كلما اكتشفنا فيه من صفات جوهرية أساسية تمكنا عندئذ من الوصول إلى القدرات الإبداعية فيه.

وتظهر هذه الإبداعات في شتى مناحي الحياة فهي تتيح لنا مسايرة الحياة ونعرف عن كثب كيف يترك هذا الإنسان أثره ووجوده الفعلي والايجابي فيها لذا كان من المجدي إن نيتشه يسعى على الدوام إلى مناداته بالاهتمام بالإنسانالأعلى، لأنه يجسد معنى الحياة ومعنى البطولة إلا الإنسان الفاشل المستكين الذي يرضى بهذه الضحالة والتعاسة والبؤس ذلك نتيجة نظرته السطحية لحياته ومجتمعه.

فالإنسان يجب أن ينفذ إلى باطن الأشياء وألا يغفل إطلاقا عن تلك المشاعر النوعية لأي فرد فهي لا يمكن أن تفهم إلا وجوديا .

يقول نيتشه: "العقل الحر يمنح لنا الرفعة والخطر في الحياة من خلال التجارب الإنسانية المفعمة بالمعاناة وحب المخاطرة"[1]، يركز نيتشه مع الوجوديين أن التجارب الحياتية هي التي تمجد الإنسان بل وتشعره بحياته عندما يمارس فكرة المعاناة، القلق والاضطراب،... إلخ، لأن الحياة في تجدد واستمرار فنعيشها بكل ما تزخر به من تطورات بشرية هائلة.

فطابع الامتياز والتسامي بالنسبة للتفكير البشري هو أن يشعر كل إنسان بحريته دون أن تعترضه عوائق تضيق عليه ممارسة وجوده ومن ثم تحقيق ماهيته، ويذهب نيتشه في هذا المسعى نحو الفن باعتباره إبداعا خلاقا منتجا يكتمل أثناء ممارسة كل أشكاله المتنوعة[2].

[1] Friedrich Nietzsche, **Humain trop Humain** Tome I, Traduit par robert Rovini, (Edition, Gillinard 1876), P 25.
[2] **Ibird**, P 25.

من هذا الأساس يعتبر نيتشه أكثر ارتباطا بالوجودية حسب منظور الباحثين إذا ما قورن ببقية التيارات الفلسفية الأخرى وعليه تجده يجنح في بعض مواقفه الفلسفية إزاء كل مذهب فلسفي كما أشرنا إليه في البداية ولعل في حل مواقفه الفكرية يبدو وجوديا عندما نوه بالذكر في أنه يجب على الفلاسفة جميعا أن يهتموا كيما الاهتمام بما يتطلبه الإنسان من تضحيات جسام وتحقيق الأماني المنشودة بدون توقف.

حقا إن الفلسفة الوجودية وجدت خير معين لها عندما تأثرت بحياة وفكر نيتشه الذي ساهم في نشر مبادئ التفكير الوجودي الذي غير منحى التفكير الفلسفي في الفترة الحديثة والمعاصرة تحديدا.

هذا البعد الفلسفي الابيستيمولوجي أدى بكتابات الوجوديين إلى إحداث قطيعة معرفية نقدية*على مستوى تاريخ الفلسفة عموما ونشيد هنا بعظمة نيتشه الفيلسوف الثائر والمجدد.

إن التجاوز الذي يعلنه نيتشه في كل مرحلة من مراحله الفكرية والتاريخية له مبررات فلسفية مما جعله جديرا بالاهتمام والمتابعة ولسوف يتعجب الوجوديون بهذا النمط من الروح الفلسفية النفاذة وحسبنا أن نلمسها بوضوح في كتابات الوجوديين الذي عاصروا فلسفته إلى حد التأثر والانبهار به في حد ذاته من جهة، ومن جهة أخرى بنظرته التواقة إلى الحياة الإنسانية والدعوة الجريئة إلى مسايرة متطلبات الإنسان اليومية.

لا تخل كتابات نيتشه من ذكر اسم الإنسان فيها فهو عندئذ يتكلم عن تاريخه وقيمه وأفكاره ونظامه السياسي وحياته الاجتماعية ويدعو على الدوام أن يتجددها ويؤصلها في وجوده.

وبالتالي تتطور هذه التصورات وفق إرادة الحياة إذا يتجاوز نيتشه كل الفلاسفة في أن لا يتفلسف من أجل التفلسف وإنما يتفلسف على نمط شبيه بالمفكرين النظريين لترفعه التام على كل ما ينتمي إلى واقع الناس، ونراه من جهة أخرى مختلفا كل الاختلاف عن المفكرين النظريين بما يضفيه على مشاكله من حركة دائمة وتتضح لنا وجودية الإنسان جراء سلوكاته اليومية، النابعة عن ذاته.

ويقدم لنا نيتشه مسألة الأخلاق باعتبارها قيما إنسانية تطرأ من خلال الأفعال البشرية فيجب الحكم على نتائج الأفعال كالخير والشر ولا نحكم على المبادئ، وبالتالي نجد نيتشه

* ينبغي الإشارة إلى أن الفلسفة الوجودية نقدت كل الفلسفات السابقة وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية 1945 واعتبرت أن الفلسفات السابقة على اختلاف عصورها غيبت الإنسان وفصلت عليه الموضوعات الأخرى ولم تراع خطورة الوضع وتأزم الواقع نتيجة كثرة الحروب والدمار الذي خلفته هذه الحروب ووجود الإنسان في ظروف أكثر تراجيدية ومأساوية وثورات تشبه أكثر على هذه الأوضاع المزرية جعل أعماله تلقى الإعجاب والانبهار من الفلاسفة دائما .....

متأثرا بروح التفكير الشرقي القديم خصوصا التفكير لدى زرادشت[1] والصراع الأبي بين الخير والشر بين إله الخير وإله الشر.

إن الوجودية فلسفة رائدة في الوجود وأساسها الجوهري هو أن الإنسان ووجوده هو ما يفعله فأفعال الإنسان هي التي تحدد وجوده وتكونه لهذا يقاس الإنسانبأفعاله[2].

لقد رأت الوجودية أن فلسفة نيتشه قد عبرت بكل المعاني حينما تضع الوجود الإنساني في المقام الأول في مقابل الوجود الموضوعي الذي هو وجود أدوات فحسب وفي هذا الوجود يستشعر الإنسانبأنّه حر ويختار وفي اختياره يقرر هذا النقصان لأنه لا يمتلك تحقيق الممكنات كلها والذات الوجودية تسعى بين إمكان وهو الوجود الماهوي وبين الواقع وهو الوجود في العالم[3].

كما يرى نيتشه هنا أن الإنسان يسعى دائما إلى تحقيق وجوده الكامل بفضل أفعاله لأننا ندرك أو بالأحرى نستطيع أن نفهم حقيقة هذا الكائن بما يقدم به وما يهدف إلى تحقيقه من غايات منشودة.

حقا الإنسان يكون بهذا الشكل حتى نتمكن من مسايرته هو وحياته، إن الإنسان يبقى في اعتقاد نيتشه هو ذلك الإنسان الذي يحيا وجوده وليس يفكر في وجوده لأن التصور الأول يجعل صاحبه يعيش تجاربا حياتية زاخرة ناجمة عن صراعه الطويل مع الوجود في العالم أما التصور الثاني فنظر مجرد إلى الحياة من خارجها وإلى الوجود في موضوعه[4].

ومن هنا كان من الممكن أن نجد البذور الأولى لهذه الفلسفة الوجودية التي تحيا الحياة وتجدد من الوجود الإنساني.

إن اختيار نيتشه للإنسان الأعلى دليل على أنه أراد بذلك أن يحي الفكر الفلسفي بأكمله وترتيب موضوعاته بشكل منطقي بدءا بدارسة الإنسان ومن ثمة اعتبار ما يصبو إليهالإنسان الحر يخالف أشد الاختلاف أن تصير الحياة قاتمة لا نستفيد من تجاربها ومن إبداعاتها الحضارية في شتى مناحي الثقافة الإنسانية لذا بدا نيتشه في كتاباته الفلسفية يناضل بل ويدافع عن الإنسانالأعلى المتفوق على ذاته وعلى عصره لأنه لم يجد ما يغير به من ثقافة عصره بقيمه وفنونه وأفكاره ومواقف سياسية اجتماعية سوى اعتبار زرادشت هو النموذج الكامل لمعنى الإنسانية.

---

[11] Friedrich Nietzsche, **Par de la le bien et le mal**, Traduit par Genevieve Bianquis , (Libraire générale, française 1885), P09-10.

[2] عبد الرحمن بدوي ،**دراسات في الفلسفة الوجودية**، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1966)، ص 01.

[3] **المرجع نفسه**، ص 12.

[4] **المرجع نفسه**، ص 15.

وبالتالي ظلت كتاباته على نمط مقتطفات نثرية وشعرية تمتزج فيه عذوبة الأسلوب الشعري والروح الصوفية التي قلما نألفها عند الفلاسفة بل تتجسد أكثر في أسلوب الشعراء وخاصة الوجوديين مثل شارل بودلار، جيته،.. وغيرهم...إلخ.

من هنا سعى الوجوديون إلى ضم نيتشه إلى الفلسفة الوجودية نظرا لشدة غلوه وتعمقه من تمجيد الإنسان ناهيك على أنه خير من عبر عن منطلقات التفكير الفلسفي الوجودي أكثر مما عبر عنه فلاسفته الحقيقيون سيما في تقديسه للإنسان الأعلى (SURHOMME).

ولعل هذا السر هو الذي أوحى إليهم أن نيتشه ينتمي إلى فلسفتهم وهو الذي سيدافع عن تصوراتهم، يقول نيتشه: "الحالات العاطفية والوجدانية لطبي عة الإحساسات تستطيع أن تعطي لنا رؤية لمعاناة الآخر، وفي النهاية هي معاناة متعددة تهدد الضعيف أو القوي من البشر ومن يصمد أمام مشاكل الحياة ويجابهها"[1].

ويرى نيتشه أن الفلاسفة العظام هم من يعتبرون أن الفلسفة يجب أن تقتحم معترك الحياة لا أن تظل بعيدة عن متناول الإنسان وعليه يسعى الإنسان نحو الخطر[2] وبذل روح المخاطرة لأن هذا الشعور الحقيقي بوجود قيمة الفكر الفلسفي ويؤكد نيتشه: إن فلسفتي تعتبر أن الحقيقة الإنسانية ذات بعد جوهري إذا ما كانت تشكل مشكلة من المشكلات الحياتية[3]، فليست هذه الحقيقة هي مشكلة في حد ذاتها وإنما هي مشكلة فعلا إذا ما نظرت إلى الحياة بحد ذاتها، من هنا يكون الإنسان قد امتلك معنى- الوجود الفردي والوجود الحسي الخارجي.

تعمق نيتشه أكثر في تحديد الصفات الجوهرية الموجودة في الإنسان فنحن لا نعرف معنى الإنسان لأنه كائن وجودي يريد أن يحقق كل أمانيه ويجعل هذه الحياة في نظرة ذات أبعاد حضارية عميقة الأثر من خلال ما ينتجه من إبداعات كثيرة تدل على العبقرية والنشاط والحيوية إذا ما توافرت لها شروط معينة هي: الإيمان بحرية الفكر الفلسفي المتواصل ومدى تطابقه مع نظام الحياة، حتى يتسنى له البقاء والاستمرار.

يأخذ نيتشه بفكرة التفاوت الطبيعي[4] بين الأفراد حيث يراه أساس العدل الاجتماعي وبالتالي فكل فرد يشعر بمكانته الحقيقية داخل نظام المجتمع وشجب كل محاولة تدعو

[1] Fridrich Nietzsche ,**Ainsi parlait ZaraThoustra**, (Sigma Edition, 1880), P 03.
[2] M.S.Silk and J.P.Stern, **Nietzsche on Tragédy**, (Canbridge university press 1981), P 17.
[3] **Ibid**, P 17.
[4] د. فؤاد زكرياء، **نيتشه**، (سلسلة نوابغ الفكر العربي)، ص 43-44.

إلىالمساواة* المطلقة بين أفراد البشرية لأن مثل هذا التواجد في الحياة يكون سببا لانتشار الظلم واندثار للقيم واضمحلال لقيمة الإنسان.

عندئذ تفقد الحياة وجودها وتزداد معاناة وآلام الإنسانأكثر فأكثر، في هذا المقام نجد نيتشه متأثرا بالروح اليونانية القائمة على التشبع بالروح الارستقراطية على بقية الطبقات الأخرى، يقول في هذا الصدد: "إن الحكم الصادر من قبل فلاسفة اليونان إزاء الحياة الإنسانية، الوجود بصفة عامة يبدو أكثر ملائمة وصدقا إذا قورن بذلك التصور الفلسفي المجرد الذي يجعل الحكم في نهاية الأمر يغلب عليه التصور العقلي البعيد عن الحياة البشرية"[1].

هنا رأى نيتشه أن الإنسانالأعلى فيه صفات بطولية تجسدت أكثر وضوحا سيما في الفكر البطولي اليوناني، لذا نادى بضرورة التفاوت وتكريسه في ذات الإنسانية وفي هذا المسعى سار على منوال التصور الأفلاطوني والأرسطي في التفكير الفلسفي السياسي.

فالإنسان الأخير رفضه نيتشه لكونه إنسان خنع لنمط الحياة البائسة في هذا العصر الحديث، حيث تجردت الحضارة من كل مظاهرها الحياتية الإنسانية حينما نجد نيتشه ينوه بتسلط الأنظمة السياسية على حياة الإنسان التي تسلب منه روحه ووجوده وكل ما يملكه من قدرات إبداعية راقية تدفعه نحو تحقيق سعادته.

لذا يحث نيتشه الإنسان على أن يناضل ويدافع عن وجوده باستمرار ولعل هذا هو السر ومدى التأثر الذي أدى به إلى إعجابه المنبهر بالفكر اليوناني، لكنه لا يرفض التصور الحداثي لمعنى الإنسان والإنسانية، كما يزعم الباحثون ـ في العصر الحديثـ بل يرفض أشكال الاستلاب والاستغلال الممارسة على الإنسان ويتعجب نيتشه لما آل إليه العصر الحديث من بؤس وشقاء على مستوى جميع القيم والصفات البشرية خصوصا فيما نجده حينما يربط قلق ومعاناة الإنسان بالجانب السياسي والاجتماعي الذي تجاوز به نيتشه الفكر الوجودي كون أن الفلاسفة الوجوديين حصروا مفهوم الإنسان في علاقته بالحياة دون أن يأبهوا بالتنظير السياسي الذي هو عصب الحياة الإنسانية والاجتماعية.

إن التفاوت الطبيعي الجوهري يسمح لنا بفهم ما يهدف إليه الإنسان من تحقيق ما يرمي إليه من طموحات وآمال، فلا يجب أن يخضع الناس ضمن طبقة واحدة في المجتمع لكي يشعر الإنسان بوجوده الحقيقي السامي أن يعيش في الحرية التامة ولا سبيل للحد منها يشترط نيتشه

* يبدو ان نيتشه هنا من انصار التفاوت الطبيعي الذي يقول به المجتمع اليوناني، وقد استوحى نيتشه هذا التصور ليبين لنا أن العصر الحديث لم يحافظ على القيم والمشاعر الإنسانية خصوصا وجود آراء تنادي بفكرة المساواة التي جسدتها الاشتراكية بزعامة ماركس (1818-1883) وللدولة الحق في تحديد وسائل الإنتاج ورفض الملكية الخاصة وتشجيع الملكية العامة، لذا رفض نيتشه هذه الفكرة وتحامل عليها نظرا لأنها تحد من الحرية الفردية ومن الوجود الإنساني بصفة عامة.

[1] Friedrich Nietzsche, **La Philosophie a l'époque tragique de Grecs**, Traduit de l'allemand par peaus louis Backes, (Edition l'allemand) .

ألا يكون هذا التفاوت مصطنعا بين البشر لأنه سيؤول إلى التسلط وتضمحل أمامه فرص الوجود الإنساني وتظهر عندئذ الأنانية والغطرسة فتتلاشى كل قيم الإنسانية أمام تصادم المتطلبات البشرية، فليس التفاوت ها هنا تفاوتا بشريا يراعي الصفات النوعية لدى كل فرد وإنما يكون استيلابا لمعنى الإنسان.

وعليه فإنّ نيتشه عندما يتحامل أكثر على الاشتراكية أو بالأحرى على المساواة إنما أراد أن يوضح لنا أن هناك فوارقا تتبدى من خلال التواجد في ظل المجتمع الواحد خصوصا تدخل الدولة في حرية الأفراد، الأمر الذي جعل نيتشه يرفض مثل هذه المساواة المطلقة كونها تدعي حماية حقوق الفرد والدعوة نحو تحرر الإنسانأكثر.

إن الفهم الذي يحبذه نيتشه هو أن التفاوت أو المساواة مهما تناقضت بعمق جراء تناقض أطروحات الفلاسفة فإنه يجب احترام الإنسان كما دعت إليه الفلسفة الوجودية عبر مسار تاريخها الفلسفي باعتبارها فلسفة رائدة بدت ملامحها بدءا من بارمينيدس[1]، هراقليطس، سقراط، إلى القديس أوغسطين حتى كيركجارد، مارسيل،...إلخ.

ويؤكد نيتشه في هذا المسعى أن هذا التفكير الفلسفي اليوناني يشكل حضارة فكرية[2] اهتمت بالإنسان على الأقل بوصفه محور التفكير الفلسفي، يعود نيتشه ويذكرنا دائما بأنّالإنسان يجب أن نترك له إبداء آرائه بمعنى إعطائه فرصة الراحة حتى يتسنى له إثبات وجوده على الدوام.

إن روح المخاطرة واقتحام معترك الحياة في نظر واعتقاد نيتشه يمنح للإنسان أبعاد إنسانية طالما أن الحياة لا يمكن أن نشعر بلذاتها إلا عندما نعيشها فعلا بعيدا عن كل استغلال بشع، ويكون الإنسانأكثر مجابهة للواقع بكل ما تكتسيه من عادات وتقاليد وعلاقات اجتماعية عندما يجابه الإنسان طبيعة النظام السياسي والاجتماعي الذي يتواجد فيه ويعتمد الإنسان في نظر نيتشه جراء تصادمه مع هذه الأوضاع، لذا كان لزاما أن يبين لنا نيتشه أن هذا الإنسان لا يبقى بمنأى عن أوضاعه السياسية والاجتماعية وهنا تتعمق كينونته أكثر مقارنة بنظرته كيف يحيا حياته وكيف يعيش فيها ومن ثمة تظل ماهيته هي الممارسة الفعلية فيما يتركه من أثار حياتية.

[1] عبد الرحمن بدوي، **المرجع السابق**، ص 15

[2] Friedrich Nietzsche, **La Philosophie a l'époque tragique de Gres**, P 18.

المبحث الثاني: إرادة القوة "Volante de puissance"

لقد تحدث نيتشه كثيرا في كتابه إرادة القوة، عن معنى القوة، و أشارت الدراسات الفلسفية والتاريخية لبعض الباحثين المهتمين بالتراث النيتشوي أن نيتشه أولى اهتماما بالغا لمفهوم القوة أكثر من غيره من الفلاسفة السابقين، أو الذين عاصروه، و في السياق ذاته يجدر بنا الحديث عن ضبط التصور اللغوي لمفهوم القوة (La force)، و قبل التّطرق إلى المعنى الفلسفي لها . قصد نيتشه أنّ المعنى اللغوي للقوة هو ضد الضعف و الاستسلام، الذي تجسد في الإنسان و الحياة معاً، حيث فقدت المظاهر الإنسانية من خير وشرف ونبل وسعادة وأخلاق واحترام ...إلخ وجودها الإنساني و الحضاري!

إن القوة هنا تعني في اعتقاده أنّ الحياة هي استيلاء على الآخرين و استغلالهم فالقوة تضمن لنا الصراع من أجل البقاء، و بالتالي القوة تمنح البقاء للأقوى و ليس للضعيف . وهنا يكون نيتشه قد تأثر كثيراً بنظرية التطور لدى داروين "Darwin" و سبنسر "Spenser" . فالقوة من ناحية الإشتقاق اللغوي هي تحقيق المجد و البطولة و الكفاح من أجل الإستمرار و البقاء في هذا الوجود. أما الضعف فهو الفناء و هذا ضد القوة في نظر نيتشه.

من خلال ما سبق أردنا أن نبيّن المفهوم اللغوي النيتشوي لمفهوم القوة، و ذلك بحسب طبيعة ثقافة المجتمع الألماني حيث يعدّ نيتشه فردا منه قبل أن يصير فيلسوفاً و ثائراً و ناقداً، لقد أدركنا التصوّر الدلالي لمعنى القوة في نظره، و عليه من الضروري تقديم المبررات الفلسفية و المنطقية التي جعلته يختلف أيّما اختلاف عن نظرة الفلاسفة إزاء معنى القوة. استعاض نيتشه من النظرة الفلسفية لمفهوم القوة حيث غلب عليها التفكير الفلسفي السياسي قديماً وحديثاً، و أصبح لها مفهوم سياسي بحت مرتبط بأنّظمة الحكم ومصدر السلطة السياسية و علاقتها بالقانون في تحقيق العدل الاجتماعي بين المساواة و التفاوت بدءاً من "أرسطو طاليس "Aristot"، مكيافلي "Machiavelli"، هوبز "Hobbes"، ماركس "Marx"، روسو "Rousseau" ... الخ.

كونهم حصروا مفهوم القوة ضمن نطاق السياسة والأخلاق، و علاقة الحاكم بالمحكوم في تحديد طبيعة الحكم السياسي فرديا كان أم جماعياً. فيختلق تناقضا بين مضامين الفلاسفة في علاقة العدل بالمساواة، و علاقته بالتفاوت.

كما يقدم نيتشه نقدا صارماً إلى الفلاسفة الذين تناولوا مفهوم القوة كأنها "مفارقة" للواقع البشري تماماً. و السبب في ذلك طغيان التفكير السياسي من جهة، و التفكير العقلي المجرّد من جهة أخرى، لعلّ اهتمام نيتشه بفكرة القوة "La Force" يعود إلى تأثره بفلسفة أرتور شوبنهاور "Arthur Schopenhaeur" الذي يرى أن الإرادة هي وحدة الوجود، فهي تتجاوز العقل الدي لم يعترف هو الآخر بأنّ تنحصر الإرادة البشرية في التصورات الذهنية

فقط، هذا ما لفت انتباه نيتشه و مدى إعجابه بفلسفة شوبنهاور ! لكن نيتشه لم يتفق معه عندما ركّز على فكرة الألم و التشاؤم، حيث تبث في الإنسان اليأس و الجمود بل يجب على الإنسان أن يكون ذا إرادة قوية في بناء ذاته و وجوده في الحياة. والإرتقاء نحو المجد و البطولة لبناء حضارة إنسانية رائدة في مختلف مظاهرها. و بالتالي يمكن القول أن نيتشه أبدى نظرته إزاء إرادة القوة، فهي ليست مجرد نظري كما ظنّ الفلاسفة. فالقوة هي بذل جهد في فهم الحياة بمعاناتها الدؤوبة، حتى يستطيع الإنسان أن يغير من نظام الحياة .

من هنا نجد نيتشه يخالف الفلاسفة نظراً لأنهم لم يعبّروا عن المعنى الجوهري للقوة معبّراً إياها قولاً و فعلاً و أصبحت من المبادئ الأولى لفلسفته، حيث فتح لها مفهوما فلسفيا أحدث قطيعة اسبتمولوجية نقدية تتجاوز بها الأطروحات الفلسفية السابقة و المعاصرة له. و بدا متأثراً جداً بالرّوح اليونانية "الديونيزية" التي انبثقت عنها حيوية الطبيعة "Aminisme" وأشكال الفن. إن إرادة القوة هي الإرادة الحقيقية "C'est une volenté autentique "La volente de puissance، التي رآها مجسدة في نوع راق من البشر و ليس كلهم و لا سيّما الإنسانالأعلى "Surhomme" الذي يجسّد شخصيته زرادشت "Zarathostra" الحكيم الفارسي . ثمّ يؤكد نيتشه أن الميتافيزيقا الكلاسيكية التي أخفت عنّا معنى إرادة القوة، و ذلك لأن الفلاسفة الأوائل لم يهتموا بالواقع ؟ بل كان يغلب عليهم التفكير المجرّد البعيد عن أمور الواقع .

لقد رفض نيتشه الميتافيزيقاحيث اعتبرها خالية و جافة من أي معنى فلسفي و إنساني فكان الفن "Art" بأشكاله المتنوعة هو السبيل الوحيد لفهم إرادة القوة، فهنا يكون دور الفنان "L'Artiste" في إثبات الوجود الإنساني الحقيقي من خلال "دور العود الأبدي" "Retour l'eternel" الذي يجب أن يجسد في شخصية الفنان المعاصر حتى يحذو حذو الفن الديونيزي اليوناني القديم، يتجلى الفن المعاصر في موسيقى "فاجنر" "Wagner" و سر حياته في موسيقى بيزيه "Bizet"، و في هذا السياق يكون نيتشه الفيلسوف الوحيد صاحب النظرة الفلسفية لإرادة القوة، دون غيره من الفلاسفة لأنها تعتبر من مبادئ التفكير الفلسفي لديه، شانها شأن العدمية،الإنسانالأعلى، الفن، العود الأبدي ...إلخ.

حينما أعطى نيتشه مفهوما عميقا للإنسان إنما أراد به تحقيق معنى الإنسانية التي تناضل من أجل بناء الحياة والحفاظ على وجودها والعمل على تجديدها، لذا لجأ نيتشه الى تقسيم الإنسان : إلى الإنسان الأعلى والإنسان الأخير.

من هنا نجده يركز على إرادة القوة وبالتالي يكون قد تجاوز الطرح الوجودي أكثر عندما يعلي من الإرادة ويربطها بالإنسانالأعلى (الأرقى)، إن غاية الإنسان لا تقف عند القواعد

الأخلاقية العامة المعمول بها بل غايته تنجلي أكثر فيما يكتسبه من العلاء في الحياة على الدوام، وذلك ما قصده نيتشه بفكرة الإنسان الأرقى.

فإرادة القوة لا تتحقق إلا بفضل هذا النوع الإنساني فكانت نظرته إلى الأخلاق تتجاوز ذلك النمط المعهود، ألا وهو ربطها بفكرتي الخير والشر، فالأخلاق في اعتقاده يجب أن ترتبط أكثر بالحياة الإنسانية في امتلائها وتجاربها الإنسانية البطولية (أخلاق السادة تتجسد في الإنسان الأعلى بينما أخلاق العبيد تتجسد في الإنسان الأخير).

إن الإنسان الأخير لا يستطيع أن يمنح للقيم بعدا إنسانيا وعليه فالأخلاق تفقد قيمتها الإنسانية ويذكرنا نيتشه في هذا المقام بأنّ هناك فرقا واضحا في الإرادة البشرية بين الإنسان الأعلى والإنسان الاخير، حيث أكد لنا قائلا: "أنت شرير، إذن فأنا خير"[1].

ولا شك هنا نجده قد سار على منوال كوجيتو ديكارت (1596-1650) حينما اثبت عن طريق نزوة الشك بأنّ أساس ماهية التفكير هو جوهر الوجود البشري وبالتالي فالإرادة تتجلى في الإنسان القوي طالما أن القوة التي يدعو إليها نيتشه ليست القوة بمفهومها السياسي بل تلك القوة المجسدة في فعل الإرادة فتبدو القيم، الأخلاق والفن والفكر،... إلخ ذات تصورات فلسفية مرتبطة بحياة الإنسان، لا أن تكون ذات تصور عقلي مجرد بمنأى عن الواقع الإنساني.

لقد أراد نيتشه بإرادة القوة هذه أن يكون هناك تفكير فلسفي جديد يطرأ على جميع الموضوعات الفلسفية المتعددة وأن يكون الإنسانالأعلى حامل لواء هذه الثورة الفكرية والاجتماعية هذا ما طبع الحياة بمفهومها الأبولوني القديم، حيث صفاء الحياة والقيم والفنون تمثلت في إرادة الإنسان الضعيف المستكين فكان الأمر يقتضي عندئذ أن يثور نيتشه على مثل الجمود والخمول ويطمح نحو مرحلة الديونيزية[2] وخير من يمثلها هو الإنسانالأعلى (القوي) كونه يمثل الإرادة الإنسانية ولعل هذا التقسيم ما جعله يضفي على الحياة هاتين الفكرتين.

أراد نيتشه بفكرة إرادة القوة أن يشعر الإنسان بالحياة والقوة فيكون إدراكنا للوجود إدراكا حقيقيا فليس كما يخيل إلينا أننا نلفظ اسما أو نمتلك تصورا عقليا عنه، فكل ما يسعى إليهالإنسان هو أن يخضع كل أفكاره وقيمه وفنونه وإبداعاته إلى الحياة ولا يبتعد عنه، إن الوجود تعميم لفكرة الحياة والإرادة والعقل والصيرورة، ذلك أن الحياة تقويم ولكي يحيا الإنسان لابد له من أن يضع قيما وهذا التقويم نفسه هو الوجود أيضا[3].

[1]Alaine Graf, **Les Grands Philosophes Contemporain**, (Edition du seuil 1997, P23.
[2]Friedrich Nietzsche,**Crépscule,** des ideoles, Traduis Henri Flammarion, paris, 1985, P 107.
[3]عبد الرحمن بدوي، **موسوعة الفلسفة ج2**، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى،1984)، ص 514.

إن الحياة لا تستطيع أن تحيا على حساب حياة الآخرين لأنها هي الرغبة والنمو والتطور وبهذا التصور اعتبر نيتشه أن الحياة هي إرادة استيلاء على الآخرين، وهنا لجأ إلى تقسيم مبدأ القيم الأخلاقية: إلى أخلاق الارستقراطيين وأخلاق العاديين.

"ولما كانت إرادة القوة لا يمكن أن تظهر إلا بواسطة الكفاح فإنها تبحث دائما عن كل ما يقاومها"[1] يستشعرنا نيتشه هنا بأنّ هذه الحياة ليست رغدا وعيشا موفورا بقدر ما هي ألم مرير يتطلب من الإنسان الصبر والشجاعة والبطولة أمام محنها الصعبة، فلا يقوى على مثل هذه الآلام إلا الإنسان الأعلى القوي فهو القادر على مجابهة الصعاب والمشاكل عكس الإنسان الفاشل العادي الذي يخاف من قسوة الحياة وإرادة القوة في منظور نيتشه هي مقياس الحياة، ويتضح ذلك على مستوى القيم الإنسانية ومستوى الطبقات الاجتماعية.

كل ذلك تفصل فيه إرادة القوة فليس للحياة شانا ورفعة ـ على حد رأي نيتشه ـ غير درجة القوة وبالتالي فالقيمة هي أكبر مقدار من القوة بمقدور الإنسان أن يحصله ويستولي عليه بيد أن الأهم ليس في كمية القوة بل في كيفيتها.

يؤكد نيتشه في هذا الصدد أنه مهما تعددت مظاهر الوجود وتجارب الحياة فإنك لن تجد غير إرادة القوة فهي الدافع الحقيقي في النفس والعامل الجوهري في الجماعة والدولة ولعله هنا كما أشارنا سلفا متأثر بالفلسفة التطورية* عند داروين وإسبنسر .

لقد كانت فكرة التطور[2] لديه مختلفة كل الاختلاف عن تلك النظرة الداروينية والسبنسرية لأن هذه النظرة الأخيرة بقت مجرد تفسير بيولوجي علمي محض يهتم بمسألة التفسير العلمي والغائي، لكن نيتشه تأثر بهذا التطور على مستوى التفكير الفلسفي وقيمته الإنسانية في الحياة بصفة أعم.

إن التطور الحقيقي هو الذي يلامس حياة الإنسان ويتعقب كل لحظة تاريخية إنسانية لذا تراه يدعو إلى استبدال القيم الأخلاقية بتحقيق الحياة وتطورها ومن هنا نقد نيتشه شوبنهاور حينما أدى هذا الأخير الحياة إلى مبدأ الألم واعتبرها سلبية وهي مصدر الشرور جميعا وعليه

[1] عبد الرحمن بدوي، **المرجع السابق**، ص 514.

* الفلسفة التطورية (La Philosophie évolutionisme) اتجاه فلسفي انجليزي نسبة إلى الفيلسوفيين مهربرت اسبنسر (1820-1903) تشارلزداروينCharles Robert Darwin (1809-1882) وتقول هذه النظرية أن فكرة التطور لا تخص الكائنات فقط كما شاع عنها، بل التطور يطرأ على كل المناحي الحياة خصوصا الانتخاب الطبيعي البقاء للأصلح، وهنا نجد نيتشه قد تأثر بهذه الفلسفة ورآها بأنّها فلسفة تدعو إلى تطور الحياة وتجددها ولعل، هذا هو ما جعله يهتم بها أكثر فنجده في النهاية الامر من أنه يخالفهم في بعض المواقف في رأيه أنهم ركزوا على خصوصية الكائنات الحية.

[2] يمنى طريف الخولي، **فلسفة العلم في القرن العشرين**، (سلسلة عالم المعرفة للثقافة والفنون والاداب، الكويت، الطبعة الأولى، 2000)، ص 248.

فإرادة القوة[1] لا تسعى إلى مجرد الحياة ولا تكتفي بها بل تسعى أيضا إلى القوة أيضا، فإذا كان شوبنهاور[2] ينظر إلى الحياة نظرة تشاؤم فإنّ نيتشه ينظر إليها على أساس أنها نظرة تفاؤل وتجدد من قبل الإنسانالأعلى وما التصور الساذج السطحي إلا دليل على تلك النظرة القاتمة والفاشلة التي لا تعرف من الحياة سوى الخنوع والمهانة والفشل ولسوف تجد ذلك عند النوع الإنساني الضعيف العادي.

لقد كان هذا هو السبب الذي أدى بنيتشه إلى محاولة تجاوز الطرح الميتافيزيقي الكلاسيكي للقيم الأخلاقية وإعطاء تفسير فلسفي لها يخالف كل الآراء الفلسفية الأخرى ومن ثم استبدالها بإرادة الحياة فلا قيمة للأخلاق إذا هي لم تراع قيمة السلوك البشري وعلاقته بالحياة فيجب في اعتقاده أن نعدد من القيم الأخلاقية لأن الحياة في تطور مستمر فيشكل صيرورة دائمة.

وهنا تكون إرادة القوة لدى الإنسانالأعلى إرادة فعالة ومجدية إذا ابتعدت عن التصور المجرد حيث يجردها من طابعها السلوكي الواقعي.

إن إرادة القوة عند نيتشه هي تعبير أعمق عن إرادة الحياة فيسيرانها الطبيعي وامتلائها بكل المقومات الحضارية والإنسانية في شتى المجالات.

ينوه نيتشه بالذكر أن كلمة إرادة القوة لا تعني البتة مدلولا سياسيا كما فهم من غيره خصوصا عندما أعطوا مفهوم القوة عند نيتشه مفهوما سياسيا أراد به ـ في نظرهم ـ تقوية الروح العسكرية الألمانية، ومن خلال ذلك اتخاذ الحرب وسيلة لفض النزاعات والخصومات بين البشر.

لم يبق نيتشه صامتا أمام هذه التفسيرات وإنما رد عليها بمبررات فلسفية حين يقول بأنّ إرادة القوة هي متعة التفكير فحسب، لأولائك الذين يجدون فيها دعوة إلى الحياة، وبالتالي انتفاء إلى أية دعوة نحو العدوان أو تحريضا نحو تقوية الطموح الألماني .

كما أكد على كلمة "فحسب" يدل على شعوره بأنّه قد فهم فهما سيئا من قبل الشراح الذين لم يفهموا إرادة القوة حقيقة فإرادة القوة ينبغي أن تفقه على أنها طموح مستمر نحو مزيد من

[1]Friedrich Nietzsche, **Par de la le bien et le mal,** Traduit Par genevieve Bianquis Paris, union générale d'edition, 1988, P 178.
[2]Jean Granier; **Nietzsche vie et la verité**, (press universitaire de France 1971), P 55-56.

الامتلاء في الحياة فقط وعليه فإرادة القوة في اعتقاد نيتشه بعيدة كل البعد عن أي مدلول سياسي أو اجتماعي فالفكرة متعلقة بالذات الإنسانية لا بالدولة أو المجتمع[1].

بهذا المعنى قصد نيتشه أن إرادة القوة يجب أن تحل محل القيم الأخلاقية[2] لأن الإنسان يرفض أن يتموقع ضمن نطاق الأوامر والنواهي ويضع نفسه في قيم ثابتة مهما كانت طبيعتها.

فعندئذ يتخذ هدفا أكثر تضحية ونبلا وهو الطموح الدؤوب نحو مواكبة الحياة بكل ما تكتسيه من أبعاد حضارية وإنسانية والسمو بها إلى أقصى ما يصبو إليهاالإنسان ولعل نيتشه بهذا النشاط الحيوي قد فاق تصور الوجوديين أكثر، سيما في اهتمامه بالإنسان من جهة واهتمامه بالحياة من جهة أخرى على غرار الوجودية التي ركزت اهتمامها بالإنسان وتقديسه فحسب.

يتحقق كل هذا السعي بفضل إرادة القوة (La Volenté de puissance) فهي بهذا المعنى مرنة وفعالة وقابلة للتشكل ما يجعلها في نظره بديلا صالحا للروح الأخلاقية بوجه عام (إحلال التوجيه السلوكي محل التوجيه الأخلاقي السكوني).

إن الإقرار بفكرة القوة ووضعها محل الأخلاق ليس في رفض نيتشه للأخلاق رفضا مطلقا بل أن القيم الأخلاقية الإنسانية لا تكتسي أبعادا إنسانية إلا إذا اتضحت في السلوك الحركي النشيط ولا تبقى مجرد أوامر ونواهي مجردة، فإرادة القوة تستطيع أن تخرج القيم الأخلاقية وغيرها من القيم الإنسانية الأخرى من السكونية والجمود إلى مستوى التحرر والصيرورة طالما أن الإنسان كائن يتفوق على ذاته باستمرار.

وتغدو إرادة القوة حسب نيتشه هنا تقويم القيم الأخلاقية وربطها بالسلوك الاعتيادي وكذا أيضا إعادة بناء التفكير البشري حتى يتسنى له فهم القضايا الفلسفية فهما واقعيا يكون بمنأى عن ذلك التجريد المتطرف والمطلق الذي جمد طابع الحياة بشكل، لذا كان لزاما أن تكون إرادة القوة هي الخلاص من الجفاء الذي طبع الميتافيزيقا والوجود والمعرفة والقيم والأخلاق، والدين، ...إلخ.

فهي عندئذ تأويل (L'INTERPRETATION) لكل هذه المفاهيم وربطها ربطا وثيق الصلة بالتفكير الفلسفي الحيوي المتحرر من كل تعصب وسكون وانغلاق مذهبي نحو الوجود الحياتي

* وجهت على نيتشه انتقادات لاذعة في استعمال كلمة إرادة القوة خلال الحرب العالمية الأولى أيام الحكم النازي وفسرت على أنها دعوة صريحة لاثارة النزاعات والخصوم وتقوية الطموح العسكري الألماني في استعمال القوة كوسيلة للعنف والقسوة، لكن ما قصده هو إرادة القوة هي مبدأ تحقيق الحياة وامتلائها وليس أنها غاية ووسيلة للسياسة فقط.

[1] FriedrichNietzsche, **Ainsi Parlait ZaraThoustra**, Sigma , 1980.

[2] FriedrichNietzsche, **(Elément pour la Généalogie de la moral)**, P 14-15.

الديونيزي (DIONYSME) وعليه تتجسد إرادة القوة في دفع الإنسانالأعلى نحو السمو والعلاء في الحياة.

من هذا المنطلق لا يرضى هذا النوع الإنساني الراقي بالسكونية والثبات والانغلاق ولعلها في اعتقاد نيتشه حياة يرضاها الإنسان العادي.

إن النوع الإنساني لدى نيتشه يحب ألا يعرف الخنوع والفشل وإنما يسعى جاهدا نحو بلغو مرتبة الكمال كونها تدفعه إلى التحرر وفي إثبات وجوده على الدوام، إن مثل هذا النقد الصارخ من قبل نيتشه لا يعد نقدا من أجل النقد أو التهكم على نمط سقراط قديما إنما هو نقد راجع أساسا إلى أن هذه الموضوعات وعلى رأسها الأخلاق قد فقدت طابعها الإنساني الحياتي وطابعها الفلسفي الحر ناهيك عم ميز عصره من انحدار وسقوط في شتى مناحي الحياة.

فكل موضوع يتناول الباحث أو الفيلسوف، فيلسوف تجد فيه تلك النزعة العقلية الموروثة الغارقة في التجريد (ABSTRAIT) لأنها طبعت التفكير الفلسفي القديم وحتى الحديث فيجب على هؤلاء الأفراد أن يخلقوا قاعدة لسلوكهم في كل حال طارئة وهم بهذا المقام أجدر من غيرهم وأرفعهم شأنا.

لئن دعا نيتشه إلى الثورة والتجديد فإنّ ذلك ناجم عن ما ساد تلك الفترة من جفاء وجدب للإنسان وللحياة وهذا ممكن لهجة النقد الذي شكل جزءا هاما في تراثه الفكري.

فلاشك أن من يبحث في التراث الفلسفي لديه يدرك لا محالة أنه فيلسوف أراد لنفسه ألا يكون منطويا تحت لواء أي مذهب فلسفي من جهة ومن جهة أخرى تجد في فلسفته كل صفات المذاهب الفلسفية العظيمة الكبرى في تاريخ الفلسفة عموما التي ما انفك طوال حياته يقدم لها النقد وعدم الرضى بما تقدمه من مواقف متباينة.

بعد أن أعلن نيتشه عن التحطيم والهدم[1] للقيم السائدة في الأخلاق والفلسفة أراد ان يقدم لنا تقديما جديدا للقيم الجديدة التي يؤمن بها، ويدلي نيتشه هنا: بطرح تساؤلات عن معنى الخير، الشر والسعادة والقوة، ثم يبرر على ذلك بأجوبة وآراء تعبر عن موقفه الفلسفي إزاء هذه المفاهيم منوها بذل وضع تصور جديد لهذه القيم، من خلال فكرة (إرادة القوة التي أوثق صلتها بالإنسانالأعلى القوي).

[1] عبد الرحمن بدوي، **موسوعة الفلسفة ج2**، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى،1984)، ص 514.
* يذكرنا نيتشه هنا عندما يقسم الإنسان إلى طيب وشرير وطيب وضعيف بنظرية العقد الاجتماعي فهو يرى أن الإنسان شرير بطبعه بينما جون لوك يرى بأنّه خير، ولعلها نظرية فلسفية خاصة: بالتفكير السياسي بلغت شهرة في العصر الحديث اهتمت بنشأة الدولة ورأت بأنّها ناجمة عن إرادة إنسانية ملحة للخروج من المجتمع الطبيعي المأساوي.

ويتساءل نيتشه ما الخير؟ هو ما يجعل الإنسان بالقوة، ما الشر؟ هو ما يصدر عن الضعف، ما السعادة؟ هي الشعور بأنّ القوة وتزيد، تلك هي تساؤلات أراد ان يبين بها نيتشه نظرة الإنسان إليها وكيف يمكن أن تتجسد في صفة الإنسانالأعلى الذي يختلف في نظرته إلى الوجود والحياة عن مختلف نظرة البشر العاديين.

فإرادة القوة هي تقويم لكل هذه المفاهيم أي محاولة تجديد مفاهيمها رفق صيرورة الحياة عكس ما كانت عليه وهي كونها لازالت تحت وطأة التفسير الكلاسيكي، تدرج ضمن مذهب فلسفي وذلك بحسب نظرة كل فيلسوف ذا اتجاه معين.

كما يجيب نيتشه على الفلاسفة حينما لم يعط المعنى الجوهري لكلمة الإرادة بحيث جردوها من كل القيم الإنسانية التي من شانها أن تظهر عم يريده الإنسان من تحقيق أماني ومشاعر وعواطف وتضحيات، فكل ما يشعر به الإنسان يجب أن يرتبط دوما بمبدأ ٱلإرادة التي تمنح لنا الاستعداد النفسي حتى يتسنى للإنسان من اكتساب القوة لمجابهة المحن والمشاكل ولا يؤمن بالفشل أو الاستسلام فطغيان النزعة المادية والغلو في التفكير المجرد وتكريسه من قبل الفلاسفة على كل الأفكار والأشياء الموجودة في الحياة أدى إلى تراجع معنى الإنسانية وقتل كل ما فيها من نبل وخير وفضيلة وسعادة.

فالإرادة عندما ترتبط بالقوة تحدد لنا بفضل القيم الأخلاقية الإنسان الطيب والإنسان الشرير، ويؤكد لنا نيتشه أن هناك فهما صعبا لفكرة إرادة القوة من قبل الفلاسفة ونظرتهم إلى الحياة فلا تكون هذه الفكرة مجدة إلا إذا استطعنا أن تقضي على كل مظاهر الاستغلال والأنانية والشرور[1]. فعدم إرادة الإنسان أفضل من إرادة العدم.

كما رأينا بالتحديد أن نيتشه اعتبر إرادة القوة تجديدا لكل القضايا الفلسفية فهو يحاول أن يقدم قراءة فلسفية تأويلية لقضية الميتافيزيقا، الخلاق، الدين، الفلسفة، القيم،...إلخ، ألا وهي ربطها بالإنسانالأعلى (القوي) ومن ثم ربطها بالحياة أكثر لأن إرادة القوة تعطي الإنسان حافزا كيما يضحي من أجل الحياة وبالتالي فالإنسان هو إرادة القوة وإرادة القوة هي الوجود والوجود هو الحياة.

إن الاعتقاد الجوهري للوجود هو إدراك أن هذا الوجود سابق لماهيته وهذا ما لم تعالجهالميتافيزيقا بمفهومها الكلاسيكي ويرى نيتشه أنه يجب رفض كل التصورات القديمة

[1]FriedrichNietzsche**, Elément pour la Généalogie de la morale**, Traduit puor Patrick Wolling (Libraire générale, française 2000), P 36.

ويتساءل هنا: من هؤلاء البشر يفكرون بهذا النمط؟، ثم يجيب هنالك نوع واحد من البشر يفكر بهذا النمط خصوصا من يعانون قسوة العيش في الحياة[1].

ثم ينوه نيتشه بمسألة الدين على اعتبار أن الإله يجب أن يتخذ كمبدأ سببي فعلي* للإرادة المطلقة، وهكذا فالإنسان الضعيف لا يمنحه الإله القوة ومرد ذلك أن هذا الضعف والفشل يؤدي إلى أناس شريرين فلا يبقى لإرادة القوة أي معنى يذكر هنا.

النوع المستكين من الناس لا يراعي الأحوال النفسية والعواطف الإنسانية في إرادة القوة لذا يقبل على إسرار العنف وعدم الاحترام كل ذلك كما يؤكد نيتشه راجع إلى حياة الإنسان الأول الخالية من كل المعاني النبيلة والقيم الإنسانية السامية والابتعاد عن جوهر الحياة مكتفيا بذلك بتحقيق المطلب البيولوجي والخضوع كلية إلى التفكير العقلي المجرد.

وعلى هذا الأساس يلح نيتشه دائما على الاهتمام بالأحوال النفسية والميول والرغبات لأننا نتعامل مع الإنسان لا نتعامل مع الجماد وهو في ذلك يكون قد سار على منوال علماء النفس السيكولوجيين الذين يؤكدون على فكرة الشعور كشرط أساسي للحياة الإنسانية، فهذه الحالات النفسية هي أساس الإرادة التي تعتبر سندا لتفعيل عاطفة القوة[2].

إن إرادة القوة ليست مجرد حالة نفسية عادية توجد لدى جميع الناس بل لا تكون إرادة فعالة إلا بفضل الإبداع الناشئ عن قوة الخيال لدى الإنسان المبدع في شتى مجالات الثقافة، إن الإنسان يبدع شيئا ماديا لكي يشتغل به وهذا سر حقيقة الإبداع فلا تظهر قيمة الشيء إلا من خلال ما يؤديه من قيمة وفائدة في الحياة[3].

الإنسان هو في حد ذاته القوة الكامنة وعلاوة على ذلك فإرادة القوة تنجلي أكثر عندما يسعى بها الإنسانالأعلى نحو بناء الحياة بكل أبعادها الحضارية ومسايرة كل لحظاته الزمانية والمكانية وعدم الاكتفاء بالماضي، بل النظر إلى الحاضر والمستقبل فتكون الإرادة حقيقة حينما تقبل التغير لا الثبات والسكون ولعل فعالية هذا التغير أو الصيرورة تظهر في الإبداعات المتعددة فما تؤدي من خدمات للفن.

يحيلنا نيتشه إلى ضرورة فهم إرادة القوة على حقيقتها ومرد حسب مشاعر الإنسان الخير، فليس كل إنسان بوسعه أن يمنح إرادة قوته البعد الإنساني الساعي إلى خدمة الحياة

---

[1]Alaine Graf, **Les grands philosophes contemprain**,Op-cit, P 23.

* اشتهر أرسطو بفكرة مبدأ العلية (La Causalité) وقسّمه إلى علة صورية وعلة مادية وعلة غائية وعلة فاعلة، وأكد على العلة الفاعلة أي قدرة الإنسات على المساهمة في تفعيل الوجود الحسي المعنوي خصوصا ما يشهده في قيمة المنطق الصوري الذي يهدف به إلى ضبط آلية الفكر السليم، واشتهر أرسطو بفكرة المحرك الأول الذي لا يتحرك. واستعمله نيتشه في وصفه للإنسان القوي الذي يتمتع بهذه العلة، خصوصا في ميدان الإبداع في شتى مجالات الحياة.

[2]Alaine Graf, **Les grands philosophes Comtoporains**, p 23.

[3]**Ibid**, p 24.

والفن والإبداع، فهناك إرادة قوة تعمل على قمع وطمس المظاهر الإنسانية في الحياة، بل وتبحث على تجريدها من كل ما يمت لها من صلة بالتطور والنفع الحيوي.

بوسع كل إنسان أن يظهر إرادة القوة غير أنها في بعض الأحيان تؤدي لنا على حد تعبير نيتشه بصراحة إلى الانتحار سيما إذا ما استغلت على نمط الفوضى كما يذكرنا هنا أنا إرادة القوة بهذا الشكل هي مظهر من مظاهر العدمية* التي تجسدت في الحضارة الأوروبية في العصر الحديث.

في هذا المقام يحدد لنا مفهوم القوة إذ أنها تتعدى كل مظاهر العنف والظلم والقسوة والعرق، وعلى النقيض من ذلك فإرادة القوة هي التي ترغب في تحقيق الأخلاق الارستقراطية وليس في تحقيق الأخلاق بنمطها الاعتيادي المباشر على وتيرة الأوامر والنواهي

لقد أراد نيتشه بفكرة إرادة القوة أن تكون إرادة الإنسان الفنية، الإبداعية المحبة للحياة، إنها دعوة إلى إعادة بناء الإنسان من جديد، طالما أن الإنسان الأخير تتغلب عليه المعاناة، والقلق كونه لا يحتوي الإرادة القوية الحقيقية، وتبقى إرادة القوة بمفهومها الوجودي والفلسفي من نصيب الإنسانالأعلى حيث من شأنه أن يقوم القيم الإنسانية.

ويقوم مباحث الميتافيزيقا والأخلاق ومختلف الفنون حتى تغدو ففي نهاية الأمر عبارة عن ثقافة أصيلة، عندئذ يعطينا نيتشه مفهوما آخر ريثما يستبدل فكرة إرادة القوة بفكرة الإرادة الفنية، وهي تحسبها يكون الإنسان قد منح القوة بعدا آخر.

ذلك ما قصده في نظرته الفلسفية إلى كل المشاكل الاجتماعية وكيف يساهم فيها الفيلسوف محاولا إيجاد الحلول وأن يكون مشاركا في المعاناة التي يشعر بها الإنسان اتجاه هذه المشاكل المتعددة وكان حرص نيتشه أن تعكس المشاكل الاجتماعية لعصره ولمجتمعه من خلال تكريس التفكير السليم فيها، كما طغى على فكره الفلسفي النمط اليوناني القديم[1] نتيجة تأثره وولوعه به كثيرا.

وعليه ينبغي أن يبين الاتجاه العام الذي تتجه إليه حلول نيتشه لمشاكل المجتمع حتى نقدر على إيضاح العلاقة بين حياته وبين محيطه الاجتماعي.

تحامل على الاشتراكية بوصفها نطاقا لا يراعي تطبيق المساواة بين الأفراد لأنهم لا يشعرون بها حقيقة فهي مجرد تصور وشعار ريثما ينكشف أمرها من خلال السلوك الاعتيادي

* ينبهنا نيتشه في استعمال كلمة إرادة القوة (La Volenté de puissance) بأنّها القوة التي يمنح الإنسان الإرادة الفعالة في الإبداع، الذي يتجلى في تجليات الفن بكل انواعه الجمالية وهذا يعتبر ردا على تلك الدعاوي التي الحقت نيتشه حينما اعتبروا أن مفهوم القوة لديه كان يقصد بها تشجيع المد العسكري الألماني وهذا ينم عن عرقية متعصبة لشعبه ولدولته لكنه يرى أن فلسفته بعيدة عن مثل هذه الأحكام المسبقة التي اتهمته بأنّه يدعو إلى إحياء النازية استعمال القوة للتوسع والسيطرة.

[1] فؤاد زكريا، **المرجع السابق**، ص 108.

لديهم من مثل المواهب وروح المبادرة، إقرار المساواة في كل الحقوق والواجبات، عدم وجود تكافؤ الفرص، تدخل النظام السياسي في شؤون الحياتية للأفراد مما يعيق الشعور بحريتهم فيجبرهم على الجمود والتسلط والقمع وتشبه انتقاداته تلك الانتقادات الموجهة إلى الاشتراكية كنقيض للرأسمالية، وإنما يزدري ذلك النمط الحياتي الممارس من قبلهما في تقييد حرية الإنسان وتثبيط لإرادة القوة فيه.

كذلك الشأن ينطبق نقده أيضا على الرأسمالية خصوصا عندما تستغل أخلاق الإنسان وتشجيع ألوان الطبقية في المجتمع الواحد، فكل تصور منهما يريد أن يحقق التوازن الحقيقي للمجتمع ويظن ذاته بأنّه جدير بتحقيق سعادة الإنسان وإعلاء شأنه في الحياة وبالتالي فإنه لا مناص منه أن يعلن نيتشه أن التفاوت أو المساواة هما مجرد تصوران تجريديان ثبت فشلهما في الحياة وذلك عند ملاحظة سلوك البشر في الحياة من انتقاص الكرامة الإنسان ولوجوده ومن تراجع لمستوى قيمه واحتقار لحياته.

لذا من الضروري أن يثور الإنسان على مثل الأوضاع المزرية ويكافح بفضل إرادة القوة من تجاوز النظرة القاسية نحو حياة أكثر تحضرا وإثباتا للإنسان القوي إن هذه القساوة والفضاعة تنطبق على الإنسان الضعيف الأخير لأنه يرضى بمثل هذه الأوضاع الاجتماعية.

إن الإرادة هي طموح الإنسان[1] وهذه الإرادة من أعظم الانجازات البشرية من خلال أعمق التجارب إذا كانت متضافرة، كل ذلك يحدث في التاريخ البشري.

بهذا المعنى تكون إرادة القوة ساعية نحو التقدم ولا يتحقق إلا عن الحاجة الدائمة لأن الإنسان إذا وصل إلى حد الاكتفاء فلن يتقدم أبدا بل يكون أكثر خمولا وانتكاسا، فنيتشه يحث الإنسان على بذل قصارى جهوده نحو كسب المزيد من تحقيق طموحاته وأمانيه وهذا سر إرادة القوة فيه فالحياة إذا ما تأملناها جيدا نخلص إلى معنى جوهري بأنّها هي لي حد ذاتها مشكلة تحتاج منا دائما مواكبتها والاطلاع على ما يجري فيها أحداث متغيرة ومتباينة .

كما تعرض نيتشه إلى انتقادات من قبل غيره في أنه بين ميلا واضحا نحو تفضيله للتفاوت على المساواة وبالتالي فهي دعوة منه إلى إدعاء نحو الطبقة الارستقراطية والتقليل من شأن الفئة الأخرى من المجتمع ورغم وعيه بشقاء وبؤس وحرمان هذه الطبقة التي تناضل من أجل عيش محترم وشعور بحرية وكرامة.

لعل هذا الاستغراب والدهشة ما دفع تضارب آراء الفلاسفة وحتى الباحثين في هذا التناقض الفكري، ويبرز نيتشه هذا الأمر أن طبيعة البشر واحدة منذ الفطرة فتبرز لنا فيما بعد

[1]Friedrich Nietzsche, **Par dela le bien et le mal**, TraduitPar genevieve Bianquis Paris, union générale d'edition, 1988, PP213-215.

في نمط اختلاف مستوى القدرات والأحوال الشخصية والمتغيرة، مما يحول وجود نمط إنساني عام نعامل به كل الإنسانية على حد سواء.

يؤكد نيتشه أن الوجود يسبق الماهية فهو من شأنه يبين لنا نمط الإنسان الحقيقي الذي يحب الحياة ويسعى إلى تأصيل وجوده فيها جراء إبداعاته المتنوعة وتفعيل قيمه وفكره وتاريخه فلا ينساق دائما وراء أحكام مسبقة أو العيش وفق تصورات مذهبية مجردة لا تعدوا هذا الإنسانإلى الحياة والعمل من أجلها، بل تكتفي فقط أن الماهية تسبق وجوده لذلك لم يفهموا معنى الإنسان ومعنى الحياة.

فيجب أن يخضع كل ما له علاقة بالإنسانإلى الحياة وحدها، لأننا لا نقدر أن نمتلك فهما لطبيعة الأمور إلا إذا تعقبنا مجرياتها في الحياة، يقترح نيتشه تصنيف الإنسان فالإرادة هي وحدها تكشف لنا حقيقة الإنسان القوي والإنسان الأخير وبهذا السياق يظل الإنسان القوي يتصف بالفردية دون غيره، حيث يتفاعل مع التطور الاجتماعي تدريجيا وينعم بالحرية وهذا الإنسان القوي يغير النظام السياسي من الطغيان إلى العدل الاجتماعي والتفاوت المصطنع إلى التفاوت طبيعي والمساواة إلى اللامساواة.

ولسنا نحسب نيتشه من دعاة التفاوت ـ كما زعم منتقديه ـ إنما هو ينشد في الأخير تلك الروح الإنسانية التي قلما نألفها في الكثير من البشر، وإنما نألفها في الإنسان الذي أحبه نيتشه على نمط اليونان أصحاب الفكر المتحرر، وعلى نمط الحياة التي عاشها هو أين تشكلت موسيقى فاجنر عشقه للفنون على اختلافها ممزوجة بألم شوبنهاور.

يتعمق نيتشه أكثر في تحديد مفهوم إرادة القوة حينما يربطها بالوجود الإنساني، ويرى أنها تتجسد في الحياة في ثلاثة مناحي وهي: المعرفة، الفنون، والاجتماعات السياسية والاجتماعية[1].

الشرور لا تتوفر لدى كل الناس لأن هذه الصفات التي بوسعها أن تحدد لنا طبيعة إرادة القوة[2]، حيث هذه الأخيرة تجعل الإنسانأكثر تعبيرا عن قيمه وأخلاقه فليس بوسع كل امرئ أن يمتلك إرادة كهذه لذا يدعونا نيتشه إلى التمييز بين التصور المثالي للإرادة وبين التصور الوجودي لها.

ذلك أن المثالية (Dualisme) في نظره لم تعبر إطلاقا عن الإنسان ولم تدع غلى تفعيل إرادته في وضع تقويم للقيم عامة، وللأخلاق والفن خصوصا.

[1]Friedrich Nietzsche, **La Volenté de puissance**, Tome I, Traduit Genevieve Bianquis, (Edition, Paris) P343.
[2]Vatimo agianni, op-cit, P 88-89.

على العكس من ذلك فالتصور الوجودي لها هو ما يراه نيتشه الأجدر بتحديد المعنى الجوهري لمعنى إرادة القوة، هذا نتيجة ما كان نيتشه يراه مجسدا في فكرة العدمية (le Nihilisme)، حيث يرفض كل إرادة بشرية تؤيد تلك العدمية التي سادت عصر الإنسان الحديث وبحسب وجوده وقيمه وتاريخه، فهو لا يرفض العدمية كتصور وإنما يرفض العدمية السلبية (le Nihilisme Négative).

فالعدمي بهذا المعنى الأخير هو ذلك الذي يرى أنه لا طائل ولا جدوى من أي شيء والأفضل هو الخمول الهادئ وعدم الإرادة أفضل من إرادة العدم، ويلقب نيتشه هذا العدمي بالإنسان الأخير (Le dernier Homme) وهو الذي أدرك زيف العالم المفارق وتحرر ممن إكراهه ولكنه عاجز عن إبداع قيم جديدة فيعيش في العدم المحض.

فالإنسان يبقى وحيدا في الحياة بدون هدف خال من القيمة والمعنى، خلف هذه العدمية السلبية توجد العدمية الفاعلة (le Nihilisme Efficacité)* فلا تكون كذلك إلا بتحقيقها والدفع بها إلى حدودها القصوى، ويعتبرها إيجابية ولا يتردد في الإعلان عن انتمائه إليها.

ولا يمكن أن نفهم إطلاقا أن نيتشه يعد من دعاة إنكار العدمية بل كما قلنا هو لا يحبذ تلك الأشكال المرتبة عنها.

العدمية التي لا تخلق لنا آفاقا في الحياة هي بلا شك إعلان عن موت الإنسان والحضارة وهذا ما لاحظه في الانحطاط الذي طرأ على الدين والميتافيزيقا والفلسفة والفن والأخلاق والقيم،... إلخ في العصر الحديث.

وتتعمق إرادة القوة أكثر عندما تعلي عن مكانة الإنسانالأعلى فهي كما يرى نيتشه تحدد لنا: النمط البشري، لأن الإنسانالأعلى هو صانع لقيمه ووجوده باستمرار على غرار الإنسان العادي تجده راض عن تلك الأوضاع فالأهم لديه أن يعيش في طمأنينة وسكينة وهدوء تام، فلا نعرف عندئذ أي معنى نصف به هذه الإرادة البشرية.

كل هذا يفسر لنا مفهوم نيتشه للعدمية وكيف ينظر إليها فالإنسان الأعلى تتجسد فيه العدمية الفاعلة التي حبذها نيتشه في محاولة تقويم للقيم، تقويم بناء الأخلاق وتقويم الفكر الفلسفي والدين، أي: إعطاء معنى حداثي لمعنى العدمية فنعلن على هدم العدمية السلبية بالعدمية الفاعلة.

لذا أعلن نيتشه عن نفسه بأنّه أكبر عدمي* في أوروبا وتشكل المعرفة، الفنون، الاتجاهات السياسية والاجتماعية عصب إرادة القوة في الحياة[1].

ينبهنا نيتشه أن إرادة القوة لدى الإنسانالأعلى تتعدى ذلك المفهوم السيكولوجي[2] لدى علماء النفس فهي عميقة المعنى أكثر من أن تكون مجرد حالة نفسية شعورية يشعر بها كل إنسان عادي، وهي تتجلى في الوجود الإنساني لذا اقترنت بقدرة الإنسان على الإبداع ومسايرة الحياة.

لذا حاولت النازية أن تصور نيتشه بأنّه فيلسوف متعصب لقوميته ودعوته إلى الحرب لفض كل النزاعات بين بلده وبقية البلدان الأخرى لضمان سيادة بلده وإثبات تفوق الجنس المنتمي إليه على سائر الأجناس البشرية، وقدموا صورة لمفهوم إرادة القوة عنده على أساس أنها إرادة جسدت في الشعب الألماني وحده، وبالتالي تبريره لاستعمال العنف لاسترجاع الهيبة والسيادة.

لا شك أن نيتشه كان يناشد الحرب خصوصا في أنها تثبت في الإنسان روح القوة والمجد ولم يناصر الحرب ذاتها، وإنما ينا صر أخلاق معينة والحرب هي التي تنميها في البشر والسلم الطويل يقضي عليها ويقتل في الإنسان المروءة والشهامة والإقدام.

لقد كان نيتشه طوال حياته يرفض التعصب والعرق ويراه أكبر عقبة أمام الاختلاط بين الأمم الأوربية الأخرى، لأنه رأى ذلك مجسدا في ألمانيا حيث الكراهية والحقد والتعصب وأتهم في هذا السياق بأنّه يمجد السيادة الألمانية في سيطرتها العسكرية وقد أبدى في كثير من الأحيان بأنّه يفضل الثقافة التنويرية الفرنسية على ثقافة بلده وهذه شهادة حثه على أنه لم يدع إلى استعمال القوة في نطاق الحرب وإنما اعتبرها إرادة بشرية خالصة.

لم تكن آراء ثابتة إزاء الحرب فقد كانت مشوبة بالتناقض البارز فتارة تراه يدعو إلى الحرب من خلال إبراز مكامن القوة لدى الإنسان من جهة، ومن جهة أخرى أن الحياة في حد ذاتها لا تستقر على حال واحدة أي هناك سلم وهدوء ثم ثورة وحرب إضافة إلى ذلك تصادم في بعض الأحيان بين المواقف السياسية كأن تكون الدولة تدعو إلى استعمال السيطرة والقوة بهدف الاستيلاء والبطش على غيرها فهنا تلجأ الأخرى إلى الدفاع عن نفسها واسترجاع حقها وكرامتها من القوة يعتبره نيتشه دفاعا عن كرامة الإنسان.

* نيتشه لا يرفض فكرة العدمية كمفهوم بل يرفض تطبيقها حيث تجلت في الحضارة الغربية الأوروبية وعليه فيقول: "إن العدمية انواع ويركز على العدمية الفاعلة باعتبارها نهضة جديدة لكل المقومات الحضارية ومنها ظهور الإنسان الأعلى (القوي) الذي يعيد للحضارة الحديثة مكانتها الإنسانية".

[1]Jean Granier; **Nietzsche vie et la vérité**, p 69.

[2]Friedrich Nietzsche, **La volenté de puissance,** Tome II, p 208.

وليس هناك ظلم وتعسف ونهب كما طبع الحديث ومن جهة يدعوا نيتشه إلى ضرورة السلم والهدوء في دوله ما، فإنها تكون عرضة على مر الأزمنة، إلى الكثير من الطمع والشجع لدى غيرها من الدول القوية وفي هذا السياق تفهم نصوص نيتشه على أنها نصوص تمجد العرق الألماني وأن نيتشه يفتخر بالنازية العسكرية الألمانية.

وكما تبين هنا إن الغاية من الحرب ليس في قتل الإنسان والتنكيل به بقدر ما هي دعوة إلى تحفيز الهمم وتمجيد لصفات الرجولة والصلابة والتي يجب أن تجسد في الإنسانالأعلى.

فالحرب عند نيتشه تبين لنا طبيعة الإنسان الخير من الإنسان الشرير[1] وهذا راجع إلى الظروف التي يعيش فيها الإنسان فهي بوسعها تكشف لنا: الحالات النفسية والنوايا الناجمة عن القيم الأخلاقية فالتسلط والجبروت السياسي وتحقيق المآرب الشخصية هي من صنع الإنسان الفاشل الشرير، عكس الصفات النبيلة القائمة على مبدأ إرادة القوة حيث تعلي من مرتبة الإنسان ويكون لي نظرا لطليعة من المجتمع ذلك الإنسان الفاضل.

ولعل نيتشه هنا متأثر بالروح اليونانية في حياتها السياسية والاجتماعية والفكرية، سيما تلك المرحلة الديونيزية (Dionynisme) باعتبارها مرحلة النضج الفكري الفلسفي الذي أحبه نيتشه ودعا في أكثر من مرة وتكريسه وخلقه في حياة الإنسان الأوربي الحديث.

إن عدم وجود مثل هذا الشبه اليوناني في اعتقاد نيتشه هو ما أدى بالإنسانية إلى العصر الحديث إلى الانهيار في كل مناحي الحياة ودعوته الدؤوبة إلى تكريس إرادة القوة في شخصية الإنسانالأعلى، لدليل على شعوره بالمرارة وحدة النقد الموجه إلى مقومات عصره.

قصد نيتشه بإرادة القوة تقويم القيم الأخلاقية وربطها بالسلوك البشري حتى نتمكن من معرفة الغاية منها وأيضا تحديد معنى إرادة القوة وكيف يمكن تجسيدها في الإنسانالأعلى، لأن نيتشه يفرق بين إرادة الإنسان العادي وهي إرادة نألفها بشكل عادي عند عامة الناس وبين إرادة الإنسانالأعلى وهي إرادة تتجاوز الطابع السكوني للحياة وتجعلها ذات بعد إنساني وحضاري ينجم في الإبداعات[2] المتنوعة حيث تعطي للحياة تجددا وتطورا ولا تكتفي إرادة القوة بمحاولة تجديد الأخلاق وإعادة بناء القيم من جديد فحسب بل تسعى إلى تغيير نظرة الإنسانإلى الدين وبناءه بناءا أكثر تطورا وتفعيلا لحياة الإنسان.

يعترف نيتشه بعقيدة من العقائد الشائعة فكان نقده أكثر حدة للدين لأنه مشوب بالأخطاء ويحيلنا نيتشه إلى نقده للديانة المسيحية واليهودية فهي ديانة لم تهتم بالإنسان أطلاقا وإنما أساءت إليه وإلى الحياة بصفة أشمل.

[1]FriedrichNietzsche, **Ainsi Parlait ZaraThoustra**, 1880, P 241.
[2]Alain Juranville, **La philosophie comme savoir de L'existance**, (Volume I l'alterité presse universitaires de France 2000), P 146.

لذا أرجع نيتشه كل الشرور أو بالأحرى تراجع القيم[1] والأخلاق ولاندثار قيمة الإنسانإلى الدين وما نجم عنه من أشكال التسلط واحتقار للوجود الإنساني.

لقد أراد نيتشه بإرادة القوة هنا: إلى تشجيع الإنسانالأعلى فهو الكائن القادر على استرجاع قيمة الدين بعدما أحيا قيمه وأخلاقه وحياته ويسمي هذه الإرادة بالعود الأبدي (LeRetour eternel)* بمعنى أن الإنسان يرجع إلى أصوله القديمة التي نشأ عليها ويذكر نيتشه الأصول اليونانية القديمة حيث صفاء الروح والنضج الفكري الفلسفي والحركة الدائبة للحياة.

من هنا يبدو لنا أن نيتشه متأثر أشد التأثر بالفكر اليوناني فيرجع بالإنسانإلى تلك المرحلة القديمة التي سبقت السقراطية ألا وهي المرحلة الديونيزية، إن الروح الدينية في رأيه تفتقر إلى كل فهم للقوانين الطبيعية وما هي إلا امتداد للتفسير البدائي القائم على السحر والخرافة.

فالروح الدينية تتناقض مع الروح العقلية العلمية فالأولى تفسر كل شيء من خلال قوى وإرادات واعية والثانية تفسر كل شيء طبيعيا أي على نحو مستمد من الروح المنطقية العلمية لا من تشبيه الحوادث الطبيعية بما يجري داخل الذات الإنسانية الواعية.

كما نصادف عنده أن الأحوال الشخصية تختلف لدى الجميع، فكل إنسان له شخصيته الخاصة به لا تشبه شخوص الآخرين ممثلا المتدين يؤمن بالوحي اعني أن تمت أفكار تهبط إليه من مصدر يعلو عليه فيكون ذهنه مجرد أداة تتلقى هذه الأفكار سلبيا فقط.

ويرى هو أن هذه هي المشكلة الكبرى في الدين وأية ديان هالا وتجد فيها من يدعي بأنّه على علم بخبايا النفس ولا شك أن المرء يضفي على راية مزيدا من القوة إذا أرجعه إلى الوحي ويجعله بعيدا عن الشك والنقد حتى يصبح مقدسا (Sacrale)[2].

ويرى نيتشه أن المسيحية واليهودية أحطتا عن قدر الإنسان في العصر الحديث، وذلك راجع بالأساس إلى الأساليب المنهجة من قبل القساوسة والرهبأنّ جاءت منافية لروح الأمن والسلم، التي أتى بها المسيح الإنسان العفيف الطاهر، لكن هؤلاء دنسوه بالآثام والخطيئة ويشبه نيتشه في هذا الصدد الطرح الوجودي وخاصة سورين كيركجار (soren kierkeggarad)

[1]Friedrich Nietzsche, **La Volenté de puissance,** Tome II, p 284-285.

* فكرة العود الأبدي (Idée Le Retour eternel) لها تاريخ طويل في الفلسفة وأصولها ترجع إلى عهد اليونان القديمة حيث قامت على أساس اسطوري لا علاقة لها بالمنطق أو العلم واحتلت أهمية كبيرة في الفلسفة اليونانية وظهرت بوادرها عند اكسيمندريس هيراقليطس، انيادقليس والمغزى من هذه الفكرة هو أن حوادث العالم تتكرر مثلما تتكرر فصول السنة بعد أن تتم دورتها واستعملها نيتشه بأنّ تاريخ العصر الحديث يعود إلى سابق عهده وهو عصر اليونان.

[2]د. فؤاد زكرياء: سلسلة نوابغ الفكر العربي، نيتشه، ص 132.

(1813-1855) الذي رأى بأنّ القلق (LANGOISE) الدائم إنما ناجم عن فكرة الخطيئة[1] ولابد من العودة إلى المدرج الديني لإزالة هذه الحالة النفسية المتأزمة.

لكن نيتشه هنا في انه ساخط وناقم عن الديانتين (المسيحية واليهودية)، ولابد في اعتقاده أن يعيد الإنسانالأعلى بناء الدين[2] ويسترجع ثقته بنفسه ويستجمع في نفسه الشجاعة والبطولة حتى يتمكن من القيام بتلك الخطوة الحاسمة التي يصبح فيها السير الأوحد للعالم.

هنا تبدوا فكره العود الأبدي متجسدة من خلال نقد نيتشه للروح الدينية بوجه عام ونقده للمسيحية بصفتها الديانة التي مثلت عصره وتعلقه بالحياة اليونانية فهي ارفع بكثير من نمط الحياة المسيحية: ذلك لان العقائد اليونانية لم تقف في وجه نمو القوى الطبيعية للإنسان بينما كانت اليهودية والمسيحية عكس ذلك تقف حائلا أمام نمو قواه الطبيعية.

ويعيب نيتشه عن المسيحية بأنّها تهتم بالمشاعر[3] أكبر مما تهتم بالعقل أي كانت تمثل رد فعل على الفلسفات السابقة عليها، حيث طبعت العصر اليوناني فالفضائل المسيحية ليست انتصارا للعقل على المشاعر كما قال اليونانيون بل تنبع هذه المشاعر المسيحية من انفعالات معينة مثل "حب الله" و"خشية الله" و"الإيمان بالله" و"الأمل بالله" ومثار الإعجاب لدى نيتشه هنا هو ما يعرف لديه تعلقه باللامعقول (Inrationale) وهو ما يعرفه الجميع عنه.

لم تروق لنيتشه جميع الأديان الشائعة، و ذلك لأنها لم تحترم الإنسان والحياة، فمثلا المسيحية وما فعلته من تصرفات لا إنسانية، في حق العقل البشري حيث كبّل العقل عن التطور فنجم الانحطاط و السقوط، و تراجع مستوى الإنسان، كل ذلك في نظره راجع إلى الدين الذي لم يلعب الدور المنوط في مساعدة الإنسانية على الرقي بل على العكس من ذلك أساء إليه بكل قسوة و جبروت.

إن الاقتراح الذي جاء به نيتشه في الفترة الأخيرة من تفكيره الفلسفي بما يمكن تسميته "العود الأبدي" كونها تفي بكل الشروط التي افتقرت إليها كل العقائد الشائعة. و لم يكن نيتشه في نظر البعض بأنّه يحتقر الدين أو يسيء إليه. بل أنكر كل التصرفات السلبية الناجمة عن طقوسه، وسلوك القساوسة و الرهبانّ. و لعلّه هنا ناقم على المسيحية باعتبارها ديانة عقائدية طمست كل القيّم الإنسانية السامية، و يحمّل نيتشه بوجه خاص على فكر الخطيئة[4] في المسيحية، فالإنسان و الطبيعة أبرياء، و الخطيئة وهم ناشئ عن انحراف نفسي، حيث تعاقب الذات وتؤنبها تأنيباً شديداً .

[1]FriedrichNietzsche, **Elements pour la Généalogie de la morale**, Op-cit, P 174.
[2]M.S.Silk and J.P.Stern, **Nietzsche of tragédy**, (Cambridge university press 1981), P 02.
[3]FriedrichNietzsche, **Elements pour la Généalogie de la morale**, Op-cit, P 248.
[4] Friedriche Neitzsche, **Humain trop main** Tome I, Traduit Robert Rovin, (Edition Gaillmard, 1968), P123.

إن فكر العود الأبدي ترجع في كثير من تفصيلاتها إلى تعاليم فلاسفة اليونان، خصوصاً الفلسفة المادية الطبيعية كأوّل مراحل التفكير الفلسفي اليوناني، و اختلاف الآراء الفلسفية في تفسير أصل الكون وفق عناصره الأربعة المهمة (النار، الماء، الهواء، التراب)، و يعتبر نيتشه فكرة العود الأبدي مجسّدة في النظرة المتناقضة للوجوديين صيرورة هيرقليطس، و ثبات بارمنيدس.

لقد نسب نيتشهإلى نفسه هذه الفكرة و رأى أنه أول من نادى بالعود الأبدي لأنه أراد أن يعيد الإنسانإلى ماضيه الأول، و خاصة الأصول اليونانية ناهيك عمّا ساد العصر الحديث من تدني شامل لكل المقومات الإنسانية و الحضارية، فقد كشف عن نتائج هامة للقول بالعود الأبدي، و اختلت الفكرة من فلسفته الأخيرة موقف الصدارة، كما يرى هو أن الفلسفات اليونانية لم تستخلص لنا أية نتيجة أخلاقية سامية، أو بداية عقيدة جديدة، و بالتالي بدا الطرح الميتافزيقي مسيطرا على فكرة العود الأبدي عند اليونانيين، و لم تبرز لنا نظرية فلسفية هنا تتحدث عن مفهوم العالم من الناحيتين الأخلاقية و الدينية معاً.

فالصورة التي يرسمها نيتشه لفكرة العود الأبدي، تختلف كلّ الاختلاف عن التصور اليوناني الميتافزيقي لها. ومنذ ذلك الحين ربط فكرة العود الأبدي بالمجال الأخلاقي في نظرته إليها، و نقده للدين. لقد كان يسعى في حياته إلى محاولة خلق إرادة قوة تشمل كل مناحي الحياة، و منها يكرّس فكرة العود الأبدي و يصغى عليها تفسيراً علميا فلا تعود عندئذ مجرد تفسير ميتافزيقي كما عند اليونان، يفضي هذا التفسير العلمي إلى أنّ الكون متناه و محدود، و بالتالي تتميز الرّوح العلمية عن الرّوح الدينية، فنعتقد أن القوة هي دائما لا متناهية. فالقوة من ناحية المبدأ هي أبدية، لكن من ناحية النتيجة ليست أبدية بل نسبية.

إن التفسير العلمي أيضا إلى أن يكون الزمان لا متناهياً بمعنى : أن تظل هذه القوة تمارس فعلها بلا انقطاع و يكون الكون قد أتم دوره من دوراته، و تظل هذه الدورات تتكرر إلى الأبد خلال الزمان اللامتناهي. ففكرة العود الأبدي تعتبر من النتائج الرئيسية للمذهب الآلي، بل هي نتيجة الفلسفية الكبرى، كما يقول رلي Rey[1]، فيكون العالم في المذهب الآلي مجرد حالات متكررة لا متناهية، فتعريف الآلة هو أنها ما يؤدي وظيفته بشكل دوري منتظم، بحيث يعود إلى تفسير الحالات التي مرّ بها دون أي تغيّر يحدث، و نجد أن المذهب الآلي يفضّل التفسير الحتمي (الآلي) على التفسير الغائي، و إذا كنّا قد لاحظنا التفسير العلمي لفكرة العود الأبدي لنيتشه، هو أن الوجود يقوم على فكرة الثبات من جهة، و من جهة أخرى يقوم على فكرة الصيرورة و التغيير.

[1]Abel Rey, **Le retour eternal et la philosophie de la physique**, Paris 1927, P 14.

إن العود الأبدي هو خير تعبير عن خلود هذه الحياة، و بالتالي الرد على تلك النظرة المتشائمة من قبل البعض علن الحياة، و حتى فكرة العود الأبدي، فمن هنا نتذكر مدى تأثير فكرة العود الأبدي في نيتشه، و تلك الأماني التي أرادها في هذه الفكرة و هي خلق قدرة بشرية اؤمن بالأرض و تكافح فيها كفاحا بطوليا، كل ذلك يكون –في اعتقاده- بمنأى عن التصور الميتافزيقي التجريدي الذي قتل حياة الإنسان، حتى أصبح ينظر إليها نظرة تشاؤمية لا تقوى على التقدم . وبالتالي إعادة كل المقومات الإنسانية و الحضارية بغية التكيف مع الحياة و مسايرتها في كل لحظاتها الزمانية والتاريخية.

المبحث الثالث: القلق عند كيركجارد والخطر عند نيتشه.

أكد بعض الباحثين في التراث النيتشوي أن هناك مفهوما أكثر تعبيرا ووجوديا للإنسان فضلا عن ذلك فهو قد أعاد الاعتبار لهذا الكائن من خلال تصنيف الإنسانإلى إنسان عاد وإنسان قوي وراقي تحدده الإرادة القوية الفاعلة في صنع القيم والأفكار وتجاوز السكونية القاتلة التي طبعت الحياة الماضية نتيجة استفحال التفكير العقلي المجرد منذ نشأة التفكير الفلسفي ودعوته إلى ربط إرادة القوة بنموذج راقي من الإنسانية فيها كل التطلعات نحو امتلاك تصور حيوي لمعنى الإنسانية والحياة، ويتم ذلك بفضل امتلاك الإنسان كامل حريته في ذاته وفي حياته، وأمام غياب مثل هذه التصورات الوجودية للإنسان، وكثرة المشاكل والهموم والقلق والمعاناة التي يشعر بها الإنسان نتج عن ذلك تراجع مستوى القيم والفنون والأفكار والدين، لذا كان لابد من بعث الحياة من جديد وخلق إرادة القوة في الإنسان الساعي نحو التقدم والبناء، الذي يعرف كنه الحياة بمعناها الجوهري.

من هنا رأى بعض الوجوديين أن هناك موقفا مشابها بين فكرة القلق[1] عند كيركجارد وبين فكرة الخطر عند نيتشه، فالقلق يراه كيركجارد خير تعبير عن عدم تحدد ماهية الإنسان لأنه يمثل الحالة التي تتفتح فيها أمامه كل آفاق عديدة قبل أن يستقر على واحدة منها.

أما الخطر والسير في الطريق أي: الإنسان الحقيقي هو الذي يسير في الطريق أي هو الذي يحاول دائما أن يترك حالته السابقة ليتوجه إلى حالة تعلو عليها، اما الذي يقف حيث هو ولا يمارس الشعور بالخطر فلم تتحقق إنسانيته بعد، ويطلق عليه نيتشه اسم "الإنسان الأخير" (Le Dernier Homme).

وهنا يكون نيتشه قد بدأ يتحدث بعمق عن ما هو الإنسان في نظره وكيف يكون؟، ويمكن تفسير قوله بالإنسانالأعلى (Surhomme) على أنها دعوة إلى تجاوز تلك الماهية الثابتة وحشد القوى الخالقة للإنسان حتى يعلو على ذاته دواما.

وفيها تفسير نحو فكرة العود الأبدي وينوه نيتشه قائلا: "كي تجني من الوجود أسمى ما فيه عش في خطر"[2]، هذه رغبة تجعل الإنسان يطمح دوما في تجاوز ذاته بذاته.

إن هذا التشابه بين كيركجارد ونيتشه هو أن كليهما يرفض سطوة العقل أي: ذلك التفكير المجرد الغالب على قضايا الفلسفة، فقد ثار كيركجارد[1] على فلسفة الفيلسوف الألماني فريدريك

[1]Sorén Kierkeggard, **Traité du désespoir,** Traduit Par knud ferlov et Jean claud Gateau, collection les essais, Gaillmard, Paris, 1849 , P P 09-10

[2] عبد الرحمن بدوي، **موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني**، ص 516.

هيغل (1770-1831) كونه ذا اتجاه نظري جاف لا يترك مجالا لانفعالات النفس البشرية، وهذا يتمشى مع الرومانتيكية كونها ذاعت في عصر التنوير الأوروبي*.

والوجودية تعتبر هذا النمط من المنطلقات الأساسية للفكر الفلسفي الحديث والمعاصر لأن خير ما يمكن معالجة به هموم الإنسان ومشاكله هو إمكان تغيير منحى الفلسفة من التفكير الماهوي (الحقيقي) نحو التفكير الوجودي، فليس الماهية تسبق الوجود كما زعم الفلاسفة القدماء بل الوجود سابق للماهية.

وبالتالي يصير الإنسان كائنا حرا بذاته لا تعترضه عوائق تحد من الطابع العام لحريته وهو ما يمكن التعبير عنه إننا نعرف أولا أن الشيء كائن وبعد ذلك نعرف ما يكونه، لذا جاءت الوجودية مخالفة تماما لكل المذاهب الفلسفية السابقة.

في المقابل يعترف كيركجارد بطرق التفكير الوجودية التي تنفذ إلى باطن الأشياء، فالمشاعر النوعية الخاصة لأي فرد لا يمكن أن تفهم إلا وجوديا، كذلك الشأن بالنسبة لنيتشه فهو لا يحبذ إطلاقا التفكير المجرد على اعتبار أن العقل استعمل استعمالا سيئا لا يمكن أن نصفه حسب نيتشه إلا وصف الانحطاط والسقوط والذبول حيث انعكس على كامل الحياة الحديثة والمعاصرة.

فهذه الميزة لا يتشابه فيها نيتشه مع كيركجارد فقط بل مع الفلسفة الوجودية كاتجاه فلسفي معاصر لأن الفلسفة في نظرهم لم تؤدي واجبها الحضاري في النظر إلى واقع الإنسان سواء في العصور السحيقة عموما والحديثة على وجه الخصوص فبرزت إلى الأفق تلك الأحداث والمشاهد التراجيدية الناجمة عن الحروب وتصادم الإيديولوجيات.

تطبيق مجال الحريات، طغيان النزعة المادية للعلم وغيرها من الأسباب ما جعلت مستوى القيم والأخلاق يأفل ويتراجع ناهيك عن أشكال العبودية والاستغلال والبؤس والحرمان والاضطهاد الممارسة والممنهجة من قبل أنظمة سياسية معينة.

على هذا الأساس عالجت الوجودية هذه المسائل بعناية وتقدير الغرض منها الاهتمام بالإنسان في المقام الأول ثم التأمل في معالجة مشاكله الحياتية والحد من غلوها وتعددها، فالقلق والخطر هما حالتان نفسيتان تجعلا من الكائن الإنساني يسعى جاهدا نحو الاهتمام

---

[1]برتراندرسل، **حكمة الغرب، الجزء الثاني**، ترجمة فؤاد زكريا، (عالم المعرفة، سلسلة ثقافية شهر المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت، 1983)، ص ص 193-194-195.

*اهتمام الوجودية بظهور الرومانتيكية في عصر التنوير ، دليل على أن الفلسفة بدأت تهتم بالإنسان والنظر إليه في كل الأبعاد ، ومن ثمّ اللجوء إلى الحياة و التأمل فيها وربطها بالإنسان من خلال الفنون، القصص، الأفلام، المسرح. وهذا تعبير أوثق وقريب من الحالات الوجدانية للإنسان ،حيث تقول بعض الدراسات أن مبادئ الوجودية ظهرت عندما نقد كانط كوجيتو ديكارت ، وكذا أيضا نقد كيكجارد لفلسفة هيجل،وبالتالي كان لهذا النقد الأثر على فلسفة نيتشه في بناء الإنسان الأعلى.

بقدراته الفكرية وحالته الوجدانية التي تسمح له بإثبات وجوده الحر الجوهري وليس وجوده العادي وجود كل البشر، حيث يغلب عليه الركود والسكون.

يهتم كيركجارد ونيتشه بالحرية لأن الإنسان لا يستطيع أن يمارس كيانه الوجودي من إبداع وتفكير وحرية وعيش، تحقيق ميول ورغبات، إلا إذا كان حرا في ذاته وفي حياته.

فالقلق هو شعور الفرد في فعله الحر بالخطيئة الناشئة بالضرورة عن الاختيار[1]، فالقلق عند كيركجارد يمثل حال الوجودية من الطراز الأول وفيه يقرر الإنسان اختياره وفي اختياره هذا يدرك بأنّه كائن ناقص لأنه لا يدرك كل شيء ولا يستطيع تحقيق كل الممكنات.

ولعل القلق يزداد حدة عندما يجد الإنسان نفسه أمام فكرة العدم (Le Néant) التي لا يستطيع أن يتحكم فيها، إن الإنسان في نظرهما هنا يقرر بأنّه يجب عليه أن يتجاوز ذاته ويتوق غلى ما هو أعلى منها بكثير، وذلك ما يقترحه الفيلسوفان: فكرة القلق من جهة وفكرة الخطر من جهة ثانية (Le Danger)[2]، وبالتالي فالإنسان يخاطر وينتابه القلق وهو في هذا الصدد معرض لنجاح والإخفاق من هذه المخاطرة (Risque) تولد ضرورة الإرادة التي تبدي لنا اللحظات العليا للوجود حيث يكون الوجود فيها مهددا في كيانه الأصيل مثل لحظات الموت وما غليها.

إن هذا النقصان هو معنى الفعل الذي يحدد معنى الوجود وبغيره لا يوجد الفرد فليس بوسع الإنسان أن يختار جميع الممكنات بل يختار اختيارا أو اختيارين حسب مقدرته غير أن الشعور بالعدم يكون ماثلا أمام الإنسان عندما لا يستطيع أن يحققها كلها من هنا يتولد القلق والمعاناة.

إن مثل هذه الحالات تجعل الإنسان يسعى نحو بذل قصارى جهده من أجل إثبات نوعه بفضل الإبداعات والقدرات الكامنة فيه، فتبدو لنا حقيقة الإنسان القادر على فهم ذاته وحياته دون الوقوع في الاستسلام واليأس، كما نألفه عادة عند الناس العاديين.

فالإنسان في نظر الوجوديين يختلف تماما عند ذلك النمط من البشر الذي يرضى بما هو ماثل أمامه للعيان دون أن يساهم في تغيير مجرى الحياة بصفة عامة.

[1] عبد الرحمن بدوي، **دراسات في الفلسفة الوجودية**، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1966)، ص 04.

[2] M du frenne et P.Ricoeur ,**Karl Jaspers et la philosophie de L'existence** , (Edition du seuil , Paris France, 1947) , P P 22-25.

تبدو نظرة كيركجارد ونيتشه في هذا المقام نظرة اعتبار عميق للإنسان من جهة وللحياة من جهة أخرى، وعلى هذا الأساس جعل الوجوديون نيتشه واحدا منهم ورائدا من رواد الفلسفة الوجودية.

الفيلسوفان كيركجارد ونيتشه يرفضان أشد الرفض أن تكون الفلسفة منحصرة ضمن نطاق التفكير العقلي المجرد البعيد عن ملامسة جوهر الواقع البشري، فالفلسفة يجب أن تعبر عن الوجود الإنساني وتسايرة في كل ما يشعر به من حالات وجدانية متعددة بمعنى أن يكون الوجود افردي أسمى من الوجود الموضوعي الذي اهتم به الفلاسفة الآخرين على غرار الفلاسفة الوجوديين.

من هنا ينتقد كيركجارد ونيتشه هذا الطابع الفلسفي الذي أهمل الوجود المادي للإنسان واهتم فقط بالوجود المادين وبالتالي فيجب على الفلسفة ـ في نظرهما ـ أن تنتقل إلى البحث في الذات، وفيما له من قيمة بالنسبة إليها تلك ولا ريب نقطة البداية لكل فلسفة وجودية.

فهم هذا التشابه بين نيتشه وكيركجارد في إبراز صفات الإنسان وقدراته الكامنة وأيضا أن نيتشه أضحى هنا قريب من الوجوديين وبل يشاطرهم في العديد من القضايا الجوهرية وخاصة إذا كانت تسعى إلى خدمة الإنسان لا غير.

إن فكرة الخطر توهب الإنسان معنى الحياة وتثبت فيه نوعا من السمو والتعالي لأنه ببساطة يعرف أن الوجود الإنساني لا معنى له، إذا ما يجعلك تشعر بأنّك كائن حر، طموح قلق.

على إثر ذلك تدرك بأنّ أسمى لحظات الحياة هي عندما تشعر بأنّك مهدد وعليه فالحياة تقسو على الإنسان أحيانا وتلين عليه أحيانا أخرى، ومما يوطد التشابه أكثر بينهما هو مفهوم الدين ونظرتهما إليه فها هو نيتشه يريد أن يجسد فكرة التعالي في الدين[1] ذاته لأن المسيحية ليست بذلك الدين الذي يعبر عن هوية الإنسان وكرامته نتيجة الصراعات المريرة بين طموحاته وآماله المنشودة الهادفة نحو التحرر والعيش في الخطر[2]، وبين الأساليب المنتهجة من قبل سلوك رجال الدين.

إن التجاوز الذي يقترحه نيتشه أن يكون هذا التعالي في ذات الإنسان لم يكن نيتشه يقصد بفكرة الخطر بأنّها فكرة تدعو إلى التمرد والعصيان كما يفهم من غيره بقدر ما يهدف إلى أن هذا الخطر صفة ملازمة لتقدم الإنسان نحو ركب التمدن والتحضر.

[1] Friedrich Nietzsche, **Humain trop Humain** Tome I, P P 105-106.
[2] Friedrich Nietzsche, **Humain trop Humain** Tome II, Traduit par Robert Rovini, (Edition Gaillmard, P 277.

طالما أن فكرة "موت الإله" حسبه تشكل عقبة يجب إزالتها من أمام الإنسان حتى يحقق كل ما يصبو إليه من آمال وغايات لا يمكن أن نعتبر عندئذ أن نيتشه يتسم بالإباحية في إنكار وجود الله، بل يدعو إلى إنكار الله في نظر المسيحية التي خرجت عن أخلاق ونبل المسيح الذي جاء ليخلص البشرية من العذاب والشقاء.

الأمر نجده ذاته عند كيركجارد في نظرته إلى الدين حيث أن القلق ناجم عن الخطيئة ويزداد أثر تلك ألخطاء والزلات من قبل المسيحية ذاتها وأن كيركجارد يقترح وجود ثلاثة مدارج الحسي، الأخلاقي، الديني، هذا الأخير يعتبر خلاصا أبديا من نزوة الشك والقلق وغيرها من الحالات النفسية الأخرى التي تنتاب الشعور العام للإنسان ناهيك عن طغيان النزعة العلمية في العصر الحديث حيث طغت المادة أكثر وتراجع مستوى الروح والأخلاق والقيم فوجود القلق عند كيركجارد والخطر عند نيتشه دليل واضح على مدى أزمة اليقين لدى الإنسان فيظل الدين سندا قويا في رد الاعتبار للوجود البشري في اعتقادهما.

يركز الفيلسوفان على الوجود الفردي للإنسان في مقابل الوجود المادي، فليس الوجود الفردي هو تحقيق المطلب البيولوجي وإنما الوجود الفردي هو أن يشعر الفرد بأنّه حر[1] لأن الفرد الحر يتحكم في وجوده باستمرار حيث فالقول يختلف عن وجود الآخرين فتعوده تلك التصورات المجردة.

وعليه بالأبدية لا تعني إطلاقا بأنّها تهديد لكن الإنسان هو الذي يملك القرار في اختيار وجوده وكيف يعيش فيه، هذه السلطة التي يمتلكها الإنسان لا تتجسد فيه إلا عن طريق الوعي الذي يمنحه الفهم العميق لمعنى الفرد كونه يألف نمط العيش وراء كل ما يحققه من أبعاد إنسانية في الحياة بصفة عامة.

طالما أن القلق والخطر يكشفان الجوهر الأساسي للوجود الفردي ومن ثم يظهر لنا هذا الاسم في فلسفة الوجود*، إلا أن هذا الاكتشاف عند كيركجارد وعند نيتشه هو بمثابة تجاوز بعض الشيء وهو تجاوز في حد ذاته لطبيعة عصر كل منهما لأن هذا العصر ساد فيه الركود والسكون ولم يعد المرء يستشعر لحظات كينونته ككائن حر ومبدع، وفضلا عن ذلك يصبح المبدأ الأساسي للتفكير البشري، حيث الحرية[2]تفتح المجال للإنسان لتكريس وجوده الفعلي.

---

[1]M du frenne et P.Ricoeur ,**Karl Jaspers et la philosophie de L'existence,**Op-cit, P 22.

*كلمة الوجود (L'existence) تعني لدى الوجوديين عامة ، وكيركجارد ونيتشه خاصة أن الوجود الإنساني يأتي في المقام الأول قبل الوجود المادي ، وهذا خلافا للتفسير الفلسفي الكلاسيكي الذي حصر مفهوم الوجود في فكرة النسق (العقلي، التجريبي، النفعي، البرغماتي ...)

[2]Jean Paule Sartre, **L'être Et Le Néant,** (Librairie Gaillmard, Paris France, 1953), P 641.

فالنص لدى كيركجارد ونيتشه هو اكتشاف للوجود الفردي لدى الإنسان، ونقد لصرح العلم حتى يتبنى جانب التفكير في قضاياه المتعددة ويبتعد عن أشكال الاستخفاف بالقيم الأخلاقية.

إن اليقين بالحرية يحيلنا في نظر كيركجارد وفي نظر نيتشه إلى الاهتمام بالوجود والسعي إلى امتلاك كل الأسرار عنه بمعنى أخر فالوجود يعزز الرابطة بين الفرد وحياته، وكما تثبت هذه الرابطة شروط الإيمان مع المعرفة.

بيد أن هذه الكلمة هي "التأمل (MEDITATION)" في الوجود كونه يكرس الوعي الذي إلى يؤدي المعرفة الموضوعية وفي الآن ذاته إقرار للوجود البشري الفردي في المقام الأول ودعوة جريئة للعقل نحو التعالي حتى تتم منفعته في خدمة الحياة من خلال توطيد أواصر العلاقات الاجتماعية بين الناس، تحقيق السلم والأمن، بعدما عانت البشرية من الولايات والمآسي والبؤس والشقاء التي دامت عقودا من الزمن الغابر.

وعليه يقترح كيركجارد ونيتشه هذا المسعى أنه يجب الفصل بين الشعور بالفرد من جهة وشعوره اتجاه الآخر من جهة أخرى، وذلك حتى يتم تحقيق توازن طبيعي واجتماعي بين الإنسان والحياة.

استعمال كيركجارد ونيتشه لكلمة التعالي (TRANSCENDANCE) يختلف تماما عن مدلول الكلمة لدى ايمانويل كانط (IMMANUEL KANT) فكانط يهدف من خلال ذلك أن أصل الكلمة المعرفة البشرية حسي في البداية وعقلي في النهاية على اعتبار أن التجربة الحسية شرط أساسي لكل معرفة لكنها غير كافية.

وبالتالي نجد المعنى هنا يغلب عليه التصور النظري المجرد في اعتقاد الفيلسوفين كيركجارد ونيتشه، لأن هذا التعالي لا يكتسي أهمية معرفية وفلسفية، إلا إذا كان يعبر عن الوجود الإنساني، فليس من الضروري أن نحصر مفهوم التعالي في العقل، بل يجب أن يكون هذا التعالي مجسدا في الدين نظرا لتلك الأخطاء التي طبعت المسيحية إبأنّ العصر الحديث، وما نجم عنها من خروقات مقيتة ودنيئة أثقلت كاهل الإنسان، شعر حيالها بكثرة المآسي والهموم والمعاناة أثرت على حياته.

إن مثل هذا التحامل من قبل الفيلسوفين على طبيعة الوضع السائد الذي يعيشه الإنسان إنما هو في حقيقة الأمر إعلاء قيمة الروح عن المادة ورد الاعتبار لكل الفضائل والرفع من شأنها حتى تغدو في مقام الإنسان كأي كائن في الحياة.

ويبدو نيتشه أكثر عمقا من كيركجارد حينما يعبر عن نظرة زرادشت في مناداته الدؤوبة للاهتمام بالإنسانالأعلى، والارتقاء نحو المجد والعزة، ولعل بهذا التقدير يكون قد نحى منحى

الصوفيين في القول بالعود الأبدي أي: أن الإنسان معهما عاش من لحظات زمانية فلابد له من العودة إلى نشأته الأولى عندما نتأمل الوجود البشري ندرك مدى التضحيات الجسام التي يقوم بها الإنسان بغية تجاوز الوجود البسيط.

ويقترح الفيلسوفان أن يكون الوجود مشكلا في قضايا ثلاث وهي أن نضع حدودا للعلم نظرا لطغيان النظرة المادية على مساره، ثم الإصرار على الحرية الإنسانية لأنها الشرط الأساسي في تحقيق المعنى الكامل للوجود الفردي باعتبارها الحالة الممكنة التي يشترك فيها كل البشر ناهيك على أن الوجود في ذاته يمثل صفة التعالي وما على الفرد إلا أن يبذل قصارى مساعيه لبلوغ مرتبة الكمال.

لقد استطاع كيركجارد ونيتشه أن يمنحا للفلسفة دورا هاما تجلى من خلال أن الوجود الإنساني لا يعدو وجودا كما يبدو للعيان بقدر ما أن الوجود يجب أن يكون فعالا ومؤثرا في الحياة، فهو وجود بالقوة الأمر الذي يعطي للإنسان القدرة على امتلاك القرار في تغيير المستحيل بين الوجود والعدم وأيضا بين الشك والإيمان ومن هذا المنطلق يرى كيركجارد ونيتشه أن أسمى لحظات يعيشها الإنسان هو عندما يشعر بأنّه كائن يتمتع بكامل قواه الوجودية وأن الحالات الوجدانية من انفعالات وميول ورغبات وطموح وغايات تظل تنتابه طوال حياته، وهذا ما يعبر عنه الوجوديون بالبحث عن الأمل المفقود كونه يتطلب تضحيات وصبر من الإنسان في حد ذاته.

إنّ فتح المجال أمام تفجير المكنونات البشرية، يجعل الإنسان يشعر بتلك الحالات السيكولوجية شعورا عميقا، طالما أن الشعور يتغير حسب حالات الوجود الإنساني. فلا تظهر لنا إبداعات الإنسان أو صفاته الجوهرية إلا من خلال توفر الحرية بها يستطيع الإنسان تجاوز كل القيود، إذن هذه الميزة الأساسية تطبع مضمون الفلسفة الوجودية ، حيث تختلف في موقفها عن جل الفلسفات التقليدية. وعليه فالفلسفة لا تنساق وراء النسق الذي يجعلها خاضعة للأفكار و التصورات الثابتة، إذن فالفلسفة الوجودية تهدف إلى إثارة الإحراج و الدهشة جرّاء التساؤلات المقلقة التي تعتري ذات الإنسان على الدوام ، ولعلّ ذلك يظهر جليا من خلال الإرادة[1] التي تمكن الإنسان - في اعتقاد نيتشه و الوجوديين – من الحصول على المثابرة والمخاطرة في اكتساب المزيد من التجارب الشخصية في الحياة ، يقترح كل من كيكجارد ونيتشه أن الصفات الموجودة في الإنسان لم يعط لها الفلاسفة السابقون أي اهتمام نظرا لسيطرة الفكر المجرد الذي يتجلى في الميتافيزيقا، المعرفة، الوجود، الأخلاق، ..إلخ، ونست بذلك أن الإنسان هو واضع هذه المفاهيم بمنحه إياها أبعادا فكرية.

[1]M.Dufrenne et P.Ricoeur, **Karl jaspers et la Philosophie de l'existence,** op-cit, P 26.

لقد إدّعى الفلاسفة في نظر نيتشه أنهم فهموا الإنسان على أكمل وجه بتكريس الفهم الصحيح له، وبالتالي فإن نيتشه يوضح لنا الرؤية من خلال قراءتنا لمواقفه الفلسفية التي تدعو الإنسان لكي يتحرر باستمرار، وهذا بفعل تعلقه بالحياة بشكل متصل ودائم.

إن فكرة الخطر أو القلق في اعتقاد الفيلسوفين يجب أن يشعر بهم الإنسان شعورا واعيا ومسؤولا ، و لاشك حينئذ أن الواقع أثبت جدارة الإنسان باستحقاق و تقدير ، علاوة على ذلك تبدو رؤيتهما للفلسفة متمثلة في تحديد ماهية التواصل بينه و بين المجتمع ، ممّا يخلق انسجاما يؤكد الأبعاد الإنسانية و الحضارية ، فتزول معها الأنانيات وتكرّس بدلها الفضائل النبيلة، وهذا هو واجب الفلسفة في أن تهتم بالإنسان بالدرجة الأولى، إصراره على فهم الحياة ناجم من حبه للتساؤل حول كل ما يحيط به من حالات تطبع وجوده الذاتي و الوجود المادي ، والدليل على ذلك ما يعبر عنه لدى الوجوديين بفقدان الأمل أحيانا ، و يظهر ذلك في عدم القدرة على تحقيق ذاته و وجوده في اعتقاد كيركجارد، هذا ما يولد فيه شعورا بالقلق المستمر ، أو ما يعبر عنه نيتشه بالسقوط[1] (الإنسان العادي).

إن مثل هذا القلق يدفع الإنسان إلى تخطي كل العقبات ، وفي نظر نيتشه أن الإنسان الأعلى[2]هو الذي يقدر على امتلاك الإرادة القوية في رد الإعتبار لكرامة الإنسان، فالفلسفة بهذا النمط في اعتقادهما تشكل الفهم السليم للوجود ونهاية لنظام النسق الذي أجبرها على التفكير المجرد، من هنا يركز الفيلسوفان على فكرة القلق والخطر ، و نجد مارتن هيدغر قد عبّرعن ذلك بأن الوجود[3] بات مشكلة فلسفية خالصة في نظر الوجوديين ، وظل هذا السؤال الجوهري هو كيف نفهم الوجود؟ و كيف نعيشه ؟ ينجم هذا بفضل التأمل الذي يركز عليه كيكجارد ونيتشه، ويعتبر موضوعا أساسيا في تاريخ الفكر الفلسفي بصفة عامة، هذا ما عبر عنه هيدغر بفكرة الدازين "Dasein"[4]، أي ربط الإنسان بالوجود المادي، لأن هذا الأخير هو وحده القادر على فهم حقيقة هذه الحياة بكل تجلياتها من منطلق شعوره بالحرية[5] التي تعتبر شرطاً ضروريا لممارسة الإنسان لوجوده الحقيقي بغية إفساح المجال لمخيلته في ابتكار إبداعات شتى.

يركّز كيكجارد و نيتشه على الإنسان باعتباره أساس الوجود الإنساني بأكمله، ناهيك عن تلك التفسيرات الكلاسيكية التي اهتمت بالوجود المادي فقط دون النظر إلى الإنسان. فشعوره بالقلق[6] ناجمعن تلك المعاناة المستمرة التي تحفزه أكثر إلى أن يعيش في وسط الخطر[1]الذي

[1]Sorén Kierkeggard, **Kierkeggard vivant,**L'unesco, (Paris, Gaillmard, 1964), P P 10-11.
[2]Friedrich Nietzsche, **Ainsi par les Zarathoustra,** P 281.
[3]M.Dufrenne et P.Ricoeur, **Karl jaspers et la Philosophie de l'existence,** op-cit, P 27.
[4]**Ibid**, P 28.
[5]Alin juranville, **La philosophie comme savoir de l'existence**, (Volume I, altérite presse universitaire de France), P 147.
[6]Sorén Kierkeggard, **Kierkeggard vivant**, op-cit, P 13.

يدفعه إلى مجابهة محن الحياة ومعرفة كيف يتكيف معها على إثر ذلك يحقق الإنسان كل طموحه وهذا ما نفسره لدى نيتشه بتلك الثورة العارمة التي أبداها إزاء العصر الذي يعيش فيه لما آل إليه من تردي على مستوى القيم والحضارة والإنسان.

إن الوجود الذي يعترف به كيكجارد ونيتشه هو ما ينتج الإنسان المبدع و ما يتركه من فوائد جمة[2] تنعكس على الطابع العام للحياة فنلحظ التقدم الفعال ومواكبة الإنسان لما يطرأ على حياته من أحداث، يفسر ذلك من خلال الطموح البشري في تحقيق الأمنيات. هذا التفسير الوجودي للوجود يختلف اختلافا جذريا عن التفسير الوضعي المنطقي "Posivitisme"، الذي يبقي الوجود ماديا فقط دون النظر إلى الإنسان. فنيتشه لا يرى الوجود[3] على مثل هذا النمط بل يسعى إلى تجاوزه و إيضاح نظرة الإنسان إليه وإلى الحياة وهذا ما نجده واضحا عند الوجودية، من هنا تبدو فكرة القلق والخطر ضرورية في فسح المجال أمام الإنسان لمعرفة أسباب قلقه ومعاناته في هذه الحياة نتيجة لذلك يشعر الإنسان بالخطيئة على مستوى الدين وعلى مستوى القيم، أولى الفيلسوفان اهتماما أساسيا بالحرية ، وهذا لفهم إرادة الإنسان الحقيقية، فلا يمكن أن تكون إرادة على مستوى الشعور فحسب ، بل يجب أن تعبر عن الوجود الإنساني الحقيقي الذي يتجلى في كثرة المعاناة، فعند كيركجارديتجلى تجاوز الإنسان للمدرج الحسي و الأخلاقي نحو المدرج الديني، و هو تجسيد للديانة المسيحية و تبرئتها من التصرفات البذيئة المشكلة في شعور الإنسان بالذنب ومرارة الخطيئة، والإرتقاء بالإنسان إلى ممارسة الحياة بصفائها! و يراها نيتشه إقداما نحو تجاوز كل الأوضاع المتردية، حيث تجسدها الحياة الديونيزية الفعالة المجسدة في الإنسان الأعلى، حيث يمارس الفن والموسيقى باعتبارهما حالة الإنسان الحقيقية، لذلك يصر نيتشه على فكرة العود الأبدي باعتبارها الحياة المثلى للإنسانية[4]، فشعور المرء بالقلق يعني أن الموت يهدده في كل لحظة زمنية ، لذا أكد مرارا على فكرة الخطر، فليست تمرداً أو خروجا عن الطابع العام للحياة بل على العكس من ذلك تحقيق سعادة الإنسان، فضلا عن شعوره في فقدان الأمل أحيانا " Désespoir"[5].

و أخيرا يسعى الإنسان إلى التقدم والتضحية في الحياة.لطالما تشعّبت كلمة التعالي "Transcendance" في فلسفة كانط و هيغل كثيرا، غير انها لم تتعد التفكير المجرد، نظرا لطغيان فكرة النسق.من هنا ففكرة التعالي لدى نيتشه و كيركجارد اكتست بعدا فلسفيا اخر من خلال ربطها بالوجود الانساني في فهم الحياة و ما يعانيه من معاناة مستمرة.

---

[1]FriedrichNietzsche**, Elément pour la Généalogie de la morale**, Op-cit,P 168.
[2]Sorén Kierkeggard, **Kierkeggard vivant,** Op-cit **,**P13.
[3]Jean Paule Sartre, **L'être Et Le Néant,**Op-cit, P P 12-13.
[4]Vatimo agianni, **Introduction a Neitzsche** (de Bocek et larcier**,** 1991, Pourl' Edition française, départment de Bocek 1991 Univercité Paris, Bruxelles), P P 18-19.
[5]**Ibid**, P P 124-124

هذا ما يفسر لنا اهتمامهما بعلم النفس[1] الذي يركّز على الحالات السيكولوجية ودوافعها لدى الإنسان، لقد كان الغرض من هذا الإهتمام بعلم النفس ليس في الإطّلاع على تلك الحالات بقدر ما هو إعطاء معنى جديد له يهتم بالإنسان من الناحية الوجودية (علم النفس الوجودي)، ولعل الفلسفة الوجودية بهذا الوصف تكون أقرب إلى الإنسان أكثر من غيرها.

إنّ دراسة نيتشه في حد ذاتها تعدّ أكثر تعبيرا عن ماهية الإنسان خصوصا عندما يؤكد علىالكينونة فيتجاوز خطاب الوجوديةفي حد ذاتها وتجاز أيضا للشّكيين "Secpticismes" و العدميين "Nihilismes" مما نجم عنهم عدم الإهتمام بالحياة والإنسان فبدت هذه الأخيرة شحيحة و ضحلة !. مما يستوجب في نظر نيتشه أن يكون علم النفس أكثر إمعاناً في معرفة تعدد أنماط السلوك الإنساني[2]، و تركيزه على الوجود الفعلي.

إن تعدد التفاسير والتأويلات للأحوال السيكولوجية و الشخصية عموما لدليل على أنّ كيركجارد ونيتشه قد اعتبرا أن مراعاة هذه الصفات من شأنها أن تعطي لنا مفاهيما أدق عن القلق و الخطر، وعليه فإن هذه الصفات هي قبل كل شيء أحوال نفسية تندرج ضمن أحوال الوجدان، غير أن التفسير الفلسفي وخاصة الوجودي يبدو أكثر عمقا و إحاطة، في إبراز الأبعاد الإنسانية لمثل هذه الأحوال. و هو إذا يختلف عن تفاسير علم النفس الذي يحصر الإنسان في موضع خصائص الحادثة النفسية و نظرة علماء النفس إليها، لقدأراد هذان الفيلسوفين أن يحدثا مفهوما جديدا وهو علم النفس الوصفي **"La Psychologie descriptive"** كطريقة مثلى في فهم الإنسان أكثر[3]، إن هذا التراجع الذي نجم على مستوى تردي الأوضاع الإنسانية و الإجتماعية، ناجم عن التصادم بين الحالات الشعورية المقلقة والعدمية[4] التي أثرت على الطابع العام للحضارة الغربية و الإنسان معاً، ممّا نجم عن ذلك فقدان الإنسان لكل قيمه الحضارية و الجمالية[5]، نفس الموقف تبناه كيكجارد حينما أرجع تردّي الأوضاع السياسية والإجتماعية هو التقليل من شأن الإنسان، وهنا يتشابه نيتشه مع الوجوديين و مع كيكجارد في نظرتهم إلى صرح العلم الذي ابتعد عن المشاعر الإنسانية نتيجة طغيان النزعة المادية وابتعاده تدريجيا عن الأخلاق، و هنا تبدو نظرته مثل نظرة الوضعيين المناطقة في الإشادة بالعلم ودوره في الحياة، إلا أنّه يخالفهم عندما يظهر لنا النزعة الصوفية التي تجسدت في الإنسان الأعلى.

---

[1]M.Dufrenne et P.Ricoeur, **Karl jaspers et la Philosophie de l'existence,** op-cit, P P 30-31.
[2]M.Dufrenne et P.Ricoeur, **Karl Jaspers et la Philosophie de l'existence,** op-cit, P 32.
[3]**Ibid**, P 32
[4]جمال مفرج، **ليوتاردو والارث اليساري للنيتشوية**، (مقال في مجلة أوراق ثقافية، العدد الرابع والخامس، يوليو، ديسمبر 2001)، ص ص 18-19.
[5]Friedrich Nietzsche, **Aurore** , Traduit Par Julien Hervier, Sigma, (Edition, 1880), P 02.

يؤكد بعض الباحثين حول فلسفة نيتشه، بأن هذه الصوفية التي التزم بها في آخر حياته كان يقصد بها إضفاء على الفلسفة نوعا من الحكمة والزهد، التي نجدها في التفكير الشرقي القديم تحديدا لدى الديانة الزرادشتية، وهو بهذا يكون قد تجاوز الفيلسوف الفرنسي رنيه ديكارت (1596-1650)[1] القائل بفكرة الكوجيتو أي الماهية تسبق الوجود، كما يشاطره كيكجارد عندما يتجاوز فكرة الروح لدى هيغل واعتبار القلق حالة إنفعالية تتجذر في أعماق النفس البشرية[2] فتجعل الإنسان يمارس حريته على أتم وجه.

لم يهدف نيتشه بفكرة الخطر إلى المباهاة أو الخروج عن المألوف بل كان الغرض منه دفع الإنسان نحو تجاوز الفتور و السكون ، الذي طبع الحياة المعاصرة بصفة عامة و العصر الذي يعيش فيه بصفة خاصة، هذا ما يفسر لنا تأثر نيتشه بحضارة الإغريق و تعلقه الشديد بها!. إن ممارسة الفن ، و الموسيقى، و الشعر، والفلسفة انتاجات غير بها الإنسان الطابع الحياتي القديم نحو حياة أكثر شاعرية وانفتاحاً وتحرراً، فالخطر عندئذ هو إثبات لوجود الإنسان على النمط الديونيزي اليوناني[3]، يتساءل نيتشه قائلا ألا يستحق الإنسان أن يكون أكثر من صورة هزلية؟ أليست الحرية مأساة يعيشها ؟[4] ، في هذا التصور يكون نيتشه قد أحدث قطيعة ابستيمولوجية "Rupture_épistémologique" بينه و بين الإتجاهات الفلسفية السابقة في نظرتهما إلى الإنسان والوجود[5].

في هذا السياق تبدو لنا فلسفة نيتشه أكثر ارتباطا بالتصورات الوجودية، وخاصة في ما نجده من تقارب وثيق الصلة بينه وبين كيكجارد من جهة و بينه و بين الوجودية من جهة أخرى.

بعد هذا الإسهاب في تحديد العلاقة بين التراث النيتشوي و التراث الوجودي،من خلال فكرة القلق عند كيكجارد و الخطر عند نيتشه نصل إلى أنّ هذين الفيلسوفين قد أحدثا ثورة فكرية في الفكر الفلسفي المعاصر في تجاوز كل من هيغل و شوبنهاور، لذا يجمع الباحثون المهتمون على الأقل بفلسفة نيتشه أنها حملت مفهوما مثل الإعلان عن موت الإله " Le dieu Mort" ، يتشابه فيه مع الوجوديين سواء الفكر الوجودي الإلحادي أو الفكر الوجودي المسيحي، وبالتالي ففكرة موت الإله ليست نهاية الله من الوجود،وإنما الإعلان عن موت الحضارة الغربية و إفلاسها التي تجلت في العدمية السلبية "Le Nihilisme Négative".

[1]Alin juranville, **La philosophie comme savoir de l'existence**, Op-cit, P 14.
[2]Sorén Kierkeggard, **Kierkeggard vivant,** Op-cit, P 16.
[3]M.S. SILK AND J-P STERN,**Neitzsche on Tragedy**,(Combridge University press 1981),P P 333-334.
[4]غانم هنا، **نيتشه فاصل بين حديث ومعاصر**، (مقال في مجلة عالم الفكر العدد 4 أفريل / يوليو 2002)، ص 10.
[5]غانم هنا، **نفس المقال السابق**، ص 11.

لقد استطاع نيتشه أن يحدث تصورات جديدة تجاوز بها الوجوديين ، مثل فكرة العود الأبدي، العدمية الفاعلة ، الإنسان الأعلى ، إرادة القوة ... إلخ ، باعتبارها مقولات على منوال أرسطو أخرج بها الفلسفة من طغيان النسق نحو إرادة الحياة.

المبحث الرابع: اللامعقول عند فريدريك نيتشه وألبيركامي.

لم يعترف نيتشه ـ كما قلنا فيما سبق ـ بالمذاهب أو الأنساق الفلسفية لأنها في اعتقاده تحد من حرية التفكير البشري ويظل الإنسان أسير تصورات وآراء مذهبية كلاسيكية تجعل العقل متحجرا وساكنا.

لقد ساد التاريخ الفلسفي بوجه سطوة التفكير المجرد الذي تجلى في الموضوعات الفلسفية كلها، لم يستفد منها الإنسان أي شيء يذكر وفقدت الفلسفة عندئذ مكانتها الحضارية والإنسانية لكونها ببساطة تناولت هذه القضايا وهي بمنأى عن الحياة.

تلك هي الميزة الأساسية التي قربت نيتشه من التيار الوجودي إضافة إلى أن الفلسفة الوجودية انتقدت الفلسفات السابقة في هذا الشأن، سيما وأن نيتشه بهذا الموقف جلب اهتمام الوجوديين ـ على اختلاف مواقفهم ـ خير اهتمام، وبالتالي نيتشه يقترب من الوجودية في رفضهم للعقل ليس رفضا كنشاط يدل على ملكة فطرية، وإنما يأتي هذا الرفض في أنه لم يعد بمقدوره لوحده أن يكون مصدرا مطلقا لكل القضايا الفلسفية.

وينوه نيتشه هنا أن السقراطية[1] كانت هي المسؤولة عن تراجع مستوى القيم وتدني مستوى التفكير نظرا لان كل موضوعات الفلسفة كانت تعالج معالجة فكرية تجريدية فقط، ناهيك عن كثرة أخطاء العقل وما نجم عنه من دمار وانحطاط كرسته الديانة المسيحية اليونانية وحتى الحديثة فيما بعد بحيث حملت في نظرة بذور العدم في شتى مظاهرها وأزماتها.

هذا ما أقره نيتشه في حد ذاته وما اعتقد أنه سبق به جميع معاصريه، ومن هذا الدمار ينطلق نحو بناء عصر جديد تصنعه إرادة القوة ويتحقق بفعل إنسان جديد هو الإنسانالأعلى وبحيوية مستمرة لا تعرف الاستسلام هي العود الدائم.

في هذا السياق يأتي فيلسوف آخر لا يقل حماسة وجرأة عن نيتشه إنه الفيلسوف الثائر ألبيركامي (**ALBERT CAMUS**) (1913-1960) فقد كان ذا شخصية متمردة عن تلك الأوضاع السياسية والاجتماعية التي طبعت حياته الوجودية وتأثر كثير جراء المعاناة التي كان يعاني منها الشعب الجزائري من الظلم والاستبداد الناجم عن الاستعمار الفرنسي بكل أنواعه[2].

في هذا الأمر نجد تشابها بين موقف نيتشه وموقف كامي في الاهتمام بالإنسان والتضحية من أجله في محاولة دؤوبة بفهمه وفهم ضرورة الحياة من جهة ومن جهة أخرى في رفضهما

[1] غانم هنا، **نيتشه فاصل بين حديث ومعاصر**، المرجع السابق، ص 13.
[2] عبد الرحمن بدوي، **دراسات في الفلسفة الوجودية**، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1966)، ص 158.

للعقلانية (**RATIONALISME**) غلب عليها من الإغراءات المطلقة في التجريد ومن الجفاء المميت للحياة البشرية عموما، من هنا تظهر لنا وطنية كامي المفعمة بالدفاع عن كرامة الإنسان عامة والإنسان في وطنه خاصة.

بقصد نيتشه باللامعقول (**L'absurde**) أن العقل غير قادر على فهم الواقع وحل المشكلات بشكل لائق ينفع الإنسان وحياته على حد سواء، ثم ما يذكرنا به التاريخ البشري من سقطات وأخطاء جمة قللت من دور العقل والعقلانية ويرى نيتشه أن الأخطاء الموجودة في الدين والميتافيزيقا والقيم والأخلاق في العصر الحديث وكذا أيضا تراجع مستوى التراجيديا في التفكير اليوناني سلفا كل هذا نتيجة العقل.

فاصل المعرفة والمنطق ليس هو الرغبة في المعرفة الخالصة أو المنطق مجردا وإنما هو عامل لا عقلي ولا منطقي اعني هو نفع الحياة أما الرغبة في المعرفة الخالصة تدفعنا إلى البحث العلمي خلال الفترة الحضارية الحالية فهي في رأيه جاءت متأخرة نشأت بعد تطور ونمو وليست رغبة كامنة في العقل البشري وإنما الأصل هو البحث عما ينفع الحياة بأي ثمن[1].

أما دون ذلك فلا يقدر الإنسان إطلاقا أن يحقق غايات منشودة حيث يسير العالم بلا هدف ويصبح الإنسان عندئذ تائها وسط أفكار ومواقف نظرية لا علاقة لها بواقعه وحياته، فيجب أن تسود اللاعقلانية***(L'irrationalité)** على المعرفة البشرية والعقل بوجه عام حتى نتمكن من معرفة حقيقة الوجود وما يشتمله من ظواهر حسية، ومن قيم، ومن أخلاق، ومن فنون، ومن ديانات،...إلخ.

بقت هذه المبادئ العقلية تسري في الفلسفات التقليدية بدليل أن الحقيقة في تصوراتهم مطلقة طالما هي بعيدة عن العالم الأرضي.

يوافق ألبيركامي نيتشه في هذا التصوير فهو يرى أن المغالاة في التفكير المجرد والإشادة كثيرا بدور العقل جعل الإنسان مغيبا عن التفكير الفلسفي، في حين أنه صانع لهذا التفكير وما يؤول إليه من تحقيق نتائج وغايات ولذا لم يركز الفلاسفة الأقدمون على الطابع النفسي للإنسان من شعوره بالقلق والكراهية، التمرد، العصيان، الخطر، نتيجة أن الفلسفة عبر مسارها التاريخي، لم تهتم بمثل هاته الموضوعات التي أصبح الوجوديون يولون لها اهتماما عظيما.

---

[1] د. فؤاد زكرياء، سلسلة نوابغ الفكر العربي، نيتشه، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر الغربية، الطبعة ص 68.

* اللاعقلانية (L'irrationalité)هذا المصطلح استلهمه نيتشه من نقد الوجوديين فكرة المذاهب، فهو لا ينكر العقل كنشاط بل يرفض مع كيركجارد وكامي أنه يبقى التفكير المجرد بعيدا عن الحياة وتمثل ذلك في مرض الانحطاط الذي أصاب الحضارة الأوروبية الحديثة.

واشتهر كامي في مذهبه الفلسفي بفكرتين أساسيتين اللامعقول (**L'absurde**) والثورة (**La Revolte**) الأول منهما قد عرضها من الناحية الفلسفية في كتابة الأسطورة سيسوفوس (**Le Mythe De Sisyphe**) سنة 1942 .

والثانية في مجموعة أبحاث جمعها في كتاب "الثائر" ويقول كامي "الغريب ببساطة يعد من المواقف الفلسفية التي ضمن أسطورة سيسوفوس، اتخذ منها رمزا لحال الإنسان في هذا الوجود نتيجة العقاب المسلط عليه، أي على سيسوفوس حسب اختلاف الروايات بين المدح والذم في أنه كان يقطع الطريق فعوقب عقابا رهيبا جراء ذلك[1].

يبيّن لنا كامي أن الإنسان يعيش في حالة شبيهة بحالة سيسوفوس كونه ارتكب ذنوبا عوقب عليها في العالم السفلي، وحكمت عليه الآلهة بأنّ يستمر أبدا في نقل صخرة إلى قمة جبل، وبمجرد أن تصل إلى القمة تسقط الصخرة إلى الهاوية، فيضطر مرة أخرى إلىالصعود بها من جديد، ويؤكد كامي أن مرارة العذاب وأفظعه هو عدم جني أي فائدة من هذا العمل!.

إن الغرض من هذه الحالة ليست في سرد رواية من الأساطير القديمة فحسب، بقدر ما هي محاولة لإيضاح نمط العيش والوجود الإنساني الذي بات يحياه في لحظة زمنية ومكانية.

ولعل كامي هنا: يذكرنا هو الآخر بمدى تأثره بالفكر اليوناني - وإن كانت أسطورة سيسوفوس (**Le Mythe De Sisyphe**) – الذي كان قريبا من الفكر الشرقي القديم. في هذا الشأن نجد هناك تشابها بين نيتشه وكامي في مدى تأثرهما بالروح الفلسفية اليونانية من خلال حضور فكرة الديونيزية[2] في فلسفة كل منهما.

فلو أتيح للإنسان المعاصر ذلك النمط اليوناني الحيوي المحب للطبيعة، لما وصل إلى هذا الوضع المتأزم المتردي. وينوه نيتشه وكامي أن العقل أعطي له الكثير من أخذ زمام الأمور ووكل إليه كل بوادر الفكر الفلسفي حتى أضحت جميع الموضوعات الفلسفية ذات صبغة عقلية محضة وتناولها الفلاسفة تناولا نظريا بحتا وكأن الواقع البشري لا علاقة له بها تيك الموضوعات.

يرجع نيتشه ذلك إلى حقبة مجيء سقراط الذي جعل الفكر الفلسفي يتراجع بل ويصاب بالانهيار والدمار بعدما كان آنفا يمثل قمة الوجود البشري ما قبل السقراطية خصوصا الفلسفة المادية.

---

[1]Albert Camus, **L'étranger et autres nouvelles ouvrage**,(présente par tayeb Bouguerra, enageditions Alger 2012). P 09.

[2] Ronald Hayman, Nietzsche (les voix de Nietzsche) traduit de anglais par Christian Léau, Edition du seuil, Paris France 1997, P 33.

ومن أخطاء العقل والعقلانية في اعتقاد نيتشه نظرته إلى الحقيقة ويتساءل ما معنى الحقيقة بهذا التصور؟

إنها مجرد تصورات مذهبية نظرية يغلب عليها التعبير المجازي لا التعبير الفلسفي ومرد ذلك أنهم تناولوا هذا الموضوع وكأنه بعيد عن الواقع البشري، إن الافكار متضاربة في أذهان كل واحد له رؤية اتجاه ذلك، لكن الذي يبين صواب الفكرة من خطئها هو الوجود او الواقع الذي نعيش فيه[1].

لذا كان من الضروري المناداة بالروح اللاعقلانية والحد من غلو العقل الذي جلب في ـ اعتقاد نيتشه وكامي ـ المأساة والتناقض للإنسان وخير دليل على ذلك المعاناة والقلق الذي يراود المرء في حياته وبالتالي يجب الاهتمام بأنّشغالاته وحاجياته المتعددة، مما يجعلنا ندرك قيمته ككائن تواق إلى الطموح والتقدم.

والجدير بالذكر ان نيتشه يرى أن العقل البشري لا يستطيع أن يمنحنا كل شيء عن الحياة بدليل أن الأحوال النفسية لا نتمكن من فهمها على حقيقتها كما تبدو لنا للوهلة الأولى.

وعليه فالإنسان تطرأ عليه تصرفات سيكولوجية لا شعورية نجهل أسباب دوافعها مما يتبين لنا أن العقل قاصرا جدا على فهم مقاصد هذه الأحوال النفسية معتمدا في ذاته أن الذات العارفة تدعي في مطلق الأحوال أنها موضوعا لذاتها، يعني أن كل إنسان بوسعه معرفة مجريات أحواله النفسية طالما وجود الشعور.

من هنا نجد في فلسفة نيتشه آراء علماء النفس القائلين: بأنّ اللاشعور* **(Inconscience)**هو أيضا يشكل مقوما أساسيا للشخصية الإنسانية، هذا دليل على فكرة اللامعقول لدى نيتشه وكامي هي التي تمثل الطرح الفلسفي المعاصر.

ومن ثم الجدال بين المذاهب الفلسفية ذاتها ولا سيما الجدل المحتدم بين العقلانية والتجريبية، وعلى هذا الأساس الاختلاف الجوهري في النظر إلى طبيعة القضايا الفلسفية كالمعرفة، الوجود، القيم، ... إلخ، حال دون الإقرار بأنّ العقلانية هي مصدر اليقين وأن كل معرفة هي معرفة فطرية ناجمة عن تلك الاستعدادات القبلية الموروثة فينا منذ الولادة.

[1] Friedrich Nietzsche, **L'antechrist**, Traduit par Jean Claude Héméry, Edition, Gaillmard France 1874, P 130.

*اللاشعور (Inconscience) نجد في كتابات نيتشه اهتمامه بعلم النفس وهذا يدل على أن الإنسان يجب أن يحاط جيدا من خلال الكشف عن حالاته الوجدانية لمعرفة دوافعها وبالتالي تحد في معنى إرادة القوة، وهنا يلجأ مرة أخرى ليذكرنا بأنّ العقلانية تجاهلت حقيقة الإنسان ولم تدل لنا عن الأسباب الخفية وراء الاضطراب في السلوك وهذا يعتبر إشارة لبروز مبادئ التحليل النفسي لدى فرويد (FRUED) وغيره من علماء النفس.

كما يرى ألبير كامي أن العقلانية خلقت فينا نوعا من العدمية[1] نتيجة إهمال الإنسان أحيانا لضرورة الحياة وفي هذا التصور نجد أن كامي قريب إلى نيتشه في هذا الطرح خصوصا قوله بفكرة العدمية وأن العقل هو المسؤول عن تأزم الوضع الراهن.

فالإنسان الثائر شعر بفقدان المعنى الحضاري والجمالي للحياة البشرية لذا تطلب الأمر منه التضحية في إعادة معنى الحياة وتمثل ذلك بث إحلال العدل، المقاومة، الإبداع، الحرية، حتى يتحقق له امتلاك شروط العيش السليم.

ويرى كامي أن الإنسان عندما يشعر بالغربة من منطلق أن المجتمع لم يفهم دوره فيزداد الوضع تأزما أكثر ولعل الشعور الإنساني هنا يظل بلا معنى يذكر.

لذا ترى الإنسان يشعر بأنّ وجوده بات مهددا في غياب كل اهتمام بالقيم الإنسانية ليس في اعتبارها أفكارا وأحكاما نظرية وإنما يقتنع بها إذا هي كانت تسعى إلى الحفاظ على الحياة.

يعود كامي إلى التذكير في هذا الشأن بكفاح الشعب الجزائري في استرجاع وجوده وحريته أمام من سلب ثقافته بالقوة والجبروت، هذه السلوكات تتنافي والإرادة الإنسانية، حيث تتيح للإنسان التمرد على الوضع الاجتماعي مطالبا إياه بتحقيق مكانة لائقة للإنسان.

من هنا اعتقد نيتشه أن مبادئ العقل لا تحافظ على تماسك التفكير رغم إلحاحها من خلال دور كل مبدأ والعمل على عدم الوقوع في التناقض والارتقاء بالفكر نحو جادة الصواب، فمبدأ الهوية (**LE PRINCIPE D'ENTITE**) مؤداه أن الشيء يبقى على حاله، ومطابقته لذاته دواما.

فنيتشه يشترط إضافة عنصر الزمن[2] لأن هذا المبدأ وغيره من المبادئ ليست ثابتة بل تخضع للتغير ومن هنا تدرك تأثر نيتشه بهرقليطس وبارمنيدس.

إن نقد نيتشه للعقل ومبادئه الأساسية يؤدي مباشرة إلى نقد الميتافيزيقا وكل ما يرتبط بها من تصورات وأفكار، ففي الفلسفة التقليدية بنيت الميتافيزيقا على إيمان بوجود حقائق عقلية خالصة تتخذ دعائم للوصول إلى ذلك العالم وكانت الميتافيزيقا تلخص في اعتقاده كل ما خلفه العقل الإنساني من أخطاء انعكست على الدين وما تضمنه من نتائج عوض أن يعود بنا إلى العالم الأرضي أبعدنا عنه تماما.وفي وسعنا أن نجد نقد نيتشه للميتافيزيقا يشبه نقد الوضعيين المحدثين ونقده موجه إلى الكانطية والهيغيلية والماركسية أيضا حيث يغلب على هذه الفلسفات المغالاة في التفكير العقلي المجرد.

[1] Albert Camus, **L'étranger et autres novelles ouvrage,** Op-cit, P11

[2] د. فؤاد زكرياء، سلسلة نوابغ الفكر العربي، نيتشه، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر الغربية، الطبعة ص 69-70.

فالإنسان يشقى وشقاؤه في غير جدوى ويجهد نفسه بالغ الجهد وجهده ضائع ويعمل آناء الليل وأطراف النهار ولا يبلغ من وراء عمله شيئا[1].

ويوافق ألبيركامي نيتشه في تصورهما لحالة الإنسان عندما يشعر بأنّه عبث في هذا الوجود حينما يدرك أن مصدر العذاب هو هذا الشعور الذي ينتاب الإنسان في بعض اللحظات النادرة من حياته.

ولعل الذي يجعله قلقا هو التساؤل: ما قيمة هذا العمل؟ يعمل ليقتات، وهكذا أبدا حتى الموت، هذه النهاية اللامعقولة لكل موجود.

إن نظرة اللامعقول لديهما أن الإنسان ينتابه اليأس والقنوط جراء تواجده في الحياة حيث لا يتحصل فيها على أي شيء جديد يذكر، وبالتالي يسودها الرتابة والسكون الدائم فيشعر ها هنا بفقدان الأمل في الحياة وذلك نتيجة التفكير العقلي المجرد الذي سيطر على كل القضايا الإنسانية المصيرية.

فالعقلانية بدأت تتراجع نظرا لأن الفلسفة باتت ملتصقة بواقع الإنسان لذا من واجبها في نظر نيتشه وكامي أن تقدر الإنسان حق التقدير بعدما فقد رغبة العيش في الحياة.

إن اللامعقول جعله ينقد الوضع السائد حتى يخرج الإنسان من دوامة الشك على محاولة إعادة بناءه من جديد وهذا ما عبر نيتشه بالإنسانالأعلى وكامي عبر عنه بالإنسان الثائر والمتمرد.

لا يقل كامي شانا في رفضه للمعقولية على موقف نيتشه والواجب في نظره هو الإصرار على الوقوف عند اللامعقول، وألا ينساق الإنسان وراء السراب الذي يصوره له إغراء الفرار من اللامعقول ويتجاوزه وهنا يستطيع كامي أن يعالج الحل الواجب اتخاذه بعد أن أمر بأنّ كل ما في الوجود لا معقول[2].

ومن أجل هذا يقلب وضع المسألة فتكون الحياة عبارة عن سؤال مفاده أيكون للحياة معنى حتى يحياها الإنسان؟، وبعبارة أخرى: يجب على الإنسان أن يقر بأنّ الحياة خالية من المعنى ثم يكيف موقفه منها تبعا لذلك.

---

[1] عبد الرحمن بدوي، **دراسات في الفلسفة الوجودية**، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1966)، ص160.

[2] **المرجع نفسه**، ص 163.

والموقف الوحيد الخليق بأنّ يفقه المرء في هذه الحالة هو الثورة (LA REVOLUTION)*. إنها نتيجة مقارنة مستمرة بين الإنسان وظلمة الوجود فيضعالإنسان الوجود موضع تساؤل والامتحان باستمرار في كل لحظة.

هذه الثورة من شانها أن تثبت في المرء وعيا ويقظة فيظل الإنسان حاضرا نفسه باستمرار، وليس هذا طموحا وتطلعا بل هو خلو من كل رجاء، يقول كامي: "هذه الثورة هي توكيد لمصير قاس مدمر، دون أن يصعب ذلك تسليم به"[1].

هذه الثورة لدى كامي تشبه إلى حد ما ثورة نيتشه التي طالب بها عصره فأراد أن يخلق نمطا يونانيا ديونيزيا على حياته المعاصرة فيظهر زرادشت ذلك الإنسان المحب للحياة والتضحية من أجلها.

تجسد ذلك في النوع الأرقى هو الإنسانالأعلى نحن نجد هذا الخطاب الثائر من قبل نيتشه وكامي والتأكيد على اللامعقول، مما يتيح الفرصة للإنسان بأنّ يمارس حياته بمعناها العميق.

فالحياة ليست مجرد تصورات ومواقف نظرية يمتلكها الإنسان عن الحقائق المتنوعة بقدر ما هي إدراك هذه المعاناة من وجود قلق، تمرد، وثورة إن ما أن حقيقة الوجود تقتضي ذلك.

فالإنسان لا ينظر إلى الحياة أو الوجود نظرة المتأمل فقط بل عليه أن يمارس هذه الحياة بإعطائها معنى جديدا في إبراز الإبداعات الإنسانية والحضارية، إن ابتغاء الإنسان مرضاة الخطر والثورة مفاده دعوته دوما نحو اكتساب الطموح والتعالي وليس في خلق التمرد والعصيان والابتعاد عن النظام الذي يسود الحياة.

فالتنويه باللامعقول لدى الفيلسوفين هو محاولة تصحيح تلك النظرة الدوغماتية التي طبعت كل القضايا الإنسانية والفكرية والسياسية والاجتماعية وامتلاك على النقيض من ذلك أن اللامعقول تصور فلسفي يؤكد على ضرورة ربط كل تصور نظري فلسفي بما يتطلبه الإنسان في حياته ولا فائدة ترجى من التفكير إذا ما غيب الحياة وقلل منها.

ويمكننا أن نصف هذا التشابه بين تصدر نيتشه للحياة وبين تصدر كامي للحياة بأنّه وصف نحو الاهتمام بالإنسان لا غير، ومن ثمة تصبح هذه الحياة ذات صلة وثيقة بإرادة الإنسان، فممارسة الحياة بكل معانيها يختلف عن نظرتنا إليها دون أن نترك فيها آثارا إنسانية خالدة.

* الثورة (LE REVOLUTION) مصطلح اشتهر به نيتشه وكامي والغرض منه ليس ثورة سياسية بقدر ما هي ثورة إنسانية خالصة تهدف إلى إعادة اعتبار للإنسان نتيجة تردي الأوضاع وخاصة في العصر الحديث وجعل الفلسفة ذات طابع حياتي فني بعيد عن التجريد والتصورات الخاصة.

[1]Albert Camus, **L'étranger Et Autres Novelles Ouvrage** (présente par Tayeb Bouguerra, enag Editions Alger),2012, P 77

وإن اختلفت فمرد ذلك ان ضرورة فهم الإنسان ككائن فهما أصيلا لابد لنا من تقفي أثره في هذه الحياة.

اللامعقول موقف فلسفي لم يكن وليد فلسفة نيتشه عندما ثار على شوبنهاور أو عند كامي الذي احدث ثورة فكرية وإنما سبقهما إلى ذلك عندما نقد كيركجارد جدلية هيغل، وهذا بمثابة وضع حد لتطرق المثالية الألمانية في العصر الحديث كونها تضاهي العقلانية الفرنسية والتجريبية الإنجليزية في ذلك الوقت.

من هنا يؤكد الباحثون أن العلاقة بين موقف نيتشه وموقف كامي هي بداية خلق تفكير فلسفي جديد، ورسم صورة أكثر جمالية للحياة ناهيك عن التجربة المريرة[1] لكل منهما في الحياة، لذا جاءت أفكارهما أكثر صدقا ونبلا سيما من خلال المؤلفات التي تركاها.

يشترك نيتشه مع كامي في دعوتهما أحيانا إلى الفكر الإلحادي حيث نجد لهما موقفا شبيه بسارتر (1905-1980) حيثما يدعو إلى الحرية المطلقة لدى الإنسان، وليس هناك أي عائق يحد من حريته.

بما في ذلك إرادة الله، فعند نيتشه ـ كما قلنا آنفا ـ موت الإله يعني به نهاية أو أفول الحضارة الغربية المسيحية التي زادت من معاناة الإنسان وفي شقائه وقلقه والدليل على ذلك أن المسيحية لا تستعمل لفظ الإله بل لفظ الرب.

وهنا معاصرة نيتشه لما كان يحدث من خروقات دينية لم تحرم قيمة الإنسان وذلك باسم تمسكنا الأعمى بالعقلانية وعليه من الضروري إعلان الثورة على هذا النمط البائس للحياة.

أما عند كامي فهو نتيجة العقلانية وكما كرسته من انحطاط جرد الإنسان من التغني بالحياة، فيرى كامي إذن: أن الانتحار ليس خلاصا وإنما هو استسلام بأنّ الحياة لها معنى وأن الوجود لا معقول مع خضوع واستسلام لهاتين الحقيقتين.

على حين الثورة تسلم بهما مع الثورة عليهما "فالثائر يرفض الموت على أن المنتحر يعجل بالمستقبل الذي هو الموت، وهذه الثورة في نظر كامي هي التي تعطي الحياة قيمتها.

إنها بامتدادها على طول الوجود تعيد إليه عظمته وليس ثم منظر أجمل عند الإنسان الذي رفع غطاؤه من منظر العقل في عراكه مع الواقع الذي يتجاوزه، إن منظر الكبرياء الإنساني منظر منقطع النظر"[2].

---

[1] Albert Camus, **La peste ouvrage présente par Tayeb Bouguerra**, op-cit. P 207.

[2] عبد الرحمن بدوي، **دراسات في الفلسفة الوجودية**، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1966)، ص 164.

لقد أنكر نيتشه عقلانية الوضعية المنطقية (POSITIVISME LOGIQUE)[1] بعدما كان من مواقف مشرفة وجريئة في دور العلم في حياة الإنسان، لكنه لم يتوان في الإعلان عن رفض لتلك المغالاة التجريدية لقضايا العلم.

كما ادعت الوضعية القديمة وحتى الحديثة ذلك وبالتالي لم يعد العلم يخدم الحياة والإنسان؟ بل حرره من كل قيمه وأخلاقه حتى أضحى يسيء إلىالإنسان من استفحال الطغمة المادية.

وهنا يشارك يشارك نيتشه الوجوديين في رفض ذلك إطلاقا وإن كان يخالفهم أشد الاختلاف في دعوتهم إلى قطع الصلة بين الفلسفة والعلم.

لقد كان لهذا الانتقاء بين نيتشه وكامي الأثر العظيم البادي على شخصيتهما الثائرتين على الوضع الإنساني المتأزم تارة، وتارة أخرى على الانسياق التام للتفكير المجرد أو بالأحرى للعقلانية.

إنه ليكاد لدينا القول أن كامي يشبه كثيرا إلى حد تلك النزعة النيتشوية التي كانت في البداية وربما في منتصف حياته ذات حملات نقدية لاذعة وحادة إلى كل ما من شأنه أن يحتقر الإنسان ويقلل من شأن الحياة بصفة أشمل.

والذي أوثق الصلة بين الفيلسوفين هو زرادشت نيتشه وسيسوفوس كامي وجعل الإنسان الثائر المتحرر يؤدي دور كل منهما من منطلق أن زرادشت وسيسوفوس هم الفكر البطولي الذي يقدر معنى الحياة ويحافظ على بقائها فغذا ما امتلك المرء الحرية استطاع أن ينظر إلى أمور الحياة بنظرة التفاؤل والحكمة.

من هنا تدرك ما لقيمة الخطر والثورة من أهميةبالغة في الارتقاء بالإنسانية نحو التعالي، وكسب ثقة الطموح والأمل.

غير أن كامي كان يشعر في مكان الإنسان العادي بغربة الحياة لديه كان يمتلك منها سوى ذكر اسمها دون ممارستها لذا جاءت عياراته الفلسفية محزنة أكثر وربما الشيء المميز بينهما وهو أن نيتشه لا ينتمي إلى تيار الوجودية بينما كامي يعد واحدا منه ولاشك ان الحياة برمتها تثير كل فيلسوف اذ هو منح لها حظا من العناية والتقدير ونعني كل منهما بضرورة الحياة على لسان زرادشت ولسان سيسوفوس.

فها هو زرادشت يقول: "الحياة هي منبع السعادة إذا نحن منحناها التقدير والعناية فليس لكم مستقر إلا هذه الأرض"[2]، ويؤكد كامي أن الحياة إذا خضعت لمثل هذا النمط من العقلانية

[1]Martin Heidegger, **Nietzsche**, Traduit par pierre KLASSOWSKI (Gaillmard Paris France, 1971), P 143.
[2] FriedrichNietzsche, **Ainsi Parlait ZaraThonstra**, sigma, (Edition,1885), P 202.

يصبح لا معنى لها ونستطيع ان نجمل مذهب كامي هنا في عبارة واحدة: عش ثائرا على الحياة ومت ثائرا على الموت[1].

وهو في هذا الموقف يقول يجب أن نثور على الحياة مع بقائنا غاضبين فيها وإذا قسنا .... ثائرين لا مستسلمين عن طيب خاطر، وهذا في اعتقاده تكمن بطولة الإنسان.

هناك صفات عدة تجمع الفيلسوفين فنيتشه ذاته قال عنه كامي إنه فيلسوف لا مذهبي يشكل استثناءا فهذه الصفات التي اشتمل عليها قربه كثيرا إلى التيارات الفلسفية العظمى رغم امتعاظه الشديد وعدم انسياقه ورائها فهو بهذا التحول أضحى قريبا من الفلسفة الوجودية أكثر إذا ما قارناه ببقية المذاهب الأخرى.

وبالتالي كان المؤثر وليس المتأثر لذا تدرك في ثنايا كتاباته الفلسفية دوما انها تجسد كل مرحلة تاريخية معينة (دينية، نقدية، صوفية، فلسفية،...إلخ) يشترك مع كيركجارد في في قولهما بالقلق والخطر ومع كامي في نقد العقلانية والقول: باللاعقلانية.

ولدى كامي مؤلفاته زاخرة وغزيرة رغم موته المبكر الذي انهى حياته ولولا إنتاجه هذا لما كان جديرا بالمكانة التي بلغها وإن غيره من الكتاب لا ينتجون إنتاجه في هذا العمر القصير.

ومن ثم يرى كامي كما يرى نيتشه أن الديانة المسيحية أساءت إلىالإنسان في الكثير من الحالات فهي سبب شقائه وقلقه في الحياة، فالعقلانية التي نادى بها الفلاسفة الأقدمون وحتى المحدثون هي التي أدت إلى تراجع مستوى الإنسانية وقللت شان الوجود في نظر الناس.

فالمسيح جاء مخلصا للإنسانية من براثن الفساد والارتقاء بالإنسانإلى مصف السعادة والروح النقية لكن التصرفات المنبثقة من قبل رجال الكنيسة أساءت التقدير بل كرست الجبروت والظلم وخير دليل على ذلك انهيار تام للحضارة الأوروبية الحديثة وبروز العدمية كتصور جديد، بين تراجع مساوئ الدين والفلسفة والعلم عن الدور الأساسي لكل منهم.

هذه الأسباب والدوافع وغيرها ما جعلت نيتشه وكامي وربما كيركجارد من قبلهما تناقض العقلانية مع ذاتها وقصرها على الإلمام بكل مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والدينية ....إلخ.

ففي السياسة تجد غلو العقلانية حيث تصادم الأنظمة السياسية مع إرادة الجميع فيفقد القانون سلطته وتتقلص حرية الأفراد أما الاجتماعية وجود المشاكل والمآسي والشرور وعدم التكفل بكل حاجيات المواطن أو الأفراد.

[1] عبد الرحمن بدوي، **دراسات في الفلسفة الوجودية**، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1966)، ص 164.

ناهيك عن مستوى الفكر في كل ما يطرأ على حياة الإنسان من معارف وعلوم كلها ينطوي باسم العقلانية الصارمة وتبدو شكل الأحكام موثوقة لا جدال فيها دونما الإحالة إلى واقع الإنسان وما يحتويه من تجارب تزيد من إثبات وجود الإنسان وفهم واضح لهذه القضايا إذا هي ارتبطت بالحياة.

فبات كل شيء يعرف بواسطة العقل، غير انه مع بداية العصر الحديث تفطن الفلاسفة إلى أن العقلانية انتهى آمرها، نظرا لأن العقل لا يستطيع أن يفهم كل شيء وأحكامه تبقى مجرد تنضيرات أين انعكست العقلانية على تراجع مستوى الدين في أذهان الناس فانتشرت الشرور والظلم والعبودية، وغيرها من أشكال التعسف والتسلط. فكان لزاما حسب نيتشه وكامي أن يعلن الإنسان عن ميلاد ثورة كاسحة تغير مجرى الحياة والتاريخ وتخلق أنسانا على نمط زرادشت وسيسوفوس.

اشتهر كامي بفلسفة التمرد والثورة[1] الوجود لا معقول والموقف الوحيد الخليق بالإنسان هو الثورة ويتساءل هنا: ما الثورة؟، ومن هو الثائر؟، إن الثورة هي إعلان عن نقد الوجود لا عن حالة من حالاته ويسميها بالثورة الميتافيزيقية ويعرفها بأنّها الحركة التي بها يثور المرء على حاله نتيجة الاستبداد والقمع المسلط على الآخرين .

فالثورة ترفض الإذلال وتجعل المرء يطالب بكرامته وحريته أمام الوضع المتردي لذا نادى كامي بضرورة الثورة من قبل الإنسان حتى يتسنى له إثبات وجوده واستمراره قد نجم ذلك بفضل العقلانية كونها دعمت مثل هذه الادعاءات اللاحضارية التي أرست الشقاء والبؤس في حياة الإنسان وعليه جاء الدين والقيم والأخلاق في نمط باهت خال من الأبعاد الإنسانية والجمالية.

وفي هذا الشأن قصد نيتشه ان الثورة يجب أن تبدأ في الإنسان في حد ذاته بما يخلق فيه روح العزيمة وإرادة القوة فيسعى جاهدا نحو المطالبة بالمزيد من تحقيق الحاجيات.

وعليه فالقول باللامعقول في نظر نيتشه وكامي معناه أعطاء معاني حديثة للإنسان وللحضارة وتكريس قيم جديدة وأفكار أكثر حداثة تدل على اليقظة والنهضة من جديد يبدي نيتشه تساؤلات حول ما معنى ما الإيمان؟، ما معنى الحب؟،

[1] عبد الرحمن بدوي، **دراسات في الفلسفة الوجودية**، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1966)، ص169.

يجيب قائلا: "الوجود يكون أكثر إنسانية إذا ما بذل فيه الإنسيان قدراته الإبداعية لا أن يبقى ذلك المتأمل على نمط ذوي التفكير العقلي التجريدي مما يكون الوجود بعيد عن الشك"[1].

يلجأ نيتشه مرة أخرى إلى القول: بأنّنا بحاجة ماسة للحياة على الدوام، يعود كامي إلى التمويه بالثائر بعدما بين لنا معنى الثورة فيحدثنا عن معنى الثائر، إن الثائر الميتافيزيقي يثور على عالم ممزق كي يرده إلى الوحدة إنه يعارض مبدأ الظلم المتفشي.

فالثائر الميتافيزيقي يميل إلى الوحدة السعيدة ضد ألام الحياة والموت ن إن الرابطة القوية بين الشخصيتين الثائرتين النيتشوية والكامية تكمن في تلك المحبة والإخلاص للفكر اليوناني الاغريقي سيما أثناء نشأة الفلسفة الطبيعية المادية قبيل سقراطية السوفسيطائية والأفلاطونية والأرسطية لأن هذه الروح اليونانية لم يكن أثرها سطحي على نيتشه وكامي بل كيف أراد أن يحييا عصريهما وفقدا نمط اليونان وخاصة الروح الديونيزية المفعمة بالرومانسية وحب الحياة .

من هنا تطرأ مبادئ اللاعقلانية وخاصة في ببطها بالواقع البشري دون البقاء ضمن الأفكار والتصورات المذهبية الفلسفية علاوة على ذلك فالتشابه بين نيتشه وكامي يزيد من قيمة التراث الفلسفي الوجودي ولعل هذا ما جعل نيتشه في اعتقاده يمل إلى هذا التيار دون غيره.

بدا الثائر اليوناني واضحا وجليا في تصورهما الفلسفي لأن العقلانية في نظرهما كانت ضد امتلاء الحياة عن طريق الاهتمام بما ينفع الإنسان من جهة وما ينفع حياته من جهة أخرى.

وخير دليل على ذلك أن ولعهما بزرادشت وسيسوفوس (**ZARATHOUSTRA /SISYPHE**) هو الذي مكنهما من تكريس الروح اللاعقلانية التي تمجد تقديس الإنسان باعتباره موضوع الوجود والعمل على المحافظة على الحياة والرفع من علو شانها.

لقد كانت الحياة اليونانية قبيل التفكير المجرد حياة زاخرة مفعمة بالرومانسية وحيوية الطبيعة حيث لم تكن تلك المآسي والحروب والفتن والأحقاد موجودة، إنما طفت إلى حياة الإنسان بعدما جاءت العقلانية وسعت إلى إعادة بناء المفاهيم الفلسفية ومن ثم تغيير نظرة الإنسانإلى الطبيعة، فكثر الجمود والسكون.

إن العقل يبعث ثباتا لا يعرفه الواقع أو على اللغة والمبادئ العقلية التي تصور طبيعة الواقع المتغير تصورا مزيفا كما تخفي عنا حقيقة الشيء في ذاته ولعل هنا يكمن نقد نيتشه

[1] FriedrichNietzsche**, Elément pour la Généalogie de la morale**, Traduit par Patrick Wolling (Libraire générale, française 2000), P P 102-103.

لكانط* وقوله المميز بين العالم الظاهري وعالم الشيء في ذاته واعترف بهذه التفرقة ضمنا حيث أكد أن للواقع صورة تخالف تلك الصورة التي ترسمها له وسائل المعرفة الإنسانية.

وبهذا النقد يتحدث نيتشه عن أصل المعرفة وأصل الحقيقة فيراهما في النفع الحيوي ويردهما إلى عوامل خارجة تماما عن نطاق السعي الخالص إلى المعرفة والحقيقة.

إن المعاناة البشرية تجعلنا نعتقد بوضوح أن الطبيعة أو الوجود في تغير دائم[1]، وعلى هذا الأساس فالعقلانية تهمل هذه الأحوال النفسية الإنسانية حيث تدلي عليها بأحكام كثيرا ما تكون بمنأى شديد عن حقيقة وجود الكائن البشري في الحياة.

ولكي نفهم أحوال الوجدان فلا بد لنا من ردها مباشرة إلى الحياة لا أن نبقى نتصورها ونتوهمها بواسطة التفكير العقلاني، وهنا مكمن الفرق بين العقلانية واللاعقلانية، ويرى كامي أن التمرد على الطابع السكوني يولد في الإنسان الطموح.

فبدون الشك تظل الحرب[2] مجرد لحظة عابرة يفقد معها الإنسان الاعتزاز بالمواطنة، بعد ذلك يشعر المرء حيالها بالسكون.

إن كامي لم يقصد بالحرب نشر الفوضى وإثارة الفتن بقدر ما يخلق روح المقاومة والصبر أمام قساوة الحياة الصعبة ولربما يشبه تصور نيتشه عندما حبذا فكرة الحرب لأنها دعوة إلى إعلاء من المجد البطولي نحو كسب المزيد من القوة والإرادة رغم اتهامه من طرف منتقديه بأنّه يدعو إلى خلق الضغائن والأحقاد.

لطالما كانت ثورة ألبير كامي ثورة عارمة شقت طريقا في العصر الحديث وأحدثت نزعة تحررية خالصة فكان جموحه الجنوني المدمر نقدا لاذعا للعقلانية التي سيطرت على القضايا الفلسفية وعلى الحياة.

فبين لنا كامي في رواية الغريب (**L'etranger**) أن الإنسان فقد وجوده الكامل في عصر سادته تلك الأفكار القديمة واستشعر بلحظة الضياع وفقدان الأمل (**Désespoir**).

*لقد ركز بعض الباحثين أن هناك تشابها بين الفلسفة الكانطية المثالية وبين فلسفة نيتشه الحياتية في النظر إلى مفهوم العقل والعقلانية وإن كان نيتشه يختلف عن كانط في قوله بأنّ العقل هو المسؤول عن تزييف الواقع والدعوة نحو اللاعقلانية إلا أن كانط يعتبر العقل مصدر لكنه غير كاف نظرا لوجود حدود يقف عندها أو ما يسمى Phénomène .

[1] FriedrichNietzsche,:**Aurore**, Traduit par Julien Hervier sigma, (Edition, 1880), P 111.

[2]Albert Camus la peste **et autres novelles ouvrage présente par Tayeb Bouguerra**, (Editions Alger 2012). P 53.

من هنا يقدم الإنسان باستجماع قواه ليعود إلى الحياة من جديد ويعلن عن ميلاد حياة جديدة حيث يضع حدا بهذه الأوضاع المزرية ويصنع الإنسان لنفسه مكانة رفيعة وتقويما حديثا لمستوى التفكير والقيم والأخلاق والحالات الوجدانية.

إنما الشعور بالغربة لدليل على العقلانية الصارمة ومن ثم لابد من إيجاد بديل آخر يغير به طابع هذه الصرامة العقلية المجرد والقول باللاعقلانية ففيها الثورة والتضحية.

فكلما نقرأ لمؤلفاته نجد لها صدى عميق بفلسفة نيتشه الثائر هي الأخرى عن الأوضاع اللاإنسانية وردت إلينا فلسفته في نمط جمالي وفني استهوى الباحثين وأثر فيهم أسلوب الفلسفي في معالجة فلسفته وآرائه في شكل حوار بين الشخصيات في القصة أو الفيلم أو المسرح... إلخ.

تلك الفنون ليست ببعيدة عن التراث الفلسفي الوجودي وهي تحول استيمولوجي وقطيعة معرفية بين الفكر الفلسفي التقليدي وبين الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر، والقول بالخروج عن نظام النسق ميز لربما الفلسفة المعاصرة تماما والوجودية على وجه التحديد عن الفلسفات الوثوقية (**DOGMATISME**) القديمة.

واكتفت الوجودية بالثورة على كل ما يمت إلى العقلانية (**RATIONALISTE**) من صلة، فها هو نيتشه وكامي يدعوان الإنسانإلى الفردانية (**L'INDIVIDUALISME**) والقضاء على الأفكار الأزلية الأبدية والإبقاء على اللاعقلانية.

من هنا يؤكد نيتشه جانب الهدم من أجل إيجاد شرعة قيم جديدة تقوم كل شيء من جديد.

من هنا كانت النزعة العدمية (**NIHILISME**) التي تؤدي بدورها إلى إرادة القوة التي بفضلها سيوجد "الإنسانالأعلى" وهنا نستطيع أن نصف لا عقلانية نيتشه وكامي بالنزعة ما فوق الواقعية "السيرالية"* (**SUREALISME**).

هكذا يتبين لنا أن النقد الذي قدمه نيتشه إلى العقلانية نقدا فيه روح واقعية حيث رأى ان الميتافيزيقا قديما طغى عليها التفسير العقلاني المجرد ولا سيما عند الفلاسفة كلهم، مما يستحيل أن نقف عند هذا الحد ونثق وثوقا تاما لمثل هذه التصورات.

* لقد شاع في العصر الحديث مفهوم السيريالية (Surrealisme) واختلفت اتجاهها المفاهيم بين الفلاسفة والأدباء والشعراء وحتى رجال الدين وتركز جل الدراسات الفلسفية الانتروبولوجية أن هذه الكلمة تعني في مجملها صرخة العقل في حالة الثوران على نفسيه محطما كل العقبات، وتعلن أن الإنسان بريء لهذا وجب منحه كل القوة، لكنها تدعو أحيانا إلى تمجيد القتل والانتحار في منظور الدين ومن الناحية الفلسفية فتهدف إلى الاتصال الوثيق بينها وبين الماركسية والفوضوية وماشا كلهما من مذاهب تدعو إلى تحطيم المجتمع كله، فمصطلح السريالية له مفاهيم متعددة حسب الفكر والأدب، والدين، وقد اتخذها نيتشه وكامي حسب المقارنة بين فلسفتيهما، وأقوال الفلاسفة الآخرون للتنويه ببروز اللاعقلانية، حيث مبادئ الفكر الفلسفي الحداثي والمعاصر.

لم يستفد الإنسان أية فائدة من تلك الموضوعات الفلسفية القديمة لما كانت ذات أحكام نظرية خالصة لم تراع الواقع كما هو حتى وقع الإنسان في تناقضات وأخطاء كثيرة لم يقدر على إيضاح موقفه بشكل متباين.

وينطلق نيتشه وكامي من الجدل بين العقليين والتجريبيين وحتى بقية التيارات الفلسفية الأخرى حينما تقدم انتقادات هامة للعقلانية فهي في نظر التجريبيين تفتقر إلى أدنى الآراء كون المعرفة عندئذ ليست فطرية بل مكتسبة.

فمبادئ العقل مهما كانت ذات التفكير العقلي الناجم عن استعدادات ومؤهلات قبلية إلا أن التجربة أيضا تجعل هذه العقلانية بعدية وتأتي التجربة قبلها والقول باللاعقلانية هو أنه يجب على الفلسفة أن تعيد النظرة إلى الواقع الإنساني وترتكز على همومه ومعاناته وحالاته الوجدانية التي لا تلقى السند في توضيح مدلولاتها.

من هنا اعتبر كل من نيتشه وكامي أن الفلسفة بدأت تغير من نظرتها إزاء القضايا ولا شك أن الوجودية هي التي أحدثت مثل هذا التطور على مستوى التفكير في بروز مبادئ اللامعقول والنظر في المعرفة، الوجود، القيم، الأخلاق، الدين، العلم،... إلخ، نظرة واقعية بحتة لا تتعلق بالأحكام فقط بل تهدف إلى ربط فكر الإنسان بواقعه المعيش.

لقد أراد الفيلسوفان بالروح اللاعقلانية ان تصير روحا جديدة في الفلسفة وأن تكون فلسفة الحياة وليست فلسفة التفكير الفلسفي المجرد، ولا شك أن استعمال الوجوديين للفنون من قصص، روايات، آداب وموسيقى، وأفلام ومسارح لدليل على ان الثورة التي أحدثها الفيلسوفان هي تحول نوعي على مستوى تاريخ الفلسفة عموما.

إن العصر الحديث غير كثيرا من الطرح الفلسفي تجلى في الانتقادات الوجودية للعديد من الآراء الفلسفية القديمة خصوصا في إهمال هذه الخيرة لمعنى الإنسان والإنسانية في هذا التحول التاريخي والفكري تبدو لنا إسهامات نيتشه وكامي في إحداث الثورة فهي لا تكون كذلك حتى يسير فيها التغيير السياسي جنبا إلى جنب مع التغيير الاجتماعي والاقتصادي .

أما عدا ذلك فيسمى تعديلا أو إصلاحا لكنه لن يعد ثورة أبدا، ولعل كامي يفرق بين الثورة والتمرد في أن التمرد ينقضي سريعا حيث يخلو من إحكام وتماسك، اما الثورة فتبدأ بفكرة أنها إدخال للفكرة في سياق التجربة التاريخية على حين أن التمرد هو مجرد حركة تفضي من التجربة الفردية إلى الفكرة.

كانت مواقف نيتشه وكامي من جل القضايا الفلسفية تتسم بنوع من الطرح الوجودي الفلسفي على غرار الفلسفات التقليدية، اللامعقول هو اتجاه فلسفي تنقل الآراء الفلسفية من مستوى التنظير إلى مستوى الحياة ومعايشة واقع الإنسان.

وهذا ما انطبع على حياة كل منهما خلال مسيرته الحياتيه المفعمة بالتجارب الإنسانية المتنوعة وبالتالي كانت مواقفهما أكثر جرأة وحماسة بالمقارنة مع الفلاسفة الآخرين خلاف الوجوديين.

ولما كانت هذه الثورات التي هاجمها كامي تشمل ثورات بورجوازية وأخرى اشتراكية ثورات عقلية وأخرى لا عقلية، وهنا يقال: إن تحليل كامي "هو ثورة على كل ثورة"[1]، فإنه كان من الطبيعي أن يكون كتابه هذا كتاب ذو نقد عنيف .

لقد أراد بهذا النقد أن يزيد من حدة الجدل الفلسفي بين المذاهب على اعتبار اللامعقول يؤدي دائما إلى إبراز مفاهيم جديدة نسبها العقل وعدم الاتفاق بين هؤلاء الفلاسفة يؤدي بنا حتما إلى التغيير وأن امتلاك العقل لزمام الأمور، أمر بات مستحيلا

ويرى نيتشه أن العقلانية عجزت عن إيجاد مبرر لمعنى الوجود، لأنها سعت نحو العلم الدقيق وابتعدت عن الحياة، ويقول: "إننا نحن إذا ما أدركنا قيمة الوجود الإنساني وعملنا مع الاهتمام بعدم توصلنا إلى فضح الأخطاء المشبوهة للعقلانية، انها بداية كتقويم شامل لكل الموجودات حتى تغدو إلى شكل منتظم"[2].

ويقر نيتشه أن الحكم على مظاهر الأشياء يتنافي مع معرفة مضمونه الجوهري، من هنا يقرأ أن العقلانية تدعي على الدوام أن يكون العقل سيد المعرفة بدون منازع ومما لا شك فيه أن عمل نيتشه وكامي قد أحدث ثورة فكرية شاملة على مستوى الفكر والإنسان والحياة لكن كامي لا يريد أن يقف الموقف السلبي، إن ما ينتهي إلى موقف إيجابي.

إنه يعرف أنّ الثورة هي عصب الوجود وأنها حركة الحياة نفسها ولا يمكن للمرء إنكارها إطلاقا، إن الثورة كفاح مستمر من قبل الإنسان لتحقيق مصير مشترك، لكن يجب الحذر من فرط التفاؤل فلا فائدة ترجى منه في شقائنا الذي نعانيه لذا علينا بالشجاعة والصبر .

فالثورة دوما تصطدم بالآلام والشرور حتى تبيح للإنسان من اكتساب الجرأة للتخفيف من المعاناة والشقاء في الدنيا، لكنه مهما سعى فلن يقضي أبدا على الظلم والآلام وينوه كامي كثيرا يحب الثورة الإنسانية التي تترك أثارا ايجابية على مستوى الوجود من ناحية الفكر وحتى الحياة.

[1] عبد الرحمن بدوي، **دراسات في الفلسفة الوجودية**، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1966)، ص180.

[2] Vatimo Agianni, **Introduction a Nietzsche,** Traduit Fabieme Zanussi de BOOK et larcier, 1991, (l'édition Française) , P 42.

هذا رجاء الإنسان ممزوجا بطعم الرماد لأن الثورة لن تنتهي أبدا حتى يموت آخر بني الإنسان، لعل هذه الشروط النيرة لدى كامي عذوبة الكلام والصدق الإنساني الخالص للاهتمام بالوجود والدعوة نحو اللاعقلانية في النظر إلى الحياة.

إن الميزة في المقارنة بين الفيلسوف نيتشه وبين الفلاسفة الآخرون هو أنه اثر أيما التأثير في عصره وفي العصر الحديث بصفة عامة، فهو الذي جلب إليه جل الفلاسفة نظرا لسمات فكره الفلسفي المتنوع فتجد فيه كل صفات المذاهب الفلسفية جميعها دون أن ينساق وراء أي منها.

وعليه فالثورة التي أحدثها في عصره في الفلسفة والعلم والأخلاق والقيم وغيرها جعلت الوجوديين ينظرون إليه أنه الملهم الذي يزيد من بريق الفكر الوجودي إذا هم درسوا تراثه الفكري لما فيه من سمات أو صفات لدى كل مذهب يريد أن يجذبه إليه.

من هنا ارتأى الوجوديون أن يحسبوه واحدا منهم والذي يؤكد مزاعم هذا الطرح المقارنة بين فكرة القلق لدى كيركجارد زعيم الوجودية في العصر الحديث مع فكرة الخطر لدى نيتشه معرفة مواطن الالتقاء بين فكر الرجلين على الأقل الاهتمام بالإنسان أمام سطوة العقلانية المجازفة لكل القضايا الإنسانية المصيرية.

ناهيك على أنهما استطاعا أن يخرج الإنسان من حدة المأزق الذي كان متقوقعا فيه نتيجة تلك الأوهام لتصورات العقلانية بأنّها وحدها كفيلة بارتقاء الخطاب الفلسفي نحو التقدم والنقد البناء إلى محاولة تقديس صيرورة الإنسان انه يجب الإقرار بالنظر نحو الحياة والإنسان على حد سواء من منطلق انه كائن يتوق نحو الحرية والعمل على التضحية الجسام لبناء نظام وجودي إنساني لمعنى صيرورة الحياة.

ثم تجد هنالك تشابها بينه وبين ألبير كامي ذلك الفيلسوف الثائر كونه أعجب خير إعجاب بشخصية نيتشه الثائرة من خلال فكرة إرادة القوة، بعدما حطم قيود العدمية الأوروبية تحولت هذه الأخيرة نحو بناء الإنسانالأعلى الذي طالما تغني به نيتشه طوال حياته ومساره الفلسفي .

إن محاولة تقويم شامل للتاريخ البشري بكل ما يحفل به من مواقف فلسفية متناقضة وانجازات علمية أكيدة وفنون شتى من الموسيقى ومسرح وأفلام وقصص وروايات وفنون أخرى من الشعر إضافة إلى القيم والأخلاق والدين والميتافيزيقا لدليل يدل على الجرأة الفلسفية أرادت أن تخلق النمط اليوناني القديم وخاصة المرحلة الديونيزية القديمة على مستوى العصر الحديث.

لذا نعتبر نحن أن هاته المقارنة بين كيركجارد ونيتشه من جهة وبين نيتشه وكامي من جهة ثانية بمثابة نقلة نوعية ابستيمولوجية لظهور اللاعقلانية التي وضعت حدا للتطرف للعقلانية، إذ أنها عمرت طويلا في تاريخ الفلسفة مما جعل الإنسان يتألم كثيرا نحوها من خلال إهمال

دوره في الحياة وعدم الاهتمام بهذه الحياة أصلا فيكفي نيتشه فخرا انه شهد البداية لبداية الثورة الجديدة بدءا بالإنسان أولا ثم بالحياة ثانيا، هذه إذن نهاية العقلانية وبدء اللاعقلانية.

لم تروق لنيتشه جميع الأديان الشائعة ذلك لأنها لم تحترم الإنسان والحياة فمثلا المسيحية وما فعلته من تصرفات إنسانية في حق العقل و كبلته عن التطور فنجم الانحطاط والسقوط وتراجع مستوى الإنسانية.

كل ذلك في نظره راجع إلى الدين الذي لم يلعب الدور المنوط في مساعدة الإنسانية على الرقي بل على العكس من ذلك أساء إليه بكل قسوة وجبروت، إن الاقتراح الذي جاء به نيتشه في الفترة الأخيرة من تفكيره الفلسفي بما يمكننا تسميته "العود الأبدي" كونها تفي بكل الشروط التي افتقرت إليها كل العقائد الشائعة ولم يكن نيتشه في نظر البعض بأنّه يحتقر الدين أو يسيء إليه بل أنكر كل التصرفات السلبية الناجمة عن طقوسه وسلوك القساوسة والرهبانّ .

ولعله ناقم هنا على المسيحية باعتبارها ديانة عقائدية طمست كل القيم الإنسانية السامية ويعمل نيتشه بوجه خاص على فكرة الخطيئة[1] في المسيحية فالإنسان والطبيعة أبرياء والخطيئة وهم ناشيء عن انحراف نفسي حيث تعاقب الذات وتؤنبها تأنيبا شديدا .

إن فكرة العود الأبدي ترجع في كثير من تفصيلاتها إلى تعليم فلاسفة اليونان وخصوصا الفلسفة المادية الطبيعية كأول مراحل التفكير الفلسفي اليوناني واختلاف الآراء الفلسفية في تفسير أصل الكون وفق عناصره الأربعة المهمة (النار، الماء، الهواء، التراب).

ويعتبر نيتشه فكرة العود الأبدي مجسدة في النظرية المتناقضة للوجود بين صيرورة هرقليطس وثبات بارمينيدس.

لقد نسب نيتشه إلى نفسه هذه الفكرة ورأى أنه أول من نادى بالعود الأبدي لأنه أراد أن يعيد الإنسانإلى ماضيه الأول وخاصة الأصول اليونانية ناهيك عن مسار العصر الحديث من تدني شامل لكل المقومات الإنسانية والحضارية.

فقد كشف عن نتائج هامة للقول بالعود الأبدي واحتلت الفكرة من فلسفته الأخيرة موقع الصدارة، كما يرى هو أن الفلسفات اليونانية لم تستخلص لنا أية نتيجة أخلاقية سامية أو بداية عقيدة جديدة.

وبالتالي بدأ الطرح الميتافيزيقي مسيطرا على فكرة العود الأبدي عند اليونانيين ولم تبرز لنا نظرية فلسفية هنا تتحدث عن مفهوم العالم من الناحيتين الدينية والأخلاقية معا.

[1] Friedrich Nietzsche, **Humain trop Humain** Tome I, Traduit par robert Rovini, (Edition, Gaillmard 1868), P 123.

فالصورة التي يرسمها نيتشه لفكرة العود الأبدي تختلف كل الاختلاف عن التصور اليوناني الميتافيزيقي لها ومنذ ذلك الحين ربط فكرة العود الأبدي بالمجال الأخلاقي في نظرته إليها ونقده للدين.

لقد كان يسعى في حياته إلى محاولة خلق إرادة قوة تشمل كل مناحي الحياة ومنها يكرس فكرة العود الأبدي ويضفي عليها تفسيرا علميا فلا تعود عندئذ مجرد تفسير ميتافيزيقي كما كانت عند اليونان ويفضي هذا التفسير العلمي إلى أن الكون متناه ومحدود وبالتالي تتميز الروح العلمية عن الروح الدينية فنعتقد أن القوة هي دائما لامتناهية، فالقوة من ناحية المبدأ هي أبدية لكن من ناحية النتيجة ليست أبدية بل نسبية.

كما يؤدي التفسير العلمي إلى أن يكون الزمان لا متناهيا بمعنى أن تظل هذه القوة تمارس فعلها بلا انقطاع ويكون الكون قد أتم دورة من دوراته وتظل هذه الدورات تتكرر إلى الأبد خلال الزمان اللامتناهي.

ففكرة العود الأبدي تعتبر من النتائج الرئيسية للمذهب الآلي بل هي نتيجته الفلسفية الكبرى كما يقول ري (**Rey**)[1] فيكون العالم في المذهب الآلي مجرد حالات متكررة لامتناهية فتعريف الآلة هو أنها ما يؤدي وظيفته بشكل دوري منتظم بحيث يعود إلى نفس الحالات التي مر بها دون أي تغير يحدث.

ونجد أن المذهب الآلي يفضل التفسير العلمي (الآلي) على التفسير الغائي، وإذا كنا قد لاحظنا التفسير العلمي لفكرة العود الأبدي فإنّ نيتشه يرى أن هذه الفكرة لا تخلو من التفسير الفلسفي.

إن ما يلفت الانتباه في نظرية العود الأبدي نيتشه هو أن الوجود يقوم على فكرة الثبات من جهة ومن جهة أخرى يقوم على فكرة الصيرورة والتغير، فالعود الأبدي هو خير تعبير عن خلود هذه الحياة وحتى فكرة العود الأبدي.

فمن هنا نتذكر مدى تأثير فكرة العود الأبدي[2] في نيتشه وتلك الأماني التي أرادها في هذه الفكرة وهي خلق قدرة بشرية[3] تؤمن بالأرض وتكافح فيها كفاحا بطوليا كل ذلك يكون ـ في اعتقاده ـ بمنأى عن التصور الميتافيزيقي التجريدي الذي قفل حياة الإنسان حتى أصبح ينظر إليها نظرة إنسان متشائم لا يقوى على التقدم وإعادة كل المقومات الإنسانية والحضارية بغية التكيف مع الحياة ومسايرتها في كل لحظاتها الزمانية والتاريخية.

[1] Abel Rey, **Le Retour Eternel et la philosophie de la physique**, (Paris, 1927), P 14.
[2] Martin Heidegger, **Nietzsche**, Tome I Traduit par pierre KLASSOWSKI (Gaillmard Paris France, 1971), P 203-204-205.
[3] Friedrich Nietzsche, **La Volente de puissance,** Tome II, P 284-285.

الفصل الثالث
امتداد فلسفة نيتشه وأثرها على فلاسفة عصره

تمهيد:

المبحث الاول: أثر نيتشه على مارتن هيدغر.

المبحث الثاني: أثر نيتشه على جون بول سارتر .

تمهيد:

يشكل موقف فريدريك نيتشه هذا حداً فاصلاً بين الحديث والمعاصر في الفلسفة، لما كان لفكره من تأثير بالغ الأهمية في إحداث قطيعة مثلى مع الاتجاهات السابقة سواء كان في الشكل أو اللغة أو المضمون، كما غابت عن هذا الفكر جميع السّمات الكلاسيكية والمنطقية التي سارت قبله وهو الذي وصف نفسه بأنّه عبارة عن عاصفة هوجاء أطاحت بكل ما قيل عن الإنسان .

لقد امتاز نيتشه بجرأة حررت جميع قدراته العقلية والجسدية والعاطفية والتخيلية من كل القيود، ووجدت لديه لغة خرجت عن التماسك العقلي، تفتح المجال لذاتها ولقارئها افاقا واسعة لا تعترف بالحدود يضعها اي منطق او واقع، لقد خرج نيتشه عن اطار القول الأكاديمي في انتاج الفكر والابداع المواقف فورد اسلوبه في نمط الحكم والشذرات وصراحة القول المقتضب، ان حضور هذا الفكر بهذه الصيغ وبهذا المضمون حمل البعض على القول انه انسان مجنون تغلب عليه المرض، في حين قال اخرون انه عبقرية فذة لم ير التاريخ مثلها ابدا، انك عندما تقرا له يتبادر إلى ذهنك ان كل من يقرأ يبدي فيه الراي الذي يريد، لكن مالا يمكن ان ينكره القارئ الجاد عددا كان ام صديقا لفكر نتيشه، انه يعد نقطة التحول في التفكير الفلسفي، ليس ببعده عن المنظومات المنتسقة فحسب، وانما بما اقدم عليه قوله من تعد صارم وتام لموضوعات فلسفية وموضوعات اخري اساسية، والدليل على هذا لكونه شكل بعدا انسانيا وحضاريا سواء في فترته او فيما بعد، ان نيتشه الفيلسوف الثائر او الناقم على عصره بالذات وما نجم عنه من انحطاط كلي لمستوي القيم حيث فقد الإنسان معناه الأصيل، وفقدت الحياة معه بريقها الوجودي المفعم بالحيوية والتحرر من كل قيد والتضحية الدؤوبة من أجل امتلاء الحياة والعمل على الحفاظ عليها[1] وما حدث للفكر الفلسفي بصفة عامة من تدني في مستوي الافكار والعمل بها نتيجة تمجيد سلطان العقل حيث طغيان الجانب النظري، في تناول القضايا المهمة لدي الإنسان ظنا فيهم،ان هذه الممارسة اذا كانت بمناي عن الواقع الحسي والاكتفاء بالاحكام والمواقف العقلية فقط، تستطيع ان تمنح للانسان قمة النضج الفكري، وفهم الحياة[2] بكل ماتكتنفه من اشكاليات عويصة وعميقة، فهيهات أن يصير الفكر نافعا بدون حياة تبين لنا سره ونجاحه .

لقد مرت على وفاة نيتشه سنيين عديدة وما زالت القضايا التى أثارها هذا الفيلسوف تشكل غرابة بالنسبة إلى الإنسان وظل الفيلسوف حيا يؤثر بأفكاره ورؤاه الفكرية على عصره حتى اضحت منطلقا فكريا لبعض الفلاسفة لما رأوا فيه من قوة وشهرة ونضج فلسفي تجاوز

[1] غانم هنا، **نيتشه فاصل الحديث والمعاصر**، مقال في مجلة دورية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت العدد 4افريل يوليو 2002ص14

[2] Friedrich Neitzsche, Le gai savoir, Traduit par pierre Klossowski , Gaillmard, 1989, P 341.

ذلك السكون الثابت والتشبث بالأحكام المسبقة التي طالما تجعل المفكر يعيش الماضي ولا يساير المستقبل ان نيتشه كان قبل كل شيئ مفكرا حضاريا[1] ورسالته في الحياة لم تكن رسالة فيلسوف صاحب مذهب نظري وانما كانت أساسا رسالة ناقد للحضارة التي يعيشها وعلى الرغم مما وجَّه من النقد للحضارة الأوربية المعاصرة لسبب واضح، وإن تلك الحضارة كانت تمر بفترة انتقال إلى عهد جديد مع ذلك سيظل نيتشه على الدوام المفكر يقرأ له الناس ويقرأون عنه بشغف واهتمام ومهما تباعد العصر عن افكاره الاصيلة فسيظل الناس يجدون متعة في كتاباته كونه عالج العديد من القضايا الجوهرية باسلوب لا يخلو من الحماس والقساوة تارة وبالحكمة والزهد تارة اخرى ان مراحل الفكر النشتوي بيَّنت لنا تجارب الفيلسوف وحياته في كل مرحلة من عمره الطويل تأثره بالرومانسية في كتاباته الأولى حيث اظهرت لنا ولوعه بالفن والموسيقى ثم انتقاله إلى الاهتمام إلى قضايا العلم ودوره المنوط بحياة الإنسان واخيرا نحو العود الدائم لبناء الإنسان والحياة التي تدفقت في اسلوب التصوف والحكم كانت تجاربه مفعمة بحب الحياة والاعلاء من شانها والمحافظة عليها ودعوة الإنسان إلى اثبات قدراته الكامنة فيها بغية الاعلاء من شانه وتقديسه، لانه يبقى جوهر الموضوعات الفلسفية ليأتى في المقام الأول لطالما شكلت الحياة وحبه العميق لها مضمون فلسفته ومصدره الاساسي ان الثراء في فلسفته جعله احد اساطير الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر حيث ترك نيتشه اثرا باديا في عصرالفلاسفه والكتاب والشعراء وغيرهم حتى عُدَّ عندئذ صاحب نظرة ثاقبة وناقدة لكل ما طبع الحياة البشرية من جهة وما طبع عصره بالذات من جهة اخرى ان التاويل الحالى لقراءة نيتشه رغم تضارب الاراء حوله[2] هى انه يحب اللجوء إلى تتبع مراحل التراث النتشوى وقراءته بعمق حتى يتسنى لنا استخلاص قراءة تأويلية اكيدة ان نيتشة في هذا السياق يذكرنا بوجود علاقة بينه وبين أرسطو طاليس الفيلسوف اليوناني في موقفهما إزاء الميتافيزيقا عندئذ يبقى نيتشه فيلسوفا ميتا فيزيقيا مهما[3] من خلال إعادة إحياء الأسئلة القديمة من جديد تتمثل في أصل الميتافيزيقا واصل الوجود وكيف ينظر الإنسان إليهما اليوم .

إمتدت فلفسة نيتشه أكثر في العصر الحديث خصوصا وانها جاءت مفعمة بحب الحياة العميقة من خلال تأثرها بالفكر الاغريقي وكذا تأثرها بفلسفة شوبنهاور وفاجنر إلا أن هذا التأثر زاده ثورة وتحررا أكثر،الأمر الذي جعله لا يستقر عند اراء معينة فهو يعتمد عليها من أجل رسم فكر فلسفي جديد يرتبط كلية بإرادة الحياة.ففي فلسفته الوانا شتى من التفكير الفلسفي وهذا يدل بصراحة على انك تستشف عند قراءاتك لمؤلفاته بتتابع مستمر. حتى تدرك الجديد في حقيقة التراث النيتشوى الفلسفي لاتستطيع ان تفهم اطلاقا فلسفته الا من خلال الاطلاع عن

[1] فؤاد زكريا، **نيتشه، المرجع السابق**، ص08.

[2] Vatimo agianni, **Introduction a Neitzsche** (de Bocek et larcier**,** 1991, Pour l'édition française, départment de Bocek 1991 Univercité Paris, Bruxelles), P09.

[3] Heidegger Martin, **Neitzsche,** Tome I, P13.

كثب على مسيرة حياة هذا الفيلسوف التاثر بهذا الوصف يعتبر نيتشه احد اساطين الفكر الفلسفي الحديث شأنه شأن ديكارت كانط هيغل ماركس.....الخ.

وبالتالي صار هذا الفكر أكثر تحررا من التفكير الكلاسكي ومواكبة الحياة مما يصبح الفيلسوف حرا في الاراء و المواقف هذا الامر جعل المذاهب الفلسفية الحديث تتبني الفكرة بوضوح ان المؤلفات الفلسفية التي ألفها في حياته مازالت تحمل ذلك الصدي الغريب الذي يجعل الإنسان أو القارئ أو الباحث يلتمس فيها بعدا انسانيا وفلسفيا لأن الثورة التي أحدثها نيتشه لم تكن سوى إعادة الاعتبار لمكانة الإنسان، فهو صانع الفكر و الإبداع و الفن و القيّم و ما شاكل ذلك. وعلى هذا الأساس تظل إرادة القوة قوة محفزة للإنسان كيما يتخطى تلك الصعاب، وتغيير كل تلك الاشكال الفلسفية الغارقة في التجريد و أحكام العقل فحسب دون إعطاء للتجارب البشرية وحتى الوجود قيمة تذكر، فنجم عن ذلك تأخر الفكر الفلسفي وسقوطه ضمن الحضارة الاوربية الحديثة، فهي التي أساءت تقدير مفهوم الإنسان ومكانته الاجتماعية وضيّعت قيمه و دينه. لذا كان من الضروري أن ينتفض الفيلسوف عندما يجد الأمور قد تدهورت أو خرجت عن جادة الصواب، فيشرع وقتئذ في إعادة ترتيب حياة الإنسان وقضاياه الجوهرية وفق منهج جنيالوجي تأويلي قصد الاعلان عن الميلاد الإنسان الأعلى الذي يعيد الترتيب جميع القضايا بعدما فقدت وجودها الحقيقي وضاعت الامد الطويل من الزمن الغابر أين كان الإنسان يعيش في الاوهام ضنها اليقين بذاته لا يتطرق إليه الشك مهما بدا عميقا لقد أبان هنا نيتشه عن المنهج الحفري الذي يبحث في اصول الفكر الفلسفي من خلال علاقته بالإنسان والحياة حيث افصح عن وجود تيار فكري معاصر يتبني منهجا مغايرا يدل على اثر نيتشه في مفهوم الفكر الحديث وبروز مفاهيم جديد تطرح ضمن تاريخ الفلسفة بعدما ارادت الوجودية ان تحتويه ويصبح رائدا من روادها سرعان ما تجاوزها بكثير إلى الاعلان عن رؤية فلسفية جديد قائمة على البناء والتفكيك وليس في الاهتمام بالإنسان فقط بل بالحياة أيضا.

بدا فكر نيتشه أكثر اتساعا من خلال انتشاره في أوروبا، وبالخصوص في ألمانيا، حيث نجد له أتباعاً مثل كارل ياسبرز، مارتن هيدغر و غيرهم. و كانت فلسفته تمثل امتدادا لروح كانط، وهيغل وإن كان نيتشه متميز عنهما في بعض المواقف الفلسفية لما فيها إشادة بالإنسان من جهة، وبالحب العميق للحياة من جهة أخرى.

المبحث الاول: اثر نيتشيه على مارتن هيدغر

قبل الإشارة الحديث عن علاقة هيدغر بنيتشه وتأثره الشديد بالتراث النيتشوي. لابد من إعطاء لمحة وجيزة عن فلسفة هيدغر و الموضوعات الرئيسية التي يبحث فيها إن الموضوع الأساسي الذي تدور حوله كل فلسفته هو الوجود L'être و واجب الفيلسوف في نظره هو إيضاح معنى الوجود و المنهج المستخدم هنا هو الإشارة، فالوجود لا يقبل البرهان عليه هكذا، بل بالإيضاح والكشف، فهو اسم مشترك بين الأشياء وبين السائل نفسه الذي يسأل عن معنى الوجود، يتساءل هيدغر: أين تتجلى ظاهرة الوجود ؟

إن الموجودات نفسها تعبّر لنا عن معناه الحقيقي، و هي تستمد كلها وجودها منه، فهناك فرق بين الموجودات والوجود. لكن الوجود ذاته ذاته ليس موجودا من الموجودات بل هو ما يعطي الوجود لكل ما هو موجود، لا كمبدأ سببي خارجي، ولهذا لا نستطيع أن نصفه بأنّه الوجود فقط، يتعمق هيدغر أكثر في تفسير الوجود باعتباره موجود في كل مكان، لكنه لا يبدو على نحو واحد، بل يبدو على أحوال عدة للوجود وأنماط مختلفة للموجودات وجود الشيء، وجود الأداة، وجود الإنسان ...إلخ، فبأي نمط من هذه الأنماط نبدأ البحث ؟ يجب هيدغر: "إنّه وجود الإنسان، وجودنا نحن، فالإنسان هو الذي ينبغي أن نبدأ به البحث، إذ لا توجد نقطة ارتكاز أخرى أقوم من الإنسان، فأوّل ما نبدأ به البحث في الوجود هو إذن : تحليل وجود "الإنسان" "L'homme"، وعلى هذا التحليل أن يوضح هذا الموجود أي: (الإنسان) الذي يتساءل عن وجوده، فالإنسان هو الموجود الوحيد القادر أن يلقي موجودات أخرى، موجهاً إليها انتباهه بفضل اتصاله بها، وبالنسبة إليه وحده تصير هذه الموجودات منكشفة و واضحة له، لهذا يؤكد هيدغر بالقول: "إن ماهية الإنسان جوهرية بالنسبة إلى حقيقة الوجود "L'essene de l'homme est substentiel pour la vérité de l'être"، ووجود الإنسان ينعته هيدغر "بالآنية" "Le Dasein" (تعني الوجود هناك)، الوجود في العالم، وهذه العبارة لا تشتمل فقط على المعنى المكاني، بل وأيضا على المعنى الأنطولوجي ومهمته ستكون إذن الكشف عن الوجود الإنساني بعامة، والصفات الجوهرية للإنسان، تلزمه أن يتناول كل أحوال وجود الأنية، وأوّل خاصية جوهرية للوجود البشري هي أنّ وجوده لا يشبه وجود الشيء، فهو غير ثابت بل متغيّر من فرد إلى آخر، وكم يعبّر عنه هيدغر بالوجود الإنساني الذي هو أصل الوجود في حدّ ذاته و الموجود فيه أي (L'être et l'etant ce qui est)، أو بعبارة أخرى الإنسان في العالم (L'home est dans le monde) في هذه الحالة الوجودية ليست إلا شكل من أشكال تاريخ الميتافيزيقا، التي كانت منذ البداية نسيان للوجود، فغلب عليها نسيان للإنسان تماما نتيجة تلك الأبحاث الفلسفية القديمة، التي ضيّقت من مجال معنى الميتافيزيقا و وضعتها ضمن تصورات الأنساق فقط، والخـــــــــاصية الثانية هي أن آنيته مشـــــــــروع يتحقق

باستمرار ثمّ في النهاية الحرية وهي فعل يمارسه الإنسان دون قيود أو إكراهات في نظرته إلى الوجود.

إن الجانب الفكري الذي يجمع نيتشه بهيدغر هو البحث في مسألة الوجود وعلاقة الإنسان به، ثمّ يتحول هذا الوجود المادي الذي يتجلى في موجودات هي تأكيد لحضور الإنسان لأنه ببساطة هو الذي يدرك وجودها الحقيقي، هذا الأمر لم تهتم به الميتافزيقا قديما ونها نسيان الوجود البشري مما أضحت بعيدة عن الحياة، وما فيها من مشكلات إنسانية عديدة.

إن نيتشه و هيدغر يعلنان بطرحهما رفض الميتافزيقا الكلاسيكية، لأنها أحجبت قيمة الفن ومظاهره العديدة في نظر نيتشه، و لم تعبّر عن الوجود الإنساني إطلاقا في تصور هيدغر حول التساؤل النيتشوي المستمر المقلق اتجاه الحضارة الأوروبية الحديثة، و ما نجم عنها من تراجع و اندثار لمستوى الإنسان بقيمة دينية، فكرية، سياسية، أخلاقية ... إلخ، و الإ'لان عن بداية الثورة و التغيير في ابتكار منهج فلسفي جنيالوجي قويم لإستعادة بناء الحياة من جديد مما جعل هيدغر يتأثر بالخطاب النيتشوي الثائر و أنّه خير من مثل التفير الفلسفي المعاصر في ألمانيا على وجه الخصوص وفي أوروبا على وجه العموم.

كانت طريقة قراءة هيدغر لينتشيه معروفة في الاوساط الفلسفية الفرنسية قبل صدور ترجمة الباحث بيار كلوسوفسكي (Pierre Klossowski) لكتاب هيدغر 1971 ففي دروسه وفي دراساته المترجمة ان الجميع يعرف ان هيدغر (Martin Hiedegger) 1889-1976 يعتبر نيتشه آخر فيلسوف ميتافيزيقي اي ان فكره إكتمال المشروع الميتافيزيقي قد وجد لالبعض في هذا الغلو لا معنى له خصوصا مع نيتشيه الذي يعتبر علامة على الانفلات من القيود الميتافيزيقية وتمثل هذا الغلو في نظر البعض ان نيتشه ضد الميتافيزيقا من خلال تحامله الكبير على المفهوم الكلاسيكي التجريدي لها .اضافة إلى ذلك تتناول وهي بمنأى عن الواقع البشري تلك نظرة للباحثين الفرنسيين حول فلسفة نيتشه في حين يرى هيدغر ان هذه تكتمل عند نيتشه بمعنئ ان الميتافزيقا تبحث في حقيقة الوجود الذي كثرت حوله الاسئلة الانسلنية بغية الاتيان بالعديد من الاجوبة للوصول إلى اليقين الجازم ووضع حد لنزوة الشك.

ومن الصعوبة بما كان ان نفصل بين نيتشه وهيدغر لأنهما يشكلان اتجاه واضح ينتمي إليه بعض الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين كذلك الشأن بالنسبة للاختلاف بينهما حيث تجد فكرا واحدا يتجلى في تاويل مشترك بينهما فلذلك لا يمكن انهاء اصالة حوار هيدغر مع نيتشه،قراءة هيدغر لنيتشه قراءة نقدية لا تفصل هذا عن التراث الغربي الذي يكتمل في فكرة

نيتشه وجعله آخر الميتافيزيقيين الذي قاد الفكرة الغربية إلى ذروتها ان الميتافيزيقا التي قصدها هيدغر هي الانطولوجيا[1] اي حقيقة الوجود بما هو كذلك .

فالحقيقة الميتافيزيقية هي أكثر الوجود في ماهية وكيفية وجوده على النحو الكلي عندما نوه هيدغر بأنّ نيتشيه يدافع عن الميتافيزيقا ليس معناه انه يهدف إلى ذلك الطابع الكلاسيكي القديم بل كان غرض هيدغر من ذلك هو ان نيتشيه كان يقصد بالميتافيزيقا البحث العميق عن ماهية الوجود والصفات المتمثلة فيه .

وما يؤسس ميتافيزيقا نتيشيه هي العبارات التالية إرادة القوة (La volenté de puissance)[2] العود الأبدي (Le Retour Eternel) العدمية (NiHilisme) الإنسان الأعلى (SuperHome)، أراد نيتشه قلب المفاهيم لكن ما يشكل أساس موقفه الميتافيزيقي هو وجود الموجود كإرادة القوة وكعود ابدي لذات الشيء وبالتالي يظهر اثر نيتشه جليا على هيدغر في ابداعاته في الميتافيزيقا هنا يشترك الفيلسوفان أن الميتافيزيقا ليست ذلك التفكير الفلسفي المجرد القديم، و إنما هي البحث في الوجود ذاته حتى يدرك الانسان قيمة ذاته وقيمة الوجود في حد ذاته .

يعتبر هيدغر أن المقولات الاساسية لفلسفة نيتشه ومنها الإنسان الأعلى وغيره من المفاهيم الاخرى، تشكل لنا المفهوم النيتشوي للميتافيزيقا. ويعتبر هيدغر ان الإنسان الأعلى هو انسان مكتمل وهو قيمة ما فكّر فيه التراث الغربي اليوم، من هنا تبدو لنا أن قراءة هيدغر لنيتشه تختلف عن قراءة الفرنسيين له، ذلك من منطق أن هيدغر يعتبرميتافزيقا نيتشه هي ميتافزيقا الوجود بما هو موجود والتركيز على الكينونة البشرية وعلاقتها بالزمن المتغير. فالوجود الإنساني في مقابل الوجود المادي وفق التصور الوجودي يولد الإنسان أولا، ثم تتحقق ماهيته على الدوام. اما الفرنسيون لم يروق لهم هذا المنحى من التصور الفلسفي النيتشوي الميتافزيقي والسبب في ذلك أن الفكر النيتشوي يجب أن يخضع للميتافيزيقا، وليس العكس، هذا إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على تأثر الفرنسيين بالرّوح العقلانية المجرّدة المشبّعة بالرّوح الديكارتية، ثم لا ننسى أنّ الطابع الفكر الالماني يتغير كثيرا عن الطابع الفكري الفرنسي، من هنا اعتبر ان الفكر الالماني تواصلي، فتجد الفلاسفة يشيّدون التراث مع بعضهم البعض، حيث لا انقطاع أو انفصال بينما الفكر الفرنسي هو فكر قطائعي منفصل على بعضه البعض.

يردف هيدغر قائلا أن مفهوم العدمية لم يعرف إلا مع نيتشه، حيث صارت تعني عنده أنّ القيّم العليا فقدت قيمتها ولم يعد ثمة من هدف، أو ايجاد جواب للسؤال لماذا سقطت القيم وفقد الإنسان وجوده؟ إنّ نيتشه - في نظر هيدغر- قد استعمل أو أعلن عن موت العدمية التي

[1] Alin Graf, **Les grands philosophes Contemporains**, (Edition du seuil mars, 1997), P61.
[2] Heidegger Martin, **Nietzsche,** Tome I ,Ttraduit pierre klossowski (Gaillmard, Paris, 1971), P P 27-28.

مست الحضارة الاوروبية في مناحيها الوجودية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية بالعدمية المضادة التي توضح للانسان أن يبدع نظاما جوهريا سلّم القيم الإنسانية وبناء حضارة بشرية زاخرة يحمل مشعل التنوير فيها الإنسان الأعلى، صاحب الارادة القوية الفذة في إعادة بناء المجد الذي ضاع منذ أمد طويل بفضل الوعي السالب الذي طرأ على المفاهيم الجوهرية في حياة الإنسان، وكان لزاما من إعادة بنائه من جديد.

وهكذا أعلن نيتشيه الثورة أمام تردي هذه الاوضاع التي آل إليها الإنسان وآلت اليها الحياة ذاتها، فالعدمية التي يراها هيدغر هي العدمية الفاعلة ومردّ ذلك أنّه بعد الهدم يأتي البناء من جديد، فيبدأ الإنسان بأفكار جديدة وحيوية نحو ممارسة الحياة والمحافظة عليها والتضحية من أجلها. ويعوز هيدغر مبحث الأنطولوجيا إلى مساهمة فلسفة نيتشه في خلق أسئلة متنوعة ومتعددة عن حقيقة الكون وكسب المزيد من المعارف عنه، هذا ما يبيّن لنا مدى تأثر نيتشه بفكرة الصيرورة لدى هرقليطس، وبفكرة الثبات لدى بارمينيدس ثم يضيف هيدغر أن المفاهيم الأساسية لنيتشه هي التي جعلته يؤثر في الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر تأثيرا بالغا رغم وجود المذاهب الفلسفية العظمى في تاريخ الفلسفة، إلا أن قوة التأثير هذه تركت انطباعا على فلسفة هيدغر.

كما يؤكد هيدغر أن مفهوم إرادة القوة[1] خلّص الميتافيزقا من ذلك المفهوم التجريدي نحو النظر في الوجود في حد ذاته. لأنّ الإنسان في نظرهيدغر يجب ان يعترف بحقيقة ان الوجود سابق لماهيته دوماً، ومن هنا رأى هيدغر ان نيتشه هو أول من وطّد مبادئ الفلسفة الوجودية في العصر الحديث بعدما كانت الفلسفة بموضوعاتها تحت طغيان التفسير الماهوي بمعنى أن الماهية (Essence) تسبق الوجود. وهكذا اعتبرهيدغر ان التفكير الفلسفي الكلاسيكي لم يقدم لنا حلولا اوإجابات عن تلك الاسئلة المقلقة التي راودت الإنسان عن سرّ الوجود وكيف يتم فهمه والتعامل معه، لكن نيتشيه أثّر على الفكر الأوروبي الحديث بحضوره الفلسفي، ولعلّ ما ألفت النظر في اعتقاد هيدغر هو ولوع نيتشه بشخص زاردشت، فقد رأى فيه حماسة نيتشه في الإعلان عن تحرر الإنسان والاهتمام بمصيره ووجوده الحياتي وبهذا المعطى يظل نيتشه أكثر حضورا في العصر الحديث، وأعظم مشهد في الحقل الفلسفي المعاصر، من خلال هذا الامر يبدي هيدغر في مطلق الاحوال مدى تأثره الشديد بعمل نيتشيه في رؤيته لكلّ القضايا المصيرية الإنسانية وأنّه استطاع أن ينفذ إلى كامل عقول أفراد عصره فيما أبداه في أسئلة مقلقة حول أثر الإنسان في الوجود متجليّاً في قيمة الابداعات المتعددة وارتباطها العميق بالحياة.

[1] Heidegger Martin, **Nietzsche,** Tome I , Traduit de l'allemand par pierre klossowski Gaillmard, P P 14-15.

لقد كان تأثر هيدغر بما أتى به نيتشه من مفاهيم حديثة هو تأثر الوجوديين باعتباره واحدا منهم ولعل ما جعل التيار الوجودي يعترف بالفضل له، انما يرجع اساسا ان نيتشيه كان ينادي على الدوام من رفع شان الإنسان والإنسانية، وايضا ضرورة اعطاء معنى للحياة حتى يتسنّى لها أن تكون ذات بعد فني وفكري يبث في الإنسان الحيوية والفاعلية. لكن نيتشه يبقى أحد أساطين الفكر الحديث - كما يؤكد هيدغر- خصوصا في تلك النظرة أو الرؤية المحيّرة إلى الفلسفة بالنسبة للغرب، وعليه يقترح هيدغر أن يكون الفهم الواضح هو السبيل الوحيد لمعرفة حقيقة الفلسفة ودورها في حياة الإنسان.

إن الالحاح في طرح العديد من الاسئلة من قبل نيتشه يجعلنا نسعى دائماً إلى تجدّد مواقفنا وأفكارنا إزاء القضايا التي تهم الإنسان في حياته وأنّه بات من أكبر المفكرين الحداثيين في الغرب، إن مفهوم الحداثة* (La Modernité) بدأ يبرز إلى الافق مع انتشار أفكار نيتشه الداعية إلى كسر الجمود والانغلاق داخل دائرة النسق، وتحرر الإنسان أكثر فأكثر حتى صار كائنا وجوديا بأتم معنى الكلمة، وعليه يظل نيتشه بأعماله الحرّة قوة دفع نحو المجد .

التركيز على المفاهيم النيتشوية المعروفة يقر لنا بأنّ نيتشه يبدو أكثر قربا منّا حينما يذكر إرادة القوة كتقويم للقيّم، الإنسان الأعلى، العود الابدي. هذه ولاشك يضعها شروطاً للتميز بين الإنسان القوي من الإنسان الضعيف، هاته الصفات الجوهرية هي عناصر القوة في الإنسان كما يبيّن هيدغر. إن نيتشه قد ركّز على مفهوم الإنسان ومنحه تعريفا منطقيا بأنّه كائن عاقل ومن ثمّ أنه كائن وجودي يعيش كينونية وفق تغيّر الزمن، فالشعور الحقيقي هو دائما شعور بشيء ما، ولا يمكن أن يكون ذلك الشعور مجرد حالة وجدانية عادية على مستوى العقل فقط. وهكذا يكون الشعور عندما نستشعر نحن لحظات الوجود بأكمله من منطلق أن كل شعور هو شعور بشيء ما مهما كان صنفه وطبيعته وخصائصه الجوهرية، فلا نعرف حقيقته إلا وهو مرتبط بمعترك الحياة، فلا تبدوا لنا نجاعة الإنسان ونجاحة الدؤوب في الحياة، إلا من خلال ما يتركه من أثر فعّال على وجوده بالفعل. هكذا تبدو لنا مصدر القوة وقدرة التكيّف وبسط عبقرية الإنسان في تبيين الفروق الفردية بين هؤلاء البشر، فكلما تساءل المرء أكثر، أدرك أكثر وكان نصيبه أوفر في اكتساب الرصيد الثقافي والمعرفي، بيّنا أيضا أن نيتشه استطاع أن يترك أثره في تيار الوجودية. فهؤلاء الفلاسفة هم من رأو فيه مبادئ تفكيرهم في فلسفية وأعجبهم هذا الأمر إلى درجة أن عدّوه واحدا منهم، غير أنه مالبث أن فاقهم وجودية أكثر.

* مصطلح الحداثة (La Modernité) مفهوم ظهر في العصر الحديث، يهدف إلى تطور الأفكار والمواقف شاع في الفلسفة سيّما عند بروز مذهب البنيوية (Structualisme) و التفكيك علاوة على ذل شاعت أكثر في الكتابات الأدبية والفلسفية في العصر الحديث فكل الإنتاجات البشرية وخاصة الفكرية طوّرت هذا المفهوم أثر في الفترة الحديثة، وصارت هنا كل فكرة متطورة تسعى إلى التأكيد على بروز العصر الحديث حتى يكون مفارقا (Paradoxal) عن باقي العصور الماضية، ما يشير بعض الباحثين أن نيتشه هو أحد عظماء المفكرين الحداثيين الكبار الذي كان سببا في بروز هذا المفهوم أكثر.

اتصفت كتاباته في بعض الأحايين بأنّها وجودية مفرطة لا حدّ لها فأصبح وجودياً أكثر من الوجوديين أنفسهم. ويذكر هيدغر أن نيتشه واحدا من أولئك الفلاسفة الألمان الذين تركوا بصماتهم شاهدة على تاريخ الفلسفة عامة، والفلسفة الألمانية خاصة غير أنه يفوقهم في بعض المناحي في أنه محبّ للفن والموسيقى وكل ألوان الرومنسية. إنه فيلسوف وشاعر* وحكيم. بهذه الصفات تجد نيتشيه يتميز عن غيره من الفلاسفة بهذه السمات التي تؤكد لنا بالفعل أنه يولد الإنسان ثم تتحقق ماهيته، فها هو نيتشه كان إنسانا عاديا في بداية عهده وطفولته، ثم تفتّقت هذه العبقرية المتعددة في شكل فيلسوف ثائر وناقم على الأوضاع المزرية التي أثقلت كاهل الإنسان بالمعاناة والهموم والاستغلال والبؤس، ولم تجد لذلك سبيلا، كذا كان سعيه طوال عمره أن يألف لمثل الحالات مخرجا لبداية إنطلاقه جديدة لإعادة تنظيم شؤون الحياة، والإنسان على منهج قويم، لئن كانت زفرات الألم والمرارة والحقد والامتعاض الشديد، من تفاقم الأوضاع الاجتماعية المزرية في عصره، فإنّ ذلك ما يفسر لنا صدقه ونبالة مشاعره، وجسارة مواقفه البطولية المحقّة .

وينوه هيدغر بالذكر أن نيتشيه لا يفكّر في الأشياء وهي منفصلة عن الحياة، وإنّه يجب أن نفهم فلسفته بأنّها فلسفة حياة، ومما زاده عمقاً وتأصيلا هو أن فكره الفلسفي أضحى تياراً تتناقله كل الأنساق الفلسفية، ويقرؤه جيل بعد جيل بما تمت به مواقفه من جرأة وبسالة لا تضاهى! التصور الذي نمتلكه عن الاشياء ليس معرفة خصائصها فحسب، بل فيما تُظهره من أبعاد إنسانية وحضارية، تخالجها إرادة القوة ذات القوة والعزم في منحها فائدة تنعم بها الإنسانية قاطبة. فلا معنى للوجود إذا كان الإنسان لم يبد فيه كوامن قوته ونفاذ بصيرته، وتحقيق آماله المنشودة الملفت للانتباه حول المعرفة، مفاده البحث عن العدم ثم الوجود[1] ففي اعتقاد هيدغر -حسب رأيه- أن كل معرفة مهما بدت فيجب في بادئ الأمر أن تكون ذات ارادة وقصد في البحث عن الحقائق واستخلاص النتائج منها. إن الإرادة هي إرادة إزاء شيء ما، لا أن تكون إرادة نظرية محضة وهي بمنأى عن الواقع المعيش. وعلى هذه المنوال لا يحقق المرء أي فائدة و أي قيمة في حياته، إذا أرخى عنانه لسطوة العقل واهماً بأنّه سيصل إلى المبتغى واليقين، على إثر ذلك يرى هيدغر أن الشك صفة من صفات التفكير الفلسفي المتجذر والاصيل، عدا ذلك لا يرتق إلى مصفّ الفهم والنقد الجريء، بل ومجارات الحياة بشكل سيرانها الطبيعي.

* كل من قرأ مؤلفات نيتشه، ولا سيّما مؤلفاته الأخيرة يجد تلك المقتطفات النثرية والشعرية المفعمة بالحكمة على طريقة الحكماء القدامى في التفير الشرقي القديم، وهذا ما يفسّر لنا تعلقه الشّديد بالحكم الفارسي زرادشت والغريب أنّ نيتشه يتقمص شخصيته هذا الحكيم ليخاطب على لسانه أفراد عصره و يتبع فيهم الحكمة ذلك لإيقاض الهمم فيهم، إنّ هذا التّقمص في شخصيته زرادشت يفسّر لنا مدى شعور نيتشه بالإغتراب الروحي الذي شعر به في عصره، ولم يعد يجد له تجسيداً لذلك وكان هذا هو سبب سخطه وثورته.

[1] Heidegger Martin, **Neitzsche**, Op-cit, P16.

لعلّنا نذكر أن هذه الانتقادات التي يركّز عليها فلاسفة التيار الوجودي في إعلان الثورة والنقد على مزاعم الفلسفات التقليدية، علاوة على ذلك يظنون أنها لم ترق إلى التعالي والمجد في الاعتراف بقيمة الإنسان والوجود والزمن ويبدو لنا ذلك واضحاً من حضور نيتشه في جل كتابات هيدغر منها الكينونة والزمن والميتافزيقا، الفلسفة ...الخ. لقد أراد هيدغر أن يجعل من نيتشه زرادشت جديد على منوال: هكذا تكلم نتشيه، ومردّ ذلك التأكيد على ضرورة الارادة البشرية كأول مسعى لمعرفة الحقيقة. الهدف الذي يسعى إليه هيدغر من خلال إنتاجه الفلسفي هو الوصول إلى إرادة ميتافيزيقية وفلسفية[1]، طالما أن هناك إرادة نحو المعرفة بغية الاستفادة منها في الحياة جراء مختلف الابداعات الإنسانية الحضارية، ولا تصير المعرفة من أجل المعرفة لتكوين تراكم معرفي نظري بقدر ما تكون هذه المعرفة ذات منافع وغايات بمعنى آخر يهدف إلى جمع تصورات جمة عن مختلف الأشياء وإدراك خصائصها الجوهرية وإنّما يكون الأمر نابع عن ملكة الشعور الناجم عن دافع القصدية، وليس في تكوين رصيد معرفي نظري يكون على نمط التفكير الكلاسيكي، إذ يكتفي بإصدار جملة الأحكام عن الأشياء مستعينا بالعقل.

يذهب هيدغر إلى اعتبار أن الفكرالمعاصر، يتمحور بالأساس حول التفكير في الوجود ليس إلاّ، فالتفكير في الوجود والإهتمام به هو الشرط الأساسي لمفهوم الحقيقة الفلسفية، إنّ حقيقة الوجود تؤكد لنا معرفة الوجود ذاته[2]. التفكير في الوجود يخضع لإيدولوجيات متباينة تمنح للجميع إبداء حريته الفكرية، ويرى هيدغر ان نيتشيه اعتبر أن الوجود المادي هو الذي يتحكّم في وعينا بالذات، وليس أن الوعي يتحكم في الوجود المادي وهنا يبدو نيتشه قد تأثر كثيراً بالتصور الماركسي بينما وإن ماركس (1818-1883) قد قدم بهذا الشأن انتقاداً للجدل الهيغلي الذي أعطى للوعي الحق المطلق في تفسير الوجود.

إن الطرح الهيدغري في هذا السياق يهدف إلى أن الوعي ليس بالضرورة هو أسا س الوجود كما زعم هيغل وغيره من ذوي التفكير المجرّد، بل على النقيض من ذلك يتّجه إلى التصور الذي أباح به ماركس عندما أقرّ بأنّ الوجود هو أساس الوعي بالذات، ذلك بتقتضي أنّ التفكير في الوجود يبثّ فينا إرادة المعرفة الحقّة، وعليه يتم على إثرها معرفة علاقة الإنسان بالوجود كونه لايضع حدوداً لتساؤلات الإنسان المستمرة، في طلب المزيد من معرفة حقيقة الوجود معها ينتقي القول بمطلقية العقل. وتكون الميتافزيقا بهذا النمط قد انتقلت من الطابع النظري الكلاسيكي نحو النمط الواقعي الحديث، كل ذلك يتم ضمن حركة الفكر المعاصر الذي وضع مبحث الانطولوجيا من ألويات الفكر الفلسفي، وحث الإنسان على مزاولة الفهم والبحث قصد امتلاك المعرفة الحقة عن خبايا الوجود المادي، أين يتوقف ذات الأمر على الإنسان كما

[1] Alin juranville, **La philosophie comme savoir de l'existence**, (Volume I, altériste presse universitaire de France), P 01.
[2] **Ibid**, P03.

يسعى سعيا حثيثا نحو إثبات جدارته بفضل قدراته الكامنة فيه. يولي هيدغر الامتنان لنيتشه، إذ أنّه هو الذي منح للوجودية مكانها الرائد ضمن مختلف التيارات الفلسفية العظمى في تاريخ الفكر البشري والفلسفي على حد سواء.

إنّ المتعمن في تاريخ الفلسفة الالمانية يصل إلى أن الفلاسفة الالمان يتميزون بميزة لانكاد نجدها في باقي الفلسفات السابقة الاخري الا وهي فكرة التواصل والطرح الاكادمي، حتي وإن وجدنا اختلافا بين الفلاسفة الالمان في بعض المواقف، إلا أنّ ذلك ليس كما هو موجود في انساق الفلاسفة الاخرين طبعا هذا من خلال دراسات الباحثين الذين بيّنوا أكثر من مرة في أنّ تاريخ الفلسفة يتغير من عصر لآخر ناهيك عن نظرة كل فيلسوف أو كل فلسفة ونظرتها إلى الحياة وما تهدف إليه من قضايا انسانية هامة طالما أن الوجود يحتوي على اسرار تبعث في الإنسان الفضول[1]، والرغبة، والدهشة بدليل التناسق والنظام الذي يطبعه.

يأخد هيدغر عن نيتشيه مفاهيم العود الأبدي، إرادة القوة، العدمية كنمط للوجود الغربي حيث يرى هذا الأخير أنها باتت هي صميم الفكر الميتافزيقي في الفترتين الحديثة والمعاصرة، عندما يصّرح هيدغر دائما بأفول أو نهاية الميتافزيقا بمفهومها الوثوقي (الكلاسيكي)، حيث ميتافزيقا افلاطون وأرسطو. يريد هيدغر أن يخرج مبحث الميتافزيقا من هذا النمط إلى نمط آخر يبدو أكثر حيوية ونشاطا يتمثل في الاهتمام بالإنسان من جهة والعناية بالحياة من جهة أخرى تمعّن هيدغر أكثر في مفاهيم نيتشه هذه، حيث بدأ بالإرادة كحالة ذاتية يتمتع بها الإنسان، و فيم تكمن قوة هذه الإرادة ؟ إذا هي لم تقدر على فهم ظواهر الوجود، وتحفيز الإنسان نحو امتلاك قدر كاف من القدرة على التساؤل. يجب على الارادة أن تتعدى التفكير المجرّد، والنزول نحو مجابهة مشاكل الحياة .ثم يلجأ هيدغر إلى تحديد فكرة العود الأبدي وماذا كان المقصود منها إنّها حسب هيدغر شعور بالحنين نحو الماضي البعيد، حيث كان الإنسان يمنح لقيمه وأخلاقه البعد الإنساني والجمالي والإعلاء من شأنها، كما يسميها هيدغر بالتعالي ثم تدحرجت هذه القيم والاخلاق، نحو السقوط والانهيار نتيجة الابتعاد عن جوهرالحياة وعدم المحافظة عليها، أمام ظهور الانحطاط الذي خيّم على الفكر الاوربي الحديث. وكان لايدّ من اقتراح جذري يبدأ أولا بإعلان نهاية الفلسفة الكلاسيكية وخلق فلسفة حياتية ووجودية. والإعلان أيضا عن نهاية الميتافزيقا الغارقة في التفكير الذهني المجرّد، منذ سنين طويلة دون التجرّأ على نقدها وهدمها ثم بناءها من جديد. ربّما يريد هيدغر ان ينحى منحى نيتشه في استعمال المطرقة لهدم كل ما انتجه الفكر الكلاسيكي والشروع في بداية تجسيد البناء بواسطة المنهج الجنيالوجي لترتيب القضايا بشكل منطقي منظم.

لقد كانت المقولات النيتشوية - في نظر هيدغر - ذات صدى على أفكاره ومواقفه في الاقبال على الاهتمام بالإنسان باعتباره الوجود الفردي في مقابل الوجود المادي الماثل أمامنا،

[1] M dufrenne et P.Ricour, **Karl Jaspers et la Philosophie de l'existence,** P 30-1.

إضافة إلى الاهتمام بأمور الفن ومايشمله من أبعاد عديد ة، حيث نألف لديه علاقة بالشعر والموسيقي وبقية الفنون الاخري، هذا الاخر يحيلنا إلى ان الفلسفة الوجودية تهتم بتمثيل هذه العبارات التي تحاكي الواقع البشري، نزولا إلى معالجة هموم الإنسان وبؤسه وحرمانه وتعاسته من خلال وضع قصص أو مقتطفات نثرية أو شعرية، وحتي بعض الاشجان الموسيقية بغية التخفيف عنه. وزرع فيه حب الحياة الخالص وإعادة جذوة الامل لديه. تلك النزعة لم نلمسها عند ذووي الانساق الفلسفية التي حملت لواء التفكير الفلسفي والتنظير للحياة وفق العمل بالمبدأ دون الحياد عنه، حتي طبع الانغلاق والتمذهب جل الافكار الفلسفية تفقدّت الحياة قيمتها، الأمر الذي انعكس على الإنسان العادي أيضا.

على هذا الأساس أكّد هيدغر أن مسألة الوجود ينبغي أن تفهم من قبل الإنسان، و هنا يظهر لنا هيدغر وجوديته أكثر، حينما يعتبر نيتشه واحداً منهم من خلال تلك المفاهيم التي طالما نادى بها من علّو شأن الإنسان و الرفع أيضا من قيمة الحياة، و يرى هيدغر أنّ نيتشه لم يعلن عن نهاية الميتافزيقا باعتبارها موضوعاً فلسفيا هاماً، و إنما رفض أن تعالج دوماً ضمن تلك النظرة التجريدية، وعليه إذن لا يمكن البتّة رفض أن يكون منحى الميتافزيقا اتجاه البحث في حقيقة الوجود[1]، و كما بيّن هيدغر أنك لا تقدر أن تفهم شخصية نيتشه، من مجرد قراءة مؤلفاته ذاتها منذ الوهلة الأولى. ففي كل قراءة لإنتاجه على الدوام، تدرك لا محالة بأنك في أمسّ الحاجة إلى اكتشافه في كل مرة. هذا الانفلات هو الذي أذهل بعض الباحثين، و حتى بعض الفلاسفة من أنّه فيلسوف استثنائي! يضيف هيدغر أن نيتشه أراد بالفلسفة أن تكون مسايرة للحياة لا منفصلة عنها، و هذا يشكّل في حدّ ذاته نقطة هامة ضمن الفكر الفلسفي المعاصر و اتجاها للوجودية والبنيوية "Structualisme" فيما بعد.

ويذكّرنا هيدغر أن الفلسفة في نظر نيتشه تنظر إلى الوجود قبل الماهية وهي تشترطه مسبقا قبل تحديد خصائصه، و هذه هي الفلسفة الأصيلة. أمّا الفلسفة التي تسبق الماهية عن الوجود فهي تتناقض مع ذاتها وتبقى في شكل حلقة مفرغة[2]، إنّ المهمة الأولى للفلسفة تتّضح من خلال فهم الإنسان لذاته و لوجوده ويمكن التعبير عنها بفلسفة العود الأبدي، أي ارجاع الفلسفة إلى محاولة تقييم كل القيم، دون التركيز على موضوعي الكون والمعرفة فقط. من هذا المنطلق يبدو لنا أن هيدغر متأثرٌ مدى التأثر بفلسفة نيتشه، سيّما عندما يرى بأنه مهتم بمسألة الوجود و علاقته بالزمن، و ينجم عن هذا تفاعل الإنسان مع الوجود تفاعلاً حقيقياً ممّا ينتج عن ذلك ظهور الإنتاجات و الابداعات بشتى أنواعها وعليه يعتبر هيدغر هذا المسعى بأنّه من صميم التفلسف الحقيقي كونه يتجلّى من خلال تساؤلات المرء المقلقة حول الوجود، الكينونة، الزمن ...إلخ. ناهيك عن الحالات النفسية التي تنتاب الإنسان في كل لحظة زمنية و مكانية.

[1] Heidegger Martin, **Neitzsche**, Op-cit, P19.
[2] **Ibid**, P23.

يحاول هيدغر أن يجعل من الإنسان كائناً ميتافزيقا في المقام الأوّل، علاوة على ذلك يصبح الوجود يشكّل اهتمام الإنسان لأنّ هذا الأخير هو الوجود في حدّ ذاته ممّا نتجاوز ذلك التّصور الذي يعتقد أن الوجود هو كل ما هو حسي فحسب، لكنّ الأمر يقتضي تجاوز - في نظر هيدغر – ذلك المفهوم الذي نجده عند أغلب الفلاسفة أنّ الوجود الإنساني لا يمثل الوجود بصفة عامة. هذا الأمر جعل الفلاسفة الوجوديين أكثر اهتماماً من غيرهم خاصة في مسألة الوجود و علاقة الإنسان به، ولعلّ هذا ما جعل الوجودية تهتم بمسألة الوجود أكثر من الفلسفات التقليدية السابقة.

يعود هيدغر إلى فكرة العود الأبدي ويعتبرها نقطة في غاية الأهمية فهي تماما ذاتها عندما يراها مثل إرادة القوة وهو في هذا الامر يعتبر نيتشه فيلسوفا حداثياً كونه يدعو إلى تحديث أو تجديد المفاهم حسب مقتضيات العصر الذي نعيشه. إنّ طلب الإنسان و إلحاحه الدؤوب قصد الوصول إلى الحقيقة وفهمها معناه أنّ هذه الموضوعات وهي الميتافريقا، الوجود، المعرفة، القيم...الخ. بدأت ترتبط كلية مع الحياة البشرية عكس ما كانت عليه سابقا، حيث اتخذت طابع التنظير العقلي لا غير، إنّ نيتشه - كما يقول هيدغر- قد فتح المجال واسعا أمام الفكر المعاصر لكي يعيد أفكاره ومواقفه من جديد أو ربما يجعل الفيلسوف قبل السائل يبدي إنشغاله أكثر في الاهتمام بالحياة والتقليل من طغيان التفسير العقلي لكل القضايا الإنسانية وإرجاء مصيرها للانسان وحده. وبالتالي يحق لكل متسائل الفهم بعد الاصرار في طرح انشغالاته واهتماماته فيما يخص ذاته ووجوده، وهذا ما تؤكده لنا الحالات النفسية المضطربة أحياناً نتجية الشعور بالقلق وفقدان الأمل والتشاؤم ...الخ.

يريد نيتشه أن يجد مبرّرات لمختلف هذه الدوافع ومعرفة الاستجابة لها، يلمّح هيدغر في بعض الأحيان إلى أنّ الإنسان عندما يشعر بمثل تلك الحالات الشعورية - معناه لم يشعر بوجود الحقيقة فيضل أسير الاغتراب الذي يتجلى في شخصه على الدوام. مخاطبة نيتشه الإنسان بشتي الصفات دليل على القداسة والاعتراف بما يكتنفه من القدرات ما تؤهله لأن يصير كائناً حرا لا تعوقه الصعاب فهو قادر على روح المخاطرة والمغامرة، تلك هي الحياة البشرية تتطلب منا بذل الجهود الحثيثة للتكيّف معها والعمل على المحافظ عليها. هنا يكمن تأثير نيتشه على تيار الوجودية بصفة عامة، وعلى هيدغر بصفة خاصة.

إنّ الميتافيزيقا تبحث عن وجود الموجود وهي تسأل عن الموجود بماهو موجود، وفي هذه الحالة تكون ميتافيزيقا عامة[1] أو أنطولوجيا، وعندما تبحث في الوجود الذي يجعل من موجود معين موجوداً حينئذ تسمي ميتافيزيقا خاصة، بيد أن الميتافيزيقا لا تبحث في الوجود بما هو موجود إلاّ بعد أن تبحث في وجود موجود ممتاز، كما يظهر في الفلسفات الدينية مثل

[1] عبد الرحمن بدوي، **موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني**، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1984)، ص: 496-497.

الله وفي فلسفة هيدغر والوجود بصفة خاصة هو الإنسان* إن الميتافيزيقا تبحث في إمكان الموجود أن يكشف نفسه أي في التركيب الانطولوجي للموجود.

إن الميتافيزيقا تتعقّل الموجود في وجوده وتسأل الموجود في مختلف مناطق الوجود عن وجوده وتتعقل الموجود بصفة عامة وتميّز بين وجوده وبين مايتركه في هذا الوجود من آثار. لذلك يستعمل هيدغر كلمة أكدازين (Dasein)* ويقصد بها الإنسان ككائن موجود في الماضي والحاضر والمستقبل ولهذا الميتافيزيقا. لا تؤسس الموجود في الوجود فقط بل وتؤسسه أيضا في موجود أعلى.

استردت الميتافيزيقا معناها تماما من جديد على يد الفلاسفة الوجوديين، وخصوصا مارتن هيدغر وكارل ياسبرز...الخ وعلى هذا المنوال تنتقل الميتافيزيقا من مفهومها التقليدي إلى المفهوم الحداثي المتمثل في التركيز على خصوصية الإنسان والوجود وإلى جانب اهتمام هيدغر بمعنى الوجود نجده في ذلك الوقت نفسه يهتم بمشكلة الزمان على اعتبار أن الوجود اسم مشترك بين كل الاشياء وهو يشمل السائل نفسه الذي يسأل عن معني الوجود من المستحيل المستحيل النظر إليه من الخارج أو استنباطه من شي أسبق لأنه لاشيء أسبق عليه، ومن هنا يقوم تمييز أساسي بين ميدان الوجود وميدان الموجود أو بين الوجود الانطولوجي الذي يرجع إلى ما يجعل الموجود موجوداً، أي يرجع إلى تركيبه الأساسي أما الموجودي فيشمل الموجود كما هو معطى. والوجود في كل مكان لايعطي الوجود على نحو واحد، بل هناك أحوال عديدة للوجود وأنماط مختلفة للموجودات: وجود الشئ، وجود الأداة، وجود الإنسان، ثم يتساءل هيدغر: أي نمط من هذه الانماط نبدأ البحث؟ يجيب إنه وجود الإنسان، وجودنا نحن هو الذي ينبغي أن نبدأ به البحث إذ لا توجد نقطة ارتكاز أخرى أقدم من الإنسان فنقطة ابتداء البحث في الوجود ينبغي أن تكون إذن هي تحليل وجود الإنسان[1].

إن أول خاصية جوهرية لوجود الإنسان هي ان وجوده لايشبه وجود الشي أي الوجود البشري غير ثابت، بل متغيّر من فرد إلى آخر وهذا الانا الإنسانية ليست ثابة فهو مشروع يحقق وجوده باستمرار، وبالتالي فالوجود البشري يتجلي على أنه إمكان وجود، إنّه ينبوع للإمكانات واستعداد لتحقيقها، إنّه يميل دائما إلى إعطاء نفسه المزيد كما يؤكد هيدغر أن الحرية هي شرط ضروري لوجود الإنسان وممارسة أفعاله بحرية تامة من تلقاء ذاته، فأنا

* يختلف معنى الميتافيزيقا (M étaphysique) لدى نيتشه والوجود بين عن المعنى الكلاسيكي القديم للفلسفات التقليدية .ففي اعتقاد الفلاسفة القدامى وحتى المحدثين بما فيهم ديكارت وكانط وغيرهم ان الميتافزيقا مفهوم عام لاتنحصر في موضوع معين.اما لدى نيتشه وغيره من الوجوديين لميتافزيقا لايمكن ان تخرج عن نطاق الإنسان، طالما أنه موجود متميز عن باقي الموجودات الأخرى، هذا ما يشير إلى اختلاف وجهات النظر بين الفلسفات التقليدية، وبين الفلسفة الوجودية في العصر الحديث.

* مصطلح الدازين (Dasein) يعني عندها هيدغر الوجود هناك، أي الوجود في العالم، وهذه العبارة لا تشتمل على المعنى الزماني فقط، بل وأيضا وخصوصا المعنى الأنطولوجي هي الكشف عن الوجود البشري كله.

[1] عبد الرحمن بدوي، **مرجع سبق ذكره**، ص: 600.

الذي أقرر طريقة وجودي بنفسي وهكذا فإنني مسؤل عن ذاتي، وعليه يكون هيدغر قد سار على منحى نيتشه في الإشادة بالحرية الإنسانية على اعتبار أنها مطلب ضروري لإرادة القوة والطموح نحو العود الأبدي الدائم .

يركّز هيدغر على أن العود الأبدي هو إرادة القوة وبالتالي كان لزاما أن يمتلك الإنسان صفات تؤهله لفهم الوجود والحياة، هكذا تمثل فكرة العود الأبدي تقويما شاملا للقيم الإنسانية[1] وإعادة بناءها من جديد علاوة على ذلك تشكّل السؤال الجوهري الذي يطرحه الإنسان دوما لبناء تصور حديث للميتافيزيقا الغربية. وقد ظلت الميتافيزيقا مبحثا أساسيا لا يمكن إغفاله ضمن فلسفة نيتشه، هذا ما يصرّح به هيدغر بأنّ مفهوم نيتشه للميتافيزيقا هو الذي أعطي لها منهجا تأويليا حداثيا وما عبّر عنه هو بالانطولوجيا. ويرى هيدغر أن نيتشه فتح للانسان آفاق عدّة في التعبير عن وجوده ومن ثمّ عن ماهيته لأنّه يوجد أولا ثم يسعى إلى تحقيق كل صفاته وقدراته المسخرة لديه.

لقد أضحى الإنسان في عصر نيتشه إنسانا قويا بإرادته الخلاّقة التي جعلته يقتحم الصّعاب والمخاطر على اعتبار أن أسمى ما في الوجود هو أن نعيش في خطر و في الشعور بالخطر يحقق الإنسان سعادته ووجوده باستمرارلانه لا يرضى بحالة مستكينة وجامدة، حيث تقتل فيه الامل والطموح فيخرّ خنوعا مستسلما وتلك هي حالة الإنسان الضعيف، ويذكر هيدغر أن قراءة مؤلفات نيتشه بعمق تبيّن لنا أنّه درس تاريخ الفكر الفلسفي برمّته، وخير دليل على ذلك وجود علاقة بينه وبين أعمال الفيلسوف اليوناني أرسطو طاليس الذي سبق بآلاف السنين من خلال مبحث الميتافيزقا بالخصوص، وبقية الموضوعات الفلسفية الاخرى. إنّه الفيلسوف الذي استطاع أن ينقل الفلسفة من النمط الكلاسكي إلى النمط الحديث المتمثل في معرفة الوجود والتساؤل حوله وهو إذن النقطة المهمّة في تاريخ الثقافة الأوروبية المعاصرة[2]، يضيف هيدغر أن نيتشه أخرج العقل من تلك الأسئلة القديمة المعهودة التي طرحها الفلاسفة القدامى حول أصل الكون والمعرفة إلى البحث والتساؤل حول نقد الاخلاق، نقد الافكار الدينية، نقد الاحكام المسبقة عامة، وعلى النقيض من ذلك قرّب الفلسفة نحو نمط متّسق ومنسجم من الناحية الأنطولوجية والميتافيزيقية[3]. يظل نيتشه بهذا القصور واحدا من أولائك الفلاسفة الذين تركوا أثرهم على تاريخ الفكر الغربي، أنّه يبدو أكثر وضوحا من خلال أنه مفكر ميتافيزيقي الذي قرأ خلفية الوجود قراءة جوهرية مهمّة.[4]

[1] Heiddeger Martin, **Neitszche**, Op-cit, P24.
[2] Vatimo agianni, **Introduction a Neitzsche** (de Bocek et larcier**,** 1991, Pour l'édition française, départment de Bocek 1991 Univercité Paris, Bruxelles),, P09.
[3] **Ibid**, P10.
[4] **Ibid**, P10.

يرى هيدغر بأنّ هيمنة مفهوم القيمة على فلسفة نيتشه، وصياغته لقضايا الفلسفة والوجود صياغة قيمية وأخلاقية يعتبر أبرز دليل على طابعها الميتافيزقي، واندراجها ضمن تاريخ الميتفيزيقا بما هو تاريخ لنسيان الوجود. ففلسفته بالرغم من نقدها للميتافيزيقا وقلبها للأفلاطونية[1] إلا أنها - في منظور القراءة الهيدغرية - تنتمي إلى الميتافيزيقا وتندرج ضمن إشكالياتها، ألا وهي إشكالية " نسيان الوجود " وذلك من خلال الالوية والصدارة التي منحها نيتشه، وهي الاشكالية المحدّدة لماهية الميتافزيقا عند هيدغر لمفهوم القيمة داخل فلسفته مقابل غياب كلي لمفهوم الوجود لديه؟ ومن خلال مفهوم ارادة القوة الذي يجسّد عودةً إلى مفهوم الذات وترسيخ لمركزيته وسلطته داخل الفلسفة؟ من خلال تمجيد للانسان الارقي وأخير من خلال اللاّمفكر فيه الميتافزيقي المتحكم في كامل فلسفته، من هنا اعتبر هيدغر بأنّ فلسفة نيتشه تعدّ تتويجاً لمسيرة الميتافيزيقا وختما لها. إنها تمثل اكتمال الميتافيزيقا وأوجّها ونهايتها في الوقت ذاته.

إنّ التساؤل عن أصل مفهوم القيمة في فلسفة نيتشه هو في نظر هيدغر جزء لا يتجزء من التسائل عن ماهية الميتافزيقا في تلك الفلسفة، وطرح هذا السؤال يجعلنا في نظر هيدغر نقف على الترابط القوى الذي يقيمه نيتشه بين تأسيس القيّم وإرادة القوة لأن أصل اعتقاد الإنسان في القيم الكونية والشمولية مرتبط برغبته وارادته الملحة في أن يتحمّل قيمته ويعمل بها في عالم سار بعد موت الله (La Mort de dieu) فاقدا للقيمة وخالي من المعنى والحقيقة وبدون غاية، ولهذا تعتبر إرادة القوة هي المرجع الاساسي في قلب القيم و وضع تصور جديد و بحكم ذلك فهي شروط لإمكانية الحياة، فهذه القيم تنزع إلى التوكيد و التجاوز الذاتي، إذن فالقيمة هي أساساً وجهة نظر تفيد الدين والاخلاق والفلسفة والعلم، والفن، ومؤسسات المجتمع كالدولة وغيرها تقوم كلها مقام القيم بما فيها شروط ضرورية تنظم حياة الجماعة و التحكم في السيرورة و مفاجآت الزمن.

القيمة بهذا الشكل يكون لها شأن حسب هيدغر في آداء وظيفتها المتمثلة في قلب القيّم وتحقق مقولات العقل أساسية كالكلية والوحدة الحقيقية، حيث تتخذ من هذه المقولات فكرة التعالي وسيصير تاريخ الفلسفة تاريخا لتأسيس القيّم وتحقيقها وهكذا يكون التأويل النيتشوي لنظرية مفهوم القيمة صياغةً لمشكلات الفلسفة والكينونة صياغة قيمية على إثرها تصبح الميتافزيقا أكثر قابلية للفهم مما كانت عليه سابقا.

بعد التنويه بما احدثه نيتشه ومدى تأثيره على هيدغر، واعتبار هذا الاخير أن فلسفة نيتسه شكلت تحولا جذريا على مستوى الفكر الفلسفي والحياة إلا أن هيدغر بعد اطّلاعه الواسع على مؤلفاته لم يخف انتقاداته لآراء نيتشه ومردّ ذلك أن التأثر لا يكون دوماً محل اعجاب ومباهاة وإنما من أجل الحق والانصاف في أن نحلّل رؤية هيدغر اتجاه أعمال نيتشه

[1] Heiddeger Martin, **Neitzsche**, Op-cit, P24.

بكل جرأة وروح منطقية، فيقول إذا كانت الميتافزيقا هي هيمنة لارادة القوة، فإنها ستكون خاضعة للارادة الاخلاقية وستسير على حد التعبير أنطولوجيا أخلاقية وبحكم الطابع الأخلاقي لهذه الإرادة فستكون عاجزة على ممارسة القوة في تحديد الغايات وتحقيقها وهذا ما يجعلها تقوم بعملية اسقاط لنسق من التقديرات والتقويمات المتعلقة بما ينبغي أن يكون، وتتخذ منه مقياسا للأشياء ويرى هيدغر بأنّ هذا المعني الذي يعطيه نيتشه للميتافزيقا في التأويل الهيدغري يفكر من داخل أسوار الميتافزيقا كالحقيقة والخطأ، الخير والشر، العمق والسطح، المعقول والمحسوس، الباطن والظاهر.....الخ، ولم يستطع الخروج على الاساس العام الذي اتخذته الميتافزيقا منطلقا لقول الحقيقة واصدار، ويظلّ نيتشه حسب هيدغر واضعا للقيّم ومبدعا لأفكار أضحت مفارقة للواقع، وبالتالي تظلّ هذه الميتافزيقا بعيدة عن الواقع، وهذا يدل على عدم قدرة نيتشه على تجاوز الميتافزيقا ويربطها هيدغر بهيمنة مفهوم القيمة على فلسفته وشكّل عائقا دون استعادة الوجود الضائع وذلك لأنه يتخذ من الإنسان مركزا للكّون ومقياسا لقيمة العالم والأشياء، ناهيك على ما يتمتّع به الإنسان من قدرات هائلة تجعله كائنا حرا إنها ميتافزيقا الإنسان الأرقى الذي اعتبره نيتشه مقياسا لكل شيء، هكذا يتساءل هيدغر عن الفرق الموجود بين إنسان نيتشه وبين الكوجيتو الديكارتي الذي يركّز على الوعي الذاتي الذي يتخذ من الذات المفكرة مقياسا للحقيقة وأساسا لليقين إن مفهوم القيمة هو ما جعل الذاتية تبلغ في فلسفة نيتشه أقصى مداها.

يرى هيدغر أن الميتافزيقا التي جاء بها نيتشه هي ميتافزيقا إرادة القوة وهذا ما جعلها تستنفذ ماهيتها مع فلسفة هيجل وتعيش نهايتها. كان هذا مجمل تأويل هيدغر لفلسفة نيتشه بصفة عامة ولمفهوم القيمة بصفة خاصة من حيث المفهوم المعنوي في فلسفته، ولقد توخّينا تفصيل القول شيئا ما في ذلك التأويل من منطلق أن نيتشه يشكّل بدون منازع أهم ما كتب إلى حد الآن حول نظرية القيمة لديه وأيضا ما للتاويل الهيدغري لفلسفة نيتشه من سلطة على كل قراءة ممكنة نيتشه ويرى هيدغر ان ارادة القوة هي ارادة براغماتية لا يهمّها سوى الحفاظ على قوتها والسعي نحو الهيمنة، إنّها تمثل الماهية قبل الوجود، بينما عند هيدغر تمثل إرادة القوة قمّة الذات في الميتافزيقا والدعوة نحو النزعة الأنتروبيولوجية.

يؤكد هيدغر في نقده لميتافزيقا نتيشه أو بالاحرى لنقده لفلسفته بصفة عامة أن مفهوم الإنسان الارقي وبقية المفاهيم الاخرى ما هي إلا مجرّد تصوّرات ميتافيزيقية عقلية خالصة لا صلة لها بالحياة، فالميتافزيقا لا تخرج في اعتقاد نيتشه على هذه المفاهيم اطلاقا وعليه يبقى تصوّر نيتشه تصورا مبالغا فيه كثيرا، لذا يخالفة هيدغر في هذا الطرح وتبرز لنا موقفه بأنّ الميتافزيقا لا تخص الإنسان الارقى فقط، لأن نيشه بدل أن يهتم بالإنسان لجأ إلى تقسيم الإنسان إلى قوي وضعيف وهذا يبدو غير مبرر اطلاقا، فليست الميتافزيقا إذن تخص نموذجا معينا من البشر، بل هي تهم الجميع بدون استثناء.

إن الميتافزيقا في نظر هيدغر يجب أن ترتبط بأصل الوجود وتبحث في صفاته الأساسية، ثم يدلي هيدغر أن الفلسفة بدأت تطرح أسئلة حول الوجود[1] بعدما كانت قديما تبحث في الأسئلة القديمة حول القضايا الأخرى دون الإنسان، مما جعل الفلسفة بهذا الشكل تتعلق بالتجريد والمذهب، ثم يلجأ هيدغر إلى مسألة فهم الوجود، فهذا الاخير يبثّ فينا نوعا من القلق والدهشة، فيجعلنا نبحث عن إيجاد الفهم العميق له وذلك بمقتضى تحطيم المفاهيم الدوغمائية "الكلاسيكية" عن معنى الوجود، كما يؤكد هيدغر على الزمن (Le Temps) ويعتبره وجودا أبديا[2]، ويرى هيدغر أن الميتافزيقا النيشوية شبيهة بميتافزيقا أفلاطون (427-347) لأن أفلاطون اعتبر أن الفكرة هي النموذج وماهية الوجود، وهذا على حد تعبير هيدغر فإنّ نيتشه طالما يركّز على إرادة القوة المجسدة في الإنسان فإنّ مردّ ذلك حسبه أن نيتشه أبقى الميتافزيقا في نطاق الإنسان ولم يخضعها إلى الواقع بمعنى آخر استطاع أن يخضع الإنسان للميتافزيقا، في حين على النقيض من ذلك لم يستطع أن يخضع الميتافزيقا للإنسان على اعتبار أن نيتشه قد اتجه إلى نفس الاتجاهات العقلانية التي طالما نقدها بشدة وعزم، إلا أنه في نظر هيدغر وقع في نفس المأزق وظل تفكيره عندئذ يتميز بالقبلية (Apriorie) كونه خاضعا لسطة القيّم وهو بلا شك تصوّر أفلاطوني مفاده أنه من داخل عالم القيّم يمكن تقرير مصير الكائن وتحديد شروط إمكان الحياة وفي نهاية المطاف تكون الميتافزيقا قد بلغت درجة من العقلانية وسيطرة القيّم ووصلت إلى منتهاها في قلب جميع القيّم (Transvaluation).

هكذا يلّح هيدغر على ان نيتشه لم يبين لنا المفهوم الفلسفي الجوهري لمعني الميتافزيقا لانه لم يخضع الميتافزيقا للانسان، إنّ التفكير في الوجود هو السبيل الوحيد لفهم حقيقة الوجود[3]، وعليه يدعو هيدغر إلى رفض كل تصوّر عقلي لمحاولة فهم الميتافزيقا، ثم يذكّرنا هيدغر أن نظرة نيتشه إلى الإنسان كانت نظرة ضعيفة لم تتح له امتلاك حرية الاختيار، وعليه كان بوسعه النظر في طبيعة هذا الكائن نظرة شاملة، وذلك بمقتضي أنّ الإنسان كلّ واحد وليس هناك نوعين من البشر (إنسان قوي، إنسان ضعيف). ثمّ عن أي معنى من البشر يتحدث نيتشه؟ ألم يكن الإنسان الراقي هذا متناقضا مع ذاته؟ من خلال التساؤلات المقلقة التي راودت ذهن هيدغر؟ أن نيتشه أرخى العنان لتصوراته إلى حد المباهاة وظنّ ذاته بأنّه استطاع أن يرسم للانسان طريقا نحو الحياة، والذي يمتلك المقومات والاستعدادات يستطيع أن يتجاوز صفة الخطر لأنّ الحياة في حدّ ذاتها تجبرنا على ذلك، أما الإنسان الضعيف في اعتقاده يبقى أسير أوهامه وتصوراته الضيقة، الامر الذي جعل هيدغر يخالفه في هذا الأمر.

[1] Alin Graf, **Les grands philosophes Contemporains**, (Edition du seuil mars, 1997), P60.
[2] Op-cit, P62
[3] Alin juranville, **la philosophie comme savoir de l'existence**, (Volume I altérité presse universitaire de France), P134.

إنّ الميتافزيقا في اعتقاد هيدغر يجب أن تنزل إلى الواقع وتهتم بالإنسان وتخضع له بحيث تشمل كلّ قيمه الدينية والأخلاقية والفنية، لقد حاول نيتشه أن يرجع كل المشكلات الوجودية إلى مشكلات قيمية، ويرى أن الحياة مجسدة في سائر نواحي الفلسفة، فيشرع هيدغر في تكريس النقد اتجاه المشروع النيتشوي،سيّما ما يتعلق بنزوة الشك التي طبّقها على ثقافة عصره بما تكتسبه من ابعاد فكرية وسياسة ودينية ....الخ، فهذا الشك لم يأت بفائدة تذكر، صحيح أنه أحدث ثورة فكرية عارمة على مستوى القضايا الفلسفية والثقافية. لكنّه وقع في مأزق حينما مجّد سلطة الإنسان القوي، والذي على منواله ابتكر المنهج الجنيالوجي القائم على الحفر في نشأة المفاهيم المتداولة من قبل الفلاسفة القدامى وحتي المحدّثين، وبهذا يركز هيدغر فلسفته على النظر إلى أصل الوجود (الانطولوجيا)[1] كونه يرجع كلّ ما له صلّة بالإنسان إلى الوجود والزمن. ولعل نيتشه في هذا المقام يتجه إلى نفس اتجاه الوجودبين في آرائهم إلى أمور الحياة بما فيها الإنسان، الوجود، المعرفة. القيّم، الأخلاق، الدين، الميتافيزيقا ...الخ. لذ ا اعتمد هيدغر أسئلة وجودية منها ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ والغرض من ذلك أن يفصل بين نظرته هو ونظرة نيتشه.

الغاية من النقد الذي قدّمه هيدغر اتجاه نيتشه يعني أنه أراد أن يحدث هو الآخر انقلابا على فلسفة نيتشه هذا من جهة ومن جهة أخرى أراد أيضا أن يبيّن لنا أنّ هناك فرقا بين تصورات الوجوديين وتصورات الفلاسفة الآخرين، يستعمل هيدغر مفهوم الدازين (Dasein) على أنّه الإنسان أو بالأحرى الوقع الإنساني، وعليه تراه يؤكد أيّما التأكيد على ضرورة الزمن وعلاقته بالوجود، من هنا يدعو هيدغر إلى الاهتمام بالوجود قبل الاهتمام بماهية الاشياء، طالما أن الإنسان يهدف إلى بناء ذاته على الدوام.

إن المبرّرات التي سعى هيدغر إلى تقديمها، إنّما توحي إلى أن نيتشه لم يؤكد جيدا على مفهوم أنّ الوجود سابق عن الماهية، ولم يضع توازنا حقيقي بين الوجود الذاتي مقابل الوجود الموضوعي، هكذا نجد هيدغر يهتم بفكرة الدزاين، ويعتبرها سر الانطولوجيا بأكملها[2]، يصرّح هيدغر أنّ نيتشه لم يحرّر العقل من التفكير المجرّد كما كان يدّعي، بل على النقيض من ذلك أبقاه على نمط أفلاطون حيث نظرية عالم المثل وهو العالم الحقيقي بينما العالم الحسي هو عالم الأوهام والأشباح، إنّ تجربة نيتشه الاساسية لم تخلّص العدمية من التفكير المجرّد أو من ظاهرة الانحطاط الذي عمّ الحضارة الأوروبية، والدليل على أن فكرة موت الإله لا تعدّ إطلاقا مبدءً في التصور الالحادي بقدر ماهي فكرة خالصة تجسدت في التجربة الأساسية كحدث تجلى في التاريخ الغربي.[3] ناهيك على أن نيتشه قد أعلن على أنّ فلسفته هي أفلاطونية في المقام الأول، هذا ما أدلى به هيدغر حينما تعمّق جيّدا في دراسة تراث نيتشه، يضيف

[1] R.cambelle, **Expliquez moi, l'existentialisme**, (Les Editions Foucher, Paris, France), P40.
[2] Op-cit, P144.
[3] Martin Heidegger, **Nietzsche**, Op-cit, P 144.

هيدغر بأي معنى يتحدث نيتشه عن العدمية؟ فهو يقول: "يجب أن نفهم الطريقة التي أوّل بها نيتشه ماهية الحقيقة.

إن العدمية في نظره تبقي مجرد تقويم للقيّم ليس إلاّ، ولم يكن غرضه إذن محاولة تجديد النظرة الفلسفية والمتافيزيقية لفهم الوجود، على أساس أن القيّم الإنسانية هي جزء من حياة الإنسان والوجود، وهو بهد السياق يكون قد كرّس التصور الكلاسيكي الوثوقي أن الماهية تسبق الوجود، وذلك من خلال اهتمامه الكبير بالإنسان وهو بمنأى عن ماذا يفعل هذا الكائن أمام هذا الوجود المادي الماثل أمامه، إننّا نفهم من هذا السّجال بين نيتشه وهيدغر أنّ هذا الأخير أعطى مفهوماً آخراً لمعني العدمية، فإنّ كان غرض نيتشه من العدمية هو الاعلان عن أفول الحضارة الغربية بمظاهرها المتنوعة، وابتكار مفهوم حداثي للعدمية فإنّه في نظر هيدغر قد أفلس مفهوم العدمية وحصرها في الإنسان الأعلى الذي يبرز في شخصية الحكيم زارادشت، ولعلّها هنا محل اعجاب نيتشه بالزهد والتّصوف فقط، كان بوسعه أن يخضعها إلى الوجود في حدّ ذاته ثم يلجأ الإنسان إلى إبرز كوامن قدرته.

نجد هيدغر يهتم كثيرا بالمقولات النيتشاوية فهو يبحث عن العلاقة المتينة بين هذه التصورات، فلا تكون إرادة القوة إرادة فعّالة إلا إذا كان يحدوها قصد أو نزوع من منطلق أن الشعور هو شعور بشيء ما. وليس أن يكون هذا الشعور مجرّد حالة نفسية دفينة تريد أن تحقّق بُعدها النفسي والاجتماعي، ثم يتساءل هيدغر لماذ يحصر نيتشه هذه المقولات في الإنسان الأعلى فقط؟ فالإنسان كنوع ينطبق على سائر أفراده وبالتالي يحملون الصفات جميعها وخاصة تلك الصفات الجوهرية التي لايمكن إطلاقا تصورها في الإنسان الذي تحدّث عنه نيتشه، هذا التعالي في فلسفة نيتشه لم يكن يرمي إلى تكريس الوعي الإنساني برمّته، إنّما كان في اعتقاد هيدغر خطاب موجّه ومؤسّس لنوع مميّز من البشر، وعليه لايعقل مثل هذا الخطاب البرغماتي إذ يهدف من خلاله نيتشه إلى إبراز فلسفته بشكل لافت، فتتميز عن باقي الفلسفات السابقة، أو حتى المعاصرة له. ينوّه هيدغر أنّ التراث النيتشوي لم يحقّق مبتغاه الذي كان قد سعى إليه في مسيرته الفكرية والحياتية لا لشيء إلاّ لأنّه بالغ في هذه الثورة العارمة الناقمة على كل شئ في عصره، إنّ السبب الجوهري الذي أدى بهيدغر إلى مخالفة نيتشه ونقده له هو مدى الولوع الشديد إلى حدّ المغالاة من قبل نيتشه إزاء التفكير الشرقي القديم المجسّد في شخصية زرادشت ثم التأثر بالديانة الزرادشتية إلى حد التّصوف والزهد.

إضافه إلى كل ذلك فقد تأثر بالتفكير اليوناني والصراع المعهود بين المرحلة الايولونية والمرحلة الديونيزية، ايثاره للديونيزية لم يكن خير تمثيل لما كان يرجوه من تحقيق مفاهيم فلسفية حداثية تشدّ الحياة في مجدها وسيرانها الطبيعي، ويري هيدغر أن هذا الطرح لم يجسّد بل بقي مجرّد تصور نظري. فنيتشه إذا يعيب عن السقراطية وما بعدها من وجود التفكير النظري المجسد في المرحلة الأبولونية إلا أنه وقع هو الاخر في هذا التناقض المرير، ففكره

كله أبولوني. فهو بعيد كلّ البعد عن تجسيد حلم المرحلة الديونيزية وتعني الاهتمام بالحياة بما فيها من فنون شتى، وبالتالي لم يجعل الميتافيزيقا تخدم الإنسان وتبحث فى حاجاته ومتطلباته بل بالعكس أخضع الإنسان لها فهو بهذا المسعى لم يكن باستطاعته تقديم الانتقادات لغيره من الفلاسفة أصحاب النظرة النسقية، وكان عليه أن يسعى جاهدا إلى الاحتراز من الوقوع في التناقض، من هنا تحضرنا دوما تلك المفاهيم النيتشوية في كل مؤلفاته تقريبا وهي بالاساس إنسانيه في المقام الأول وليس لها أي ارتباط بالحياة الوجودية، ثمّ يصرح هيدغر أنّ النقد الذي أوحى به نيتشه ضد الفلسفة، القيّم، الاخلاق، الإنسان، الدين، الميتافيزيقا يعني مجرد نقد دوغمائي سار على شاكلة من سبقه من الفلاسفة القدماء لذا كان لابد من العمل على تصحيح - كما زعم هيدغر- النظرة النيتسوية اتجاه أمور الحياة والإنسان والوجود لتحقيق نظرة فلسفية واعية بضرورة الزمن والوجود.

إن التغيّر الذي أحدثه نيتشه على مستوى الفكر والحياة يكمن في أنّه فيلسوف غير نسقي فهو يؤثر ولا يتأثر، فابتكار المنهج الجنيالوجي جعل فلسفته تنتشر أكثر وبسرعة في العصر الحديث، فاتخذ لذاته مقولات خاصة منها تقييم القيم، الأخلاق المتعالية، إرادة القوة الإنسان الأعلى، حب الحياة ...الخ. تلك صفات التفكير الفلسفي لديه، واشتهر في كتاباته عبر مراحلها الثلاث بخاصية لم تؤت لحل الفلاسفة سواء القدامى وحتي المحدثون. فالمقولات النيتشوية ساهمت بقسط وافر في تكريس البعد الإنساني من حيث الجانب النفسي وحتى الجانب الاجتماعي، إن نيتشه بفكره هذا خلق جدلا عميقا بين أصدقائه وبين معارضيه سواء في بلده ألمانيا أو في فرنسا على وجه الخصوص. لم يكن التأثير النيتشوي على العصر الحديث محض الصدفة وإنما كان بفضل عبقريته النفّاذة التي رأت أن الأمور لم تكن على طبيعتها وأنها بدأت تفقد وجودها وعليه فيجب أخذ زمام المبادرة في إعادة البناء وإرساء المنهج الجنيالوجي الحفري القائم على التفكيك أي: تفكيك كل القضايا المصيرية المعهودة بحيث تحدد كل النقائص فيها ثم بنائها من جديد في نمط نقدي يجد فيها قدرة المرء على التساؤل كيف يحقق النتائج المرجوة منها. ناهيك على أنّ الحضارة بهذا المعنى تصير أكثر اتضاحا وقبولا من طرف الإنسان، لأنها دوما تطمح إلى تحقيق متطلبات الفرد والمجتمع وابتغاء مرضاته أكثر في العصر الحديث.

لقد كشف نيتشه الكثير من الامراض والازمات عن طريق الحفر في أسباب وجودها واستفحالها أكثر خلال العصر الحديث لسبب جوهري هو أن الإنسان نسي تماما من الحقل الفلسفي وعدم الاصغاء إليه والاهتمام بما يحتاجه على الدوام من منافع وغايات، إضافة إلى قطع الصّلة بينه وبين حياته وكأنّ هذه القضايا تعالج وهي بعيدة عن معترك الحياة، لقد كان أبغض الامور إلى نيتشه هو ظهور ذلك النوع الجديد من الإنسانية الجماعية التي نمت مع

تطور التكنولوجيا الجديدة[1]. فالوظيفة الصحيحة للمجتمع في رأيه هي أن يكون بمثابة مكان مهم لتلك القلة من العظماء الذين يحقّقون المثل الأعلى الارستقراطي[2]، في هذا السياق نستطيع القول أن نيتشه أراد أن يرفع من شان وجود الفلسفة الذي يتبدي في النزعة الوجودية والنزعة الإنسانية (l'exitemtialisme c'est un humanisme).[3] إن هذا الوصف من قبل نيتشه القائم على نهج التحليل النفسي الذي تمكّن من معرفة خبايا النفس اللاّشعورية ذات إيحاء غير مباشر لتحقيق غايات وأهداف بفعل توطيد العلاقة بين الإنسان ومحيطه وتفجير المكبوتات الدفينة فيه بغية ايجاد توازن حقيقي بينه وبين الاخرين ومشاركتهم إياه في تحقيق المعنى الاصيل للإنسانية المفعمة بحبها العميق للحياة وليس سواها .

لم يؤثر نيتشه في عصره بذاته بحسب، بل ترك صدى فيما بعد، من هؤلاء نجد علماء النفس التحليليين ومنهم سيغموند فرويد وأدلر ويونغ ....الخ. وهذا يدل على مدى قوة شخصيته وفكره الفلسفي، لأنّه يهتم بالإنسان من ناحية السيكولوجية ومعرفة تلك الدوافع اللاشعورية وحتى الشعورية فيما يريده هذا الإنسان من تحقيق الأمنيات والحاجيات في هذا الوجود، وقد رأى هؤلاء العلماء ان نيتشه قد سبقهم، وربما فتح لهم مجالا واسعا كانوا يجهلونه همم عن هذا الكائن. فإرادة القوة لديه محفز نحو السمّو بالإنسان والدهشة التي أذهلتهم هي مدى قدرة إنسان نيتشه أن يحقق هذه الحالات الوجدانية الدفينة في شكل ممارسة الفنون بكل تجليّاتها والتكيّف مع مستجدات الحياة. وليس ذلك الإنسان الذي يتعرف عن طبيعة الحالات النفسية فحسب بل بقدر ما يسعى إلى إثبات وجوده في حدّ ذاته ومن ثمّ اثبات وجود الحياة، من هنا جاء خطابه الفلسفي متنوعا يشمل تقريبا كل الوان التفكير الفلسفي برمته فنجد النزعة العقلية والنزعة التجريبية والواقعية والمثالية والوجودية والبنيوية، وكذلك الشأن نظرة علم النفس وعلم الاجتماع أمام هذا الثراء المعرفي في فلسفة نيتشه نجزم لا محالة بأنّها فلسفة انسانية جديرة بالاهتمام والمتابعة، لذا انتقل صيتها مباشرة في العصر الحديث، لما نجم عن ذلك كثرة أقلام الباحثين والمهتمين بفكره، إلى معرفة حقيقة هذه الثورة المعرفية كونها تبنّت من النقد الفلسفي نقطة بداية المشروع النيتشوي وتحديد آفاقه كواحد من الفلاسفة المعاصرين الذين تركوا بصمات عميقة في الحياة وتأكيدا منه على ميزة الفلسفة الالمانية والتي تعرف بأنّها فلسفة ذات طابع أكاديمي عكس باقي الفلسفات الأخرى، حيث نلمس فيها مفهوم القطيعة بين مختلف التيارات الفلسفية، فلو بحثنا في ثنايا فلسفة هيغل نجده مكملا للتراث الكانطي، وماركس مكملا لتراث الهيغلي و نيتشه مكملا لتراث شوبنهاور.

[1] برتراندسل حكمة الغرب، الفلسفة الحديثة و المعاصرة، الجزء الثاني، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأداب، الكويت، 1983، ص 205.

[2] المرجع نفسه، ص205.

[3] Jean paule saute, **les mots traduit par thomas Grecs**, (Bordas, Paris, 2004), P20.

لقد أجمع الباحثون ان هذه الميزة لا يتصف بها اي فيلسوف كان الا الفيلسوف الالماني فهو الفيلسوف التواصلي وليس فيلفسوفا قطائعيا. هذا ما أردنا أن نشير إليه من خلال هذا الإسهاب في الحديث عن أحد أساطين الفكر الفلسفي الالماني على وجه الخصوص والفكر الفلسفي الحديث والمعاصر بوجه عام، علاوة على ذلك فنحن نريد أن نسبر أغوار هذا التاثير النتيشوي ومدى اسهاماته المتعددة في تحقيق نهضة جديدة بعدما ساد الفكر والحياة من الركود والتخلّف وما ادى به إلى الاعلان عن بداية الهدم وبداية عملية البناء من جديد، ولعلّ قراءة المؤلفات في الحقبة التي وجدت فيها تستشعرك بلحظة الميلاد من جديد.

هذا الميلاد فتح المجال لتاثير الفكر النيتشوي في الفكر المعاصر على ايدي بعض المفكرين الفرنسيين الالمانيين الذين غدوا في الفكر المعاصر تيارات هي بمقابل التيارات الأنجلو أمريكية، وإن برزت أكثر فذلك ناجم عن انتشار أفكاره في اوربا وامريكا اللاتينية وفي بعض البؤر في العالم الانجلو أمريكي وبعض البلدان الأفرو أسيوية، وهنا وبعد مرور قرن على وفاة نيتشه نجده حاضرا حضورا بارزا في الفكر المعاصر، ربّما لم يشهده لو كان حيا لان الفيلسوف وهو على قيد الحياة تعترض أفكاره ومواقفه افكار الخصوم والنقّاد لكنّه ريثما يشرف على الموت تتبدل تلك الافكار من قبل الخصوم إلى محل اعجاب واتفاق، فانتشرت أعماله وكثرت المؤلفات والشروحات التي تكتب عنه. ويكفي هنا ان يذكر احدهم قولا لنيتشه حتي يلفت النّظر ويؤجج نقاشا.[1] كما لوقع كتاباته وحكمه وقعا يحمل الكثيرين على طرح فلسفته او الكشف عن دلالات كتاباته الفلسفية أو سيرته الذاتية وتفاصيلها. ومن وجهة أخرى استثمر فكره لتأسيس نظريات فلسفية جديدة وايديولوجية، بينما ما نلحظه لدى هتلر ومدى اهتمامه بالتراث النيتشوي، وكذلك الشان في اوربا عامة وفي هذا تصديق لقول نيتشه: "إن بشراً يولدون بعد وفاتهم"[2].

لقد كان الإحياء هذا لتراث نيتشه، لمن دواعي الاطلاع عن كثب ما تركه هذا الرجل اثر بادي على الفكر الفلسفي المعاصر خاصة الفكر الوجودي والبنيوي وتيارات ما بعد الحداثة إلاّ أنه أصبح فيلسوف القرن التاسع عشر بلا منازع واحتّل المكانة التي كانت لهيغل او ماركس من قبل، نعم لقد اكتسى فكر نيتشه أهمية بالغة حينما أُلصق بالفكر الفلسفي وحقّق الكثير من المكتسبات والانجازات تجلّت في علم النفس عموما والتحليلي خصوصا، فها هو سيغموند فرويد وغيره - كما قلنا من قبل- يقرون بفضل كتاباته عليهم وبأنّهم باتو شغوفين جدا بقراءة نيتشه وأن دلائل اثبات اللاشعور في علم النفس فى اعتقاد فرويد كانت توحى وتوكد اطلاعه الكافي على مؤلفاته، حيث وجد الكثير من مشاعر ونظرات نيتشه تتطابق بصورة مذهلة مع النتائج الجبّارة للتحليل النفسي، و يظهر هذا التطابق أكثر عندما يقرّ تلامذة فرويد

[1] غالم هنا، **نيتشه فاصل بين حديث ومعاصر**، مقال في مجلة عالم الفكر، العدد4، ص16.
[2] **نفس المقال**، ص16.

(S.Fruid) بأنّ نظرت نيتشه إلى الإنسان الأعلى قد حفّزتهم أكثر للتعمق أكثر في الكشف عن خبايا سلوك البشرية من خلال تكوين وبناء شخصيته كما أن عالم النفس ادلر يعطي القيمة العظمي للشعور من خلال سعي الإنسان الدائم إلى اكمال شخصيتة الاتي من طموح الإنسان إلى إرادة القوة[1]، وهي الفكرة التي تندرج تحتها اللبيدو والدافع الجنسي والدافع إلى الانحراف أيا كان مصدرها جميعا.

[1] Alin juravoille, **la philosophie comme savoir de l'existence**, (Volume I altérité presse universitaire de France), P173.

المبحث الثاني: أثر نيتشه على جون بول سارتر (Jean Paul Sartre).

كان للفلسفة النيتشوية صدى واسع، وخاصة في فرنسا بالذات، حيث أولى الفلاسفة الوجوديون الفرنسيون اهتماما منقطع النظير بالتراث النيتشوي الذي جاء يحمل تطلّعات تنويرية جديدة تبدأ بالهدم، ثم تشرع بعدئذ في البناء، لم يكن هذا هو السبب في ذيوع الصيت لدى اسم الفيلسوف الإستثنائي الثائر و المتمرد ! على الحياة بشتى مناحيها في عصره. بل لما نجده نحن من ارتباط وثيق الصلة بين الوجودية الفرنسية خاصة و الفلسفة الألمانية عامة، لقد كان حضور نيتشه بارزا على الأعمال الفلسفية لسارتر و خاصة النظر إلى الإنسان أولا ثم الوجود ثانيا.

إن المبدأ الرئيسي الذي يضعه سارتر للوجودية هو القول: "بأن الوجود يسبق الماهية" "L'existence précède L'essence"، و يلاحظ أن هيدغر لم يستعمل هذه العبارة و إن تضمنتها كل فلسفة وجودية ضد القول القائل أن الماهية تسبق الوجود.

إن التأثر الذي أبداه سارتر اتجاه أعمال نيتشه هو اعتبار هذا الأخير أنّ الإنسان يشكل مشروعا حقيقيا يجب البدء به، حيث الاهتمام بالحرية كشرط أساسي للوجود البشري الحقيقي، فهو لم يستفد من هذا الشرط لأن الإنسان كان مغيّباً ضمن مباحث الفلاسفة، و حتى في تاريخ الفلسفة في حدّ ذاتها هذا من جهة و من جهة أخرى أنّ أعمال نيتشه، كانت تمثل تجاربا حياتية، حيث رآها سارتر قد تحققت في الحياة في نمط الموسيقى، الفن، الأعمال المسرحية، الأفلام ...إلخ.

إن تأثير الفلسفة الألمانية على الفلسفة الفرنسية، من خلال أثر نيتشه على أعمال سارتر ثمّ تأثر سارتر في حدّ ذاته بهيدغر من خلال مبحث الوجود و نظرتهما إليه. فإذا بحثنا في الوجود على أساس هذا المنهج وجدناه ينقسم إلى وجودين: وجود في ذاته "L'être en soi"، و وجود لذاته "L'être pour soi"، هذا يذكّرنا بمفهوم الوجود لدى هيدغر، حيث الوجود الإنساني، و الموجود فيه أي الإنسان في هذا الوجود، من هنا يبدو أن سارتر قد تأثّر بفلسفة هيدغر خصوصاً عندما يعتبر أنّ الإنسان هو المشروع الأول لهذا الوجود حينما يفهم وجوده باستمرار. فيتحول الإنسان بعد فهمه للوجود الحسي إلى اعتباره هو في حدّ ذاته الوجود الحقيقي، و ذلك من منطلق أن الموجودات الحسية هي الوجود الإنساني بعينه، على غرار أن حقائق الموجودات لا تفهم إلاّ من خلال فهم الإنسان لها. و لهذا نجد ارتباطاً وثيقاً بين الأعمال الفلسفية الفرنسيةو مدى تأثرها البالغ بالفلسفة الوجودية الألمانية بحضور أعمال نيتشه وأعمال هيدغر.

لم يكن اسم نيتشه الفيلسوف حاضرا في الفلسفة الالمانية فحسب، بل انتشر فكره نحو اوروبا، وخاصة فرنسا، إن المتتبع لفلسفة نيتشه من الباحثين يدرك مباشرة أن فرنسا بالذات كانت تشّع بالتيارات الفلسفية المتعددة، ومنها تحديداً بزوغ تيار الفلسفة الوجودية التي سعت إلى إعادة الاعتبار للإنسان وركّزت على همومه وانشغالاته بغية ايجاد مبرّرات لها وهذا ردا صريحا على الفلسفات الكلاسيكية التي في رايها اهملت الإنسان دون أن تنظر إليه وتجعله من الموضوعات الرئيسية، ويأتي على رأس الموضوعات الأساسية المعهودة في تاريخ الفلسفة من هذا المنطلق اعتبر الباحثون أنّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين الفكر الفلسفي الالماني والفكر الفلسفي الفرنسي، وذلك بطبيعة الحال بفضل حضور نيتشه ودراسة تراثه الفكري. فتأثير نيتشه على القرن العشرين، وعلى الفكر الفرنسي كان قوياً جدا، فهو يعدّ من الفلاسفة الكبار الذين تركوا أثراً بادياً على العصر الحديث والمعاصر شأنه شأن هيغل، ماركس، نيتشه، فرويد، هيدغر.

لقد كثرت الأبحاث من قبل الباحثين حول فكر نيتشه ولاسيّما الفرنسيين منهم أكثرمن غيرهم وبالتحديد في بلده الاصلي المانيا، فقد تبناه الفرنسيون وتحمّسوا له كأنهم واحدا منهم، هكذا نلاحظ ان تفكير نيتشه قد أثّر على الفرنسيين تأثيرا بالغا، وذلك من خلال مؤلفاته التي لاقت صدىَ وترحيبا تجلى في ترجمة هذه الانتاجات من لغة الأم الألمانية إلى اللغة الفرنسية عدّة مرات من قبل الكتّاب الفرنسيين وأصبح مرجعا للساحة الادبية والساحة الفكرية في آن واحد معا، فنيتشه لم يكن مفكرا عميقا جدا فحسب وإنّما هو أيضا كاتبا كبيرا من أعلى طراز.

إن فكر نيتشه حاضر في ثقافتنا بشكل كبير وملفت، الأمر الذي جعله يؤثّر في الفرنسيين كثيرا لقوة فكره الفلسفي وما يتناوله من قضايا فلسفية أكثر جرأة وحماسة وجسارة موقفه البطولي، ناهيك على أنّ ترجمات الباحثين الفرنسيين المتخصّصين في الفكر الالماني ساعد على انتشار فكره حتى غدا في متناول المثقفين والكتّاب والشعراء إلى درجة التأثر الشديد بأعماله حيث اتّسمت بأسلوب سلس فيه عذوبة المعنى ورقّة الكلمة وقوة الخيال يحاصرك وأنت تقرأ له، فلا تستطيع أن تنفلت منه، كل ذلك نابع عن تجربة فيلسوف عاش محن الحياة، فورد إلينا ثائراً وناقدا للوضع بشكل عام، وعصره بشكل خاص فكانت مشاعره صادقة مفعمة بحب الإنسان وحب الحياة لذا انساب فكره مباشرة في أذهان الناس نظراً لما أولاه من اهتمام وطموح في تحقيق فكر جديد.

لقد أراد الباحثون وربّما بعض الفلاسفة الفرنسيين أن يجعلوا من نيتشه فيلسوفا فرنسيا وذلك من منطلق أنه في العديد من المرّات لم يخف اعجابه بالثقافة الفرنسية، من هنا يصّرح نيتشه قائلاً: حتى اليوم لاتزال فرنسا هى مركز الحضارة الاوربية الأكثر روحانية وظرفاً

ورقياً، كما أنّها المدرسة الكبرى للذوق.[1] إنّنا نستنشف من وراء ذلك أن هنالك تلاقحاً ثقافياً وفلسفياً بين الفكر النيتشوي وبين الفكر الوجودي الفرنسي بالخصوص بما فيه من شعراء وكتّاب وفلاسفة وموسيقيين وفنانين و مبدعين... الخ، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مدى العمق في فكره الفلسفي المتحرر والمغامر والثائر، ناهيك على أنه فيلسوف استثنائي تميّز بأسلوبه الفلسفي الثائر والعنيف وقت الحاجة إلى الرفض وعدم الخنوع لمثل تلك الرتابة والفتور التي تتجلى في سلوكاتنا اليومية، وحتى على مستوى الانساق الفلسفية والنهوض بالإنسان والحضارة إلى منزلة راقية، ويتميز أسلوبه أحيانا بالهدوء والسكينة وقت مخاطبة الإنسان نحو الاهتمام بذاته وبوجوده وإقباله على الحياة بما فيها من ابتكارات شتى، تلك ولا ريب هي شخصية هذا الفيلسوف، فهو بكل مرحلة عاشها كتب فيها عما يخالج ذاته من تجارب عظمى تعبّر عن حالته الشعورية في اللّحظة الراهنة فكل من يبحث في مؤلفاته ولاسيّما المهتمين بفكره من فلاسفة أو باحثين يدرك ان المؤلفات هي خير ما يبيّن لنا ماذا حدث في تلك الفترة بالذات من أحداث متنوعة تجعلنا نقف على حقيقة الفيلسوف من حيث أفكاره، حياته...الخ.

إنّ تنوّع الكتابات لدى نيتشه في كل مرحلة من عمره هو ما أثار انتباه غيره، وبالتالي فلا مناص من أن يلقى فكره صدى ورحباً واسعا في أوروبا عامة، وألمانيا وفرنسا خاصة بالرغم من تعلّقه بالثقافة الفرنسية إلاّ أن نيتشه يظل فيلسوفا ألمانيا ينتمى إلى مجموعته وبيئته التى ترعرع فيها، ثم انتشار فكره وما لاقاه من صيت واسع في عصره لا يمكنه أن ينسيه وجوده وحياته في بلده الاصلي، رغم انفتاحه على ثقافات متنوعة خارج بلده المانيا، أمام حضور نيتشه في الفكر الغربي الحديث والمعاصر انقسم حوله المؤيدون او ما يسمى حوله بالاصدقاء والمعارضون او ما يسمى أحيانا الأعداء والخصوم*، إنّ هذا السجال سيزيد نيتشه حضورا أكيدا يقرأه جيل بعد جيل، وما وجود تلك الانتقادات والتجاوزات لدليل على أنّ فكره لايعرف الاستقرار وإنّما يسعى إلى تخطي كل عقبة تحدّ من حريته ومن طموحه.

قلنا آنفا أنّ نيتشه ترك اثرا هاما على الفكر الفلسفي المعاصر تجلى في اغلب التيارات الفكرية فيها البرغماتية، الوجودية، الوضعية، الواقعية، ويرجع هذا التأثير إلى السّمات المتعددة التى شكّلت فلسفته ومنها الجرأة والحماسة ناهيك عن المفاهيم المعروفة لديه كونها مهّدت لبروز اتجاهات أقرّت بالفضل له، ورغم بعض الدعاوى من قبل البعض في محاولة فهم و دحض فكره ومشروعه الفلسفي بصفة عامة، وفي خضمّ هذا المناخ الفكري ظهر

[1] Fredrich Nietzsche, **par de la Le bien et le mal**, Traduit Par genevieve Bianquis Paris, union générale d'edition, 1988, P 306.

* بعد انتشار فكر نيتشه في العصر الحديث والمعاصر، وخاصة في ألمانيا وفرنسا، كثرت حوله الكتابات والدراسات بين من يؤيد فكره باسم ما بعد الحداثة وخاصة دولوز، وفوكو،، دريدا وبين من يرفضه بإسم دعوته إلى النازية وتبرير السلطة في بلاده آنذاك، و نشير هنا إلى هوبرماس وبعض فلاسفة مدرسة فرانكفورت، إضافة إلى فلاسفة فرنسيين ظهروا فيما بعد ثاروا على فلسفته أو ما سمي عادة أصدقاء نيتشه و خصومه.

الفيلسوف الفرنسي الوجودي جون بول سارتر (Jean Paul Sartre) (1905-1980)، حيث كان يمثل أحد أقطاب الفكر الفلسفي الوجودي في فرنسا على وجه الخصوص وفي أوربا عموما تأثر سارتر هو الآخر بفكر نيتشه إلى حد أنّه رأى أن الوجود لايكمن في ظاهر الأشياء الموجودة فيه، بل أنّ نيتشه[1] بنظرته إلى الوجود جعلنا نبحث عن العالم الخفي فيما وراء الاشياء ألا وهو فهم الإنسان لهذا الوجود وكيف يتسنى له الابداع فيه وترك أثره الفعّال، ذلك طبعا بفضل أسبقية الوجود عن الماهية، لقد رأى سارتر في نيتشه خير من دافع عن التصور الفلسفي الوجودى ونظرته إلى القضايا الفلسفية برمتها، فهو شأنه شأن الوجوديين الآخرين الذين لم يستطيعوا الصمود أمام فكره الجارف، وحريته التي فاقت كل تصوّرات الفلاسفة عنها. وما أعجبهم فيه أنه ينفلت في كل لحظة وسرعان ما يغيّر أفكاره ومواقفه حسب ضرورة مقتضيات الحياة.

إن ما لفت انتباه سارتر هو الاسلوب الراقي الذى كتب به نيتشه مؤلفاته ففيه سحر البيان وقوة التعبير الهادف ولعلّ هذا ما نشهده في مؤلفات سارتر وبالخصوص كتاباته الأدبية والمسرحية وهى الأخرى لاقت شهرة واسعة لما حققته من تجليات على الواقع في شكل قصص ومسرحيات وأفلام فقرّبت الإنسان إليها أكثر، فصار يحبّذ هذا النمط الفلسفي البعيد عن جفاء الفكر وعزلة الحياة، فلا فائدة إذن من فكر لايراعى هموم وقلق الإنسان ويعلي من شأن الحياة على حد سواء، وعلى النقيض من ذلك لم يكن نيتشه - في نظر الوجوديين – من أصحاب الفكر التقليدي وإنّما اعتبر فيلسوفاّ متحرراً من كلّ قيد ومن كل سلطة، إن هذا التأثير النيتشوي على الفكر المعاصر وعلى سارتر بالذات هو تأثير فعّال ولم يكن تأثيرا جزافا هكذا، والدليل على صحة الاعتقاد أن نيتشه أنزل الموضوعات الفلسفية في مستوى التنظير العقلي التجريدي إلى مستوى الواقع المعيش.

يعتبر سارتر أن الحرية[2] هي محور المشروع الفلسفي وهو في هذا الطرح يسير على منحى نيتشه الذى منح للحرية بعداً انسانياً وحضاريا، بحيث يصبح الإنسان كائنا حرا يستطيع أن يتحكم في الوجود مما يعطى له كامل قدراته من ابداعات شتى إن سارتر يقع تحت تأثير نيتشه نظرا للمفاهيم المعروفة فهي تعزّز من الموقف الفلسفي لديه الذي تمثّل في نقده المستمر لمقومات العصر الحديث، وخاصة الحضارة الأوروبية، يعتبر سارتر أنّ مبدأ الحرية هي إرادة القوة نظرا لما تمنحه لنا من انسانية أكثر فهي تكشف مدى عمق التجربة الإنسانية الاصيلة المتمثلة في جملة الانفعالات الذاتية، ويأتي القلق من بين هذه الحالات فهو يزيدنا في

[1] Jean paule sartre, **L'etre Et Le Néant,** (librairie gaillmard, Paris France, 1953), P 12.
[2] Alain graf, **Les Grands Philosophes Comtemporains**, Op-cit, P70.

طلب الحقيقة وبالتالي نشعر حيال ذلك بأنّنا مسؤولون لأننا نمتلك حرية الاختيار وذلك نابع من شعورنا ووعينا حسب سارتر، الحرية هي أساس الوجود الإنساني الحر[1].

إنّ الإنسان خلق ليعيش وينعم بحريته وليس هناك عوائق تحدّ من إرادته الساعية نحو تحقيق متطلبات الإنسان الدؤوبة، يبدو أن سارتر قد اعترف بقيمة التصورات النيتشوية مثله مثل مارتن هيدغر من قبل، طبعا هذا لايعدّ انقياداً أو خنوعاً بقدر ما لمكانتهما في الحقل الفلسفي، و ما لقيمة ثراث نيتشه من جهود جبّارة أسهمت بقسط وافر في تقدم الأبحاث الفلسفية وحرّرتها من طغيان النسقية، ودفعت بالإنسان إلى مستوى التساؤل في كل لحظة زمنية قصد تمكين ذاته جيداً مع ضرورة الحفاظ على الحياة.

إنّ المشروع السارتري يضع مفاهيم وجودية تأتي الحرية في بدايته لكونها في –نظره- سر وجود الإنسان ومصدر عيشه ثم إرادة القوة ويقصد بها سارتر أن الإنسان يجب ان يبذل قصار مساعية من أجل تحقيق كل حالاته الوجدانية النفسية بنوع من الرتابة والسكينة، فيخلق التكيّف والانسجام مع غيره في المجتمع، فهنا تكمن حقيقة الوجود لأن إرادة القوة تجسدها الحرية، وهذه الاخيرة هي الإنسان وعلاقته بالوجود، ولا ينبغي اعتبار الوجود هو مظهر الاشياء الموجودة للعيان وإنّما ينبغي اعتبار ما تحمله هذه الأشياء من خصائص جوهرية تنفع الإنسان الإنسان في حياته، يوكد سارتر مرة اخري ان نيتشه هو من أرسي دعائم التيار الوجودي المتمثل في الوجود سابق للماهية، وأنّ الإنسان خالق لقيمه ولإرادته ولافكاره وبالتالي يسعي إلى اظهار صفاته المتعددة التي تدل على أنه كائن راق. لعلّ هذا التقارب بين نيتشه وسارتر وغيره من الوجوديين ما جعله يتشابه مع الوجودية أكثر من بقية التيارات الفلسفة الاخرى، الامر الذي جعل الوجوديين يصنفونه واحدا من بينهم ولكن هذا هو منهج تفكير نيتشه تحسبه كذلك وهو ليس بكذلك. تغير مواقفه الفلسفية ناجم عن كثرة ترحاله وسفره بين بلدان أوربا.

يركّز سارتر على ان الوجود سابق للماهية وعليه فهو يعتبر ان الوجود هو الذي يحدّد أني موجود بالفعل. وليس على النقيض من ذلك أن ماهيي كإنسان تجعلني أتحكم في وجودي. وهنا يرى سارتر ان الإنسان يتميز بميزة العقل الذي يفضله عن باقي الكائنات الاخرى، إنه بهذا التصور أراد ان يستشعرنا بحضور نيتشه عندما نقد تلك النظرة التقليدية إلى الوجود والإنسان معا، فهي برأيه ليست رؤية تليق بمقام كائن حر مثل الإنسان، و إن كان نيتشه قد صنف الإنسان إلى قوي وضعيف فإنّ سارتر يشيد بمواقف نيتشه الجريئة و المفعمة بالحماسة وروح المخاطرة في الاعلان عن إحداث تغيير شامل أسماه بالمنهج الجنيالوجي، أي إعادة بناء المفاهيم والمواضيع الفلسفية بنمط آخر غير النمط المعتاد علاوة على ذلك يلمّح سارتر أكثر من مرةأن تاثير نيتشه لم يؤثر علية فحسب بل على تيار الوجودية كلياً.فكل من يقرأ له يتصور

[1] Alain graf, **Les Grands Philosophes Comtemporains**, Op-cit, P70.

أنه امام مواقف متعددة بتعدد المواضيع التي يتكلم عنها. فلا تستطيع أن تصدر أحكاما جازمة عن فلسفته؛ لأن تراثه صار فيما بعد وفاته في متناول الفلاسفة والباحثين؛ مما يستوجب علينا الاقتناع بأنّ كل قراءة تأويلية له تهدف إلى إعطاء وجهة نظرها الخاصة بها، وتريد ان تصل أنها هي القراءة العميقة والمتخصصة في فكره وحياته. فنحن أمام هذا الوضع لا نعرف أيّها أجدر بالقراءة والمتابعة؟. هذا الذهول والحيرة يصعّب على الباحث كيف يمكنه أن يقرأ أعمال نيتشه ثم لاننسي أن ثورته فتحت المجال للقراءات التأويلية، فنتج عنها الاصدقاء والخصوم.

من هنا يراودنا سؤال مقلق جدا كيف نفسر من يقرأ لنيتشه ويتأثر به في البداية ثم في النهاية ينفده ويتخلص منه أهو صديق أم خصم؟! في هذا السياق اهتم سارتر بفلسفة نيتشه حينما دعا الإنسان إلى بذل قصارة جهده؛ بغية التضحية من أجل حياة أفضل، حيث نجد سارتر يأخذ من نيتشه فكرة التعالي "Transcendantal"[1]، وكان يقصد به الحد من الثنائية "Dualisme" العقلانية ولا سّيما الديكارتية ومفاده أن المرء عند تعامله مع العالم الخارجي تكون الذات العارفة هي القادرة على احتواء الموجودات من ظواهر عدة وفهمها بمعنى آخر أن الماهية تسبق الوجود باستمرار، إن هذا التصور يرفضه الوجوديون؛ لأنّ الانسان يمتلك لحظة الاختيار النابعة عن القصدية فأنا أريد أن أعرف هذا الشيء، أو لا أريد، كل ذلك نابع من الشعور بالرغبة اتجاه العالم الخارجي. فقد كان نيتشه أول من فتح المجال لمثل هذه الانتقادات لدى مارتن هيدغر، جون بول سارتر وغيرهم، و من ثمّة الاعتراف بما قدّمه من إنتاج فلسفي غزير جعله في مصفّ الفلاسفة العظام.

إنّ الحديث عن سارتر دوما ينبئنا، أن فرنسا كانت الحركة الوجودية فيها أوثق ارتباطا بالأدب. فقد كانت رواياته إلى جانب دراسة فلسفية كبرى تكتسي قدرا كبيرا من أفكاره الوجودية من خلال شخصيات* تواجه ذلك النوع من الدعوة إلى الفعل الذي هو جانب عظيم من جوانب الوجودية، ويتيح الشكل الروائي الادبي أفضل وسيلة لعرض التأملات المتعلقة بمحنة الإنسان، لو تأمّلنا في الأمر لأدركنا كم كان نيتشه في حياته يدعو إلى مثل هذه الافكار الفلسفية التنويرية أن تجسّد في شكل الرواية، القصص، الشعر والموسيقى حتى يغدو الإنسان أكثر نبلاً وتأصيلا! هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ هذه النظرة فتحت آفاقاً عدة للفلاسفة المعاصرين على اختلاف مواقفهم الفلسفية وبالتالي يعد نيتشه قطيعة معرفية بين عصره والعصور الماضية، وبداية جديدة لظهور مفهوم الحداثة ومابعدها، يسير سارتر في نهاية الامر في الفكرة الوجودية المتعلقة بالحرية الإنسانية. فالإنسان يختار مصيره على الدوام

[1] Jean paule sartre, **L'etre Et Le Neant,** Op-cit, P 13.

* اتخذت روايات سارتر في فرنسا وغيرها بعدا فنيا و فلسفيا أضحى جزءا من الإنسان في واقعه و هذا ما تكرّسه الفلسفة الوجودية من خلال روادها. و بالتالي اشتهرت أعماله بكثرة نظرا لإرتباطه بالأدب و عرف سارتر بمواقفه البطولية و الإلتزام بالمبادئ، و هذا ما يفسّر رفضه لنيل جائزة نوبل للسلام، حيث رآها تكتسي إيديولوجية سياسية دنيئة كما تصورها في خلال الوقت .

وليس في حياة الفرد أي ارتباط بالتراث الماضي أو الأحداث السابقة، وهكذا يبدو كل قرار جديد حسب سارتر يقتضي نوعا من الالتزام الشامل.[1]

إن سارتر يسير في نفس المنحى الذي أقرّه نيتشه تقريبا عندما اهتم بالإنسان تحديدا فها هو يري أن بعضاً من النّاس يخاف هذه الحقيقة الأليمة، فيلجأ إلى خلق تبريرات قصد الهروب من المواجهة، على غرار الإنسان الذي يفهم مصيره ويعقد العزم على تحقيقه، إن هذا المصير يشترك فيه رجل العلم مع المؤمن بالدين، فكلاهما يحاول التّملص من الواقع، ولكنّهما يرتكبان خطأ مؤسفا في رأي سارتر فليس العالم كما يتصوره رجل العلم أو المؤمن أما الرب في نظر سارتر قد مات منذ عصر نيتشه[2]، والواقع أنّ الشخص الذي لديه استعداد لمواجهة العالم على ما هو عليه يذكّرنا بالبطل عند نيتشه، فمن هذا المصدر استمد سارتر خروجه عن الايمان الديني. يبدو أثر نيتشه واضحا جدا من خلال ما يراه سارتر من مواقف فلسفيه بطولية توطّد العلاقة بين الإنسان والوجود، فهو يؤكد على الحرية الوجودية، فهي ليست مجرّد تصور ميتافيزيقي من ناحية وعينا بها، كما يري ديكارت، هيجل، سبينوزا، في هذا الشأن يتّضح لنا سارتر وهو يرفض التّصور العقلاني المجرّد وذلك من خلال فكرة الحرية فالوعي بها يختلف أشد الاختلاف عن ممارستها، إلى هنا مازال ساتريردد مواقف نيتشه ويراها حلولا للمشاكل الإنسانية.

إن كان سارتر يبدو قد ذهب إلى أبعد مما ينبغي في محاولته أن يربط هذا الموقف بالالحاد[3]، ذلك من منطق أن الإنسان في نظره حر و أن يفعل ما يشاء[4]، والواقع أن الفلاسفة الوجوديين قد اختاروا في هذه المسألة مواقفا متباينة كما رأينا من قبل، نقد سارتر كلا من العلم والدين، حيث رأى أن العلم سار في طريق آخرغير انساني نظرا لطغيان التفسير المادي، على إثر ذلك فقد الإنسان قيّمه وخصاله وجرّد من كلّ ما له صلة بالوزع الاخلاقي والديني، فالعلم إذن لم يخدم الإنسان فيما كان يحتاجه من منافع وغايات، وهنا يظهر تأثير نيتشه عليه كونه أيضا لم يتقبل مثل تلك المساوئ التي نجمت عن تاريخ العلم وكان لابد من تصحيح نظرة الإنسان إليه وجعله في نهاية الأمر في خدمة الإنسان، ذلك ما يبرّر لنا علاقة نيتشه بالوضعية المنطقية فيما بعد، ثمّ يلجأ سارتر إلى نقد الدين، وهو يسير على وتيرة نيتشه الذي نقد الديانة المسيحية في عصره لأنها لم تحترم مشاعر الإنسان، وذلك ما يظهر جليا في السلوك العام للقساوسة والرهبان - على الرغم من أن شخصية المسيح مسالمة ومتسامحة - إلا أنّ سارتر أيضا أبدى موقفا إزاء الدين، وما نجم عنه من مشاكل أساءت كثيرا إلى الإنسان، لم تكن في

[1] برتراندرسل، **حكمة الغرب، الجزء الثاني**، ترجمة فؤاد زكريا، (عالم المعرفة، سلسلة ثقافية شهر المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت، 1983)، ص301.
[2] **نفس المرجع**، ص301.
[3] براتر اندرسل، **حكمة الغرب، ج2**، ترجمة فؤاد زكريا، ص302.
[4] R.cobelle, **Expliquez moi, l'existentialisme**, (Les Editions Foucher, Paris, France), P07.

الدين في حدّ ذاته بقد ما كانت في من يمثله من المتدينين أي: في السلوكات والافعال المنتهجة منهم.

إنّ سارتر أباح موت الرب لان الانسان قذف به في الوجود، وليس هناك ما يسمى عنده بالخلق وبالتالي تميّز فكره بالالحاد، لذا نجد مفهوم الحرية لديه مفهوما مطلقا، فالإنسان يفعل ما يحلو له دون اكراه أو ضغط، ففي نظرية سارتر للانفعالات نجد ملاحظات طريفة وقيّمة في وصف حالات نفسية متنوعة، أراد هو ان يحوّلها إلى مبحث في الوجود (أنطولوجيا)، ولكن كان هذا هو بالضبط هو هدف دراسة سارتر المسمات "الوجود والعدم" وهذا الكتاب يتماشي تماما مع الطريقة الالمانية في التأليف ويتميز بأسلوبه الصعب الغامض، ولا شك أنّ الرّوح النيتشوية سارت في شخصية سارتر إلى درجة أن الوجودية كاتجاه فلسفي معاصر اتّخذت من فلسفته منطلقا نحو فهم الحياة والانسن على حد سواء، الملفت للانتباه هو تجدّد الافكار والمواقف لدى نيتشه وهذا تماشيا مع حركة الزمن واختلاف الثقافة من عصر لآخر، ما أدى بسارتر إلى الاعجاب بشخصية نيتشه الثائرة والمتحمسة.

بالنسة لسارتر فالحرية* تعطيك لحظة الاختيار، إنني على الدوام أشعر دوما أنني حر وأختار ما أريد، رفضه للدين أو العلم معناه أن الإنسان لم يعد يشعر حيالهما بأنّه كائن حر ويمارس حريته باقتناع، بل وجد الإنسان فيهما عوائقا جمّة في الحد من الحرية، ناهيك على استغلالهما لكرامته والحط من قدره وقيمته. فهنا نجد سارتر قد اباح للانسان التمتع بحريته كاملة، ولعلّ اهتمام نيتشه بالإنسان الأعلى وتقديسه على انه الكائن الامثل اوحى لسارتر ان يكون البشر كلهم على شاكلة إنسان نيتشه، حيث إراد القوة و المجد والعزة! لقد كانت مفاهيم نيتشه إلهاماً لكل فلسفة وجودية سواء أكانت وجودية إلحادية أو وجود مسيحية مؤمنة على اعتبار أن نيتشه قد ترك أثراً هاما على الفلسفة المعاصرة. وربّما اهتمّ به الوجوديون أكثر من غيرهم لكونه يحمل نفس الانطباعات الفلسفية لديهم، كذلك الشأن بالنسبة لمفهوم العدمية والعود الابدي الذي جعل سارتر يتأثر كثيرا بمقومات عصر نيتشه، فأراد أن يجسّد نفس المسعى النيتشوي ألا وهو بداية إعلان ثورة فلسفية كاسحة تعيد الاعتبار لحرية الإنسان وكرامته في تحقيق وجود أسمى بعيدا عن الاحقاد والاديولوجيات الضيّقة، على إثر ذلك يشرع الإنسان في بناء مشروعه الفلسفي، إن الشعور بالقلق والمعاناة اليومية المستمرة لدليل على عدم شعور الإنسان بالراحة والسكينة، فيضطر إلى بذل قصارى جهده من أجل التضحية والدفاع عن وجوده، هذه الوضع المتأزّم خلّفته بعض الآراء الفلسفية التي اتّخذت من طابع العقل معياراً

* يمكن وضع مقارنة بين سارتر و تصور ماركس للحرية، فسارتر يرى أن الحرية نابعة من التفكير الوجودي الذي يجعل الإنسان يمتلك لحظة الاختيار في كل الأفعال الصادرة عنه فهي لا توهب لجميع النّاس بل توهب لمن يريد أن يشعر شعورا حقيقيا وهنا تغلب على سارتر فكرة العبثية و العدمية بينما عند كارل ماركس (1818-1883)، فالحرية هي التحرّر من الأوضاع الإجتماعية المزرية و تتطلب تضحية و معاناة لاسترجاع الحرية المسلوبة ويرى أن العامل الإقتصادي هو من يحقق للإنسان الحياة . فهناك تداخل ضمني بين السارترية والماركسية في هذا التصور ولابدّ من توضيح ذات الأمر.

للحقيقة، نجم عن هذا الوضع شقاء الإنسان واضمحلال قيمه وخصاله فأدرك بدنو مصيره جرّاء شعوره بالتهديد، فليس تهديدا بفناء الإنسان والانتقام منه، وإنما قصد سارتر بهذا القصور أنّ الحياة بهذا النّمط تجبر الإنسان على الاستسلام والخنوع وتظل جافة غير مجدية عندما يراود الإنسان الفشل الذريع وفي النهاية يكون دوره سلبياً جدا غير فعّال، وفي نظر سارتر أن الفلسفة إذا اهتمت بالإنسان استطاعت أن تؤدي دورا هاماً لأن الإنسان هو الذي يبحث في الكون، ويبحث في أصل المعرفة وبقية الموضوعات الأخرى لأنّها مرتبطة بها.

هذه الموضوعات الفلسفية لا تكون لها قيمة، إلا بوجود الإنسان وعليه ركّز سارتر على الحرية حينما ربطها بالقيمة، كما أشار نيتشه من قبل في دعوته إلى اعادة بناء المفاهيم من جديد وفق المنهج الجنيالوجي الذي يبحث في أصل المفاهيم وكيف يتم توظيفها وبنائها، من هنا اعتير سارتر أن الحرية هي الاساس الوحيد للقيم ولا يوجد شيء مطلقاً يبرّر قبولي لهذا السلّم للقيم أو ذاك[1] التصور السارتري في هذا الشأن يحذو حذو نيتشه في كونه لم يتجاهل دور الحرية في النهوض بالإنسان وبثّ فيه روح العزيمة لإحياء منظومة القيّم بعدما فقدت طابعها الإنساني والحياتي. يرجع هذا السبب إلى استفحال ظاهرة العدمية وانتشارها في أوربا وكان لزاما أن يجد لها حلاً جذرياً وهو الحد من هذه الظاهرة والقضاء على الامراض التي أصابت الحضارة الغربية، هكذا يمجد سارتر من الحرية؟ ولكنّه لا يدعو الإنسان إلى الاستسلام الكلي، فهو يكلف الإنسان بمهمّة تكوينه لنفسه وإعطاء معنى للعالم بحريته التي هي حقيقتة وقيمته الأساسية، فالوجود لذاته وعي بالفعل، ولكنّه أيضا حرية.[2]

بما أنّ الإنسان لا يستطيع أن يكون فقط، فإنّه مضطر إلى أن يكوّن نفسه بنفسه، ولا يتأتي له ذلك إلاّ إذا كان حراً، فهي الواقع الإنساني الذي كان قبل كلّ شيء عدم، إنّها هي التعالي وهي الوجود نفسه في كلّ تصوّر فلسفي لدى سارتر يبرز تأثير نيتشه بوضوح من خلال تأكيد سارتر على الحرية كونها هي الإنسان وهو الوجود، أمّا اللاّحرية هي العدم، وعليه لا يكون الإنسان بهذا الوصف إلا اذا كان قد ارتقى إلى مصّف الحضارة والوعي، يتشابه سارتر هنا مع موقف نيتشه في حثهما الإنسان نحو الاعلاء من ذاته وقيمه واخلاقه حتي يغدو كائنا حرا لا يستسلم للشقاء والبؤس بل تراه يهدف إلى السعادة والفضائل.

إنّ الامر كذلك عند نيتشه حينما أكدّ على ضرورة الحرية، باعتبارها شرط أساسي لتخطي الإنسان ذلك الوضع المتأزم إذ يطمح نيتشه في هذا المقام بإعطاء مفهوم حداثي، وإيجاب لمفهوم العدمية، بعدما كانت في الماضي تشكّل عقبة أمام الإنسان والحياة أضحت الآن أفقا لتجاوز الرّكود والسقوط الذي ألمّ بها، وبالتالي يعود سارتر إلى اعتبار أن الإنسان هو

[1] الربيع ميمون، **نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية و المطلقية**، (الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1980)، ص 171.
[2] **نفس المرجع السابق**، ص 176.

الوجود في ذاته[1] وذلك من منطلق الإبداع، الفهم، المحافظة على الحياة، الإرادة والحرية ....الخ

في نظر سارتر الإنسان يوجد اولا غير محدد بصفة ثم يلقي بنفسه في المستقبل ويشعر بذلك بالافعال التي يؤديها ولهذا فالإنسان هو أول مشروع[2] وتصميم يحيا حياة ذاتية، لاشئ يوجد قبل هذا المشروع بل الإنسان هو الذي يصمم مستقبله ثم يحقق هذا التصميم ما يستطيع إلى ذل سبيلا، وما دام الإنسان مشروعا وتصميما يضعه لنفسه فإنه بالضرورة مسؤول عما يكون عليه، وكل إنسان يحمل المسؤولية الكاملة عن وجوده ولا تقتصر هذه المسؤولية عليه وحده بوصفه فرداً، بل تمتد إلى الناس جميعا لأنّ القرار الذي يتخذه لنفسه يمس سائر بني الإنسان، فهو عندما يختار نفسه هو في الوقت نفسه يختار سائر الناس وفي اختياره هذا تأكيد لقيمة ما يختاره، لأننا لا نختار الشرّ بل نختار الخير، يضيف سارتر أن المسؤولية كلما زادت أكثر ازداد معها القلق باعتباره حالة شعورية تنتاب جميع النّاس، يبدي سارتر حيرته من حالة القلق فيقول كيف لا أكون مهموماً كلّ الهمّ من حالة الوجود الذي أعيشه، فكل الحالات التي يعانيها الإنسان في حياته لم تكن هناك فلسفة تنبّهت إليها من حيث ما يريده الإنسان، إلا فلسفة الوجودية[3] فهي ليست مذهبا يدعو إلى تثبيط الهمّة، بل تدعو إلى الفعل وتقول إنّه ليس ثمّة أمل إلا في الفعل والأمر الوحيد الذي يسمح للإنسان بالحياة هو الفعل، والوجودية هي النظرة الوحيدة التي تعطي الإنسان الكرامة لأنها لا تجعل منه وسيلة.

لقد نادى سارتر بالدفاع عن كرامة الإنسان مثل ما دعا إليه نيتشه من قبل، لأنّ الإنسان في نظرهما هو أرقي موضوعات الفلسفة، فمنه تتطور المعرفة والوجود والقيم وكلّ الموضوعات الاخرى لأنّها مرتبطة به أشد الارتباط لذا نجد اقتراب نيتشه كثيرا نحو الوجودية وتأثيرها عليها من خلال تصوراته ومفاهيمه التي تتطابق كثيرا مع مبادئ التفكير الفلسفي الوجودي، إنّ مآل التأثير هذا من قبل مارتن هيدغر وجون بول سارتر وغيرهم من الوجوديين زاد من انتشار أعمال نيتشه، حيث كثرت حوله دراسات الباحثين سواء الفرنسيين، الألمانيين وحتي الإنجليزيين، يدلّ هذا الأمر على قوة حضور نيتشه الفيسوف الناقد المتحرّر، ونيتشه الشخصية الثائرة التي تسعى دوماً نحو المزيد من الطموح والتعالي دون البقاء رهين ثقافة الماضي والخضوع لماهو سائد من وجود النسق الفلسفي الذي حسْبه يضيّق الخناق على حرية الفيلسوف ويجعله أسير أحكامه السابقة دون مسايرة الحياة في حيويتها وامتلائها الطبيعي.

[1] Jean Paule Sartre, **L'etre Et Le Néant** (Librairie Gaillmard, Paris France, 1953), P 121.

[2] عبد الرحمن بدوي، **موسوعة الفلسفة، ج1**،(المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،الطبعة الأولى، 1984)،ص566

[3] المرجع نفسه، ص 567.

تأثّر سارتر بفكرة الالحاد التي قال بها نيتشه والإلحاد عند سارترهو الالحاد الوجودي الذي يختلف عن الإلحاد الوضعي وعن الالحاد الايديولوجي* الوجود الملحد لا يؤسس إلحاده على مقدمات واقعية صادقة ولا يهدف إلى نتيجة يرجى تحقيقها في الواقع؟ بل يجد أساس تمرده في فعل التّمرد ذاته الذي يؤكد على الاستقلال التام للغرب، هذا الالحاء الوجودي نجده عند الفلاسفة الوجوديين الملاحدة، منهم جون بول سارتر وقبله مارترن وهيدغر... الخ، هذا الالحاد يقوم على الاخلاق والقيّم وهو ليس مثل الإلحاد الطبيعي الذي يقوم على رفض الميتافيزيقا بما فيها مفهوم الإله كما هو عند الوضعيين المعاصرين، بينما يقوم الالحاد الايديولوجي على محاولة إدراك هدف عملي وسياسي، أو اجتماعي كما يعرف عند الماركسيين، ربما الالحاد الذي يقصده سارتر هو نظرة نتيشه إلى أخلاق السادة وأخلاق العبيد، فالأولى مجسّدة في الإنسان الأعلى أما الثانية فتتجسد في الإنسان الضعيف، كان الغرض من ذلك تحقيق أخلاق إلحادية تقوم على نقد الدين باعتباره وسيلة للضعفاء وتبرير أفعالهم، إن الالحاد في نظر بعض الوجوديين وسارتر واحدا منهم يقوم على رفض الاعتراف بسلطة الإله من أجل الحفاظ على الحرية الإنسانية وعلى خطورة القرار ومحاولة التأكيد على أصالة الدوافع الاخلاقية بوصفها دوافعا إنسانية بحتة.

إنّنا ندرك من خلال هذا الأمر أن سارتر أخذ من فلسفة نيتشه كل ما له صلة بمشروعه الفلسفي، بدءاً بالإنسان كيف كان، وكيف سيكون، ثمّ القول بالحرية كفعل إرادي مرتبط بالسلوك الاعتيادي اليومي في تجاوز دؤوب للعوائق والمشكلات التي تقف حاجزا أمام سبيل الإنسان، إضافة إلى الأخلاق إذ أنّها تبيّن لنا المقاصد في القيام بالأفعال، وما ينجم عنها من نتائج من خير أو شر. نستشّف من ذلك أن سارتر وغيره من الفلاسفة الوجوديين وخاصة الملاحدة منهم أن نقد نيتشه للدين جعلهم يعتقدون أن الدين يقف حاجزا أمام تصرفات الإنسان، لأنّ فيه قيود تحدّ من حرية الإنسان وبالتالي فالإحاد الأخلاقي هو الالحاد الوجودي عند الوجوديين ككل، أي ما يميّزها عن باقي الفلسفات من حيث النظر إلى الذات الإنسانية الفاعلة الفردية باعتبارها الموضوع الأساسي للبحث الفلسفي وأيضا معالجة الذات الفردية على أساس التميز بين الوجود (L'existence) والماهية (Esence) بشرط أسبقية الملاحدة الوجود عليها.

يصير الالحاد الاخلاقي انكاراً لسلطة الإله وليس لوجوده، هو محاولة للتمرّد ومحاولة لتحمّل المسؤولية مهما بلغت خطورتها، بل وعلى أخطر وجه لها حتى لو كان الثمن هو

* نظرة الوجوديين الملاحدة الى مفهوم الالحاد يختلف عن نظرة الفلاسفة الآخرين، فالوجوديون الملاحدة يجسدونه في الاخلاق وهي مرتبطة بالحرية التي تخول للانسان أن يفعل ما يشاء دون قيود أو شروط لذا يعتبرون الموقف الديني عائقا للوجود الانساني لما فيه من قيود وأوامر ونواهي تحدّ من حرية الانسان، لكن نيتشه يختلف بعض الاختلاف عن سارتر وهو أنه عندما أعلن عن موت الإله لم يكن يقصد موت الإله كخالق للانسان، بل ان يقصد من ذل نهاية الحضارة الاوروبية المسيحية لذا لا يستعملون كلمة الإله بل "الرب" وأما عند سارتر فهناك تصور عدمي نهائي لوجود الإله و هنا مضمون الاختلاف، أمّا المضامين الاخرى التي نجدها في استعمال كلمة الالحاد عند الوضعيين مثل كارناب فهو رفض الميتافزيقا بما فيها مفهوم الإله، أمّا الالحاد الايديولوجي فهو رفض الأوضاع السياسية والاجتماعية بما فيها مفهوم الإله لأنه يزيدها تعقيداً وانتشاراً.

الخطيئة والقلق، فسارتر يرى أنّ الالحاد الاخلاقي الوجودي يختلف على الوجود الوضعي و الالحاد الاديولوجي، لأنهما يقتصران على انكار الوجود وعدم الاهتمام به، على إثر ذلك يرى سارتر أنّ الالحاد الوجودي يهتم بالقيّم كونها مرتبطة بالإنسان، لما يبثّ فيه من التوتر والاضطراب، مما يتركه في حالة شدّ وجذب لاتنتهي، وهو توتّر خلاّق مبدع يتوقف دائما عند الجديد والمتفرد وعلى وجه التحديد القلق الوجودي بكلّ ما يحمل من آلام وآمال.

إنّ اهتمام سارتر بالقيّم ومحاولة تجديدها بفضل الحرية الإنسانية يشبهه تماماً اهتمام نيتشه من قبله بهذا المسعى، وهذا ما يؤكد جهرةً أن أثر نيتشه بادي جدا ليس على هيدغر وسارتر فحسب، بل على الوجوديين الآخريين المسيحيين ومنهم: كارل ياسبرز،غبريال مارسيل...الخ، ففكرة القلق تحدث عنها نيتشه كثيرا سيّما ما طبع حياة الإنسان في العصر الحديث من حالات وجدانية تبعث فينا المعاناة وحدّة ازدياد القلق والاضطراب، الذي تألم منه الإنسان المعاصر، ففي الوقت الذى كنّا نعتقد اعتقادا جازما بأنّ الإنسان في العصر القديم يعاني الوحدة والعزلة نتيجة عدم توفر حياة سعيدة هاهو الإنسان المعاصر رغم توفر شروط الحياة والامكانات المسخرة لديه إلا أنه شقي وتعيس نتيجة الهموم والمآسي التى تراوده في كل لحظة زمانية ومكانية من فرط المادة وتراجع لمستوى القيّم والأخلاق والدين...الخ.

فعلى الإنسان أن يهتم بذاته وبوجوده لأنّ الوجود ضروري جداً له[1] وهكذا يمثل هذا الوجود الوعي[2] بالنسبة إلى الإنسان من خلال تلك الأسئلة المقنعة التي تحفّزُه أكثر نحو بذل مساعي لفهم هذا الوجود، وكذلك ما نجده عند سارتر هو اهتمامه بعلم النفس الوجودي، فهو مثله مثل نيتشه الذي أولى اهتماما كبيرا بعلم النفس أيضا ومردّ ذلك أن دراسة الحالات النفسية لدى الإنسان والتّمعن فيها تعطينا حقيقة الانفعالات التي يشعر بها المرء دون أن يخفي عنّا أياً منها، ولقد ساعد علم النفس الوجودي على ابراز الدوافع الدفينة في كل واحد منّا وبالتالي كما يرى سارتر أن المعاناة من قلق، خطيئة، اضطراب، حصر الحياة، الموت ...الخ

إذا حدّدنا مدى نوع الاستجابة عرفنا ما الأسباب الدافعة لذلك، هذا ما يفسر لنا اهتمام علماء النفس في ذلك العصر بأعمال نيتشه لما لها من علاقة بأبحاثهم العلمية والنفسية مثل سيغموند، فرويد، أدلر، يونغ ...الخ، الأمر الذي جعل سارتر يتأثر هو الآخر بمثل هذا الاتجاه في التعامل مع الوجود الإنساني برمته وخير ما نعتبر به حسب نيتشه في هذا المقام أن يكون هدف الإنسانية هو الإنسان الأعلى وليس الجنس البشري بأكمله.[3]

---

[1] Jean Paule Sartre, **L'etre Et Le Néant,** Op-cit, P 124.

[2] **Ibid**, 125.

[3] ول ديو كانت، **قصة الفلسفة (من أفلاطون إلى جون ديوي)**، فتح الله محمد المشعشع، (مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة السادسة)، ص531.

الحديث عن الإنسان في نظر سارتر معناه أن الوجود المادي لايكتسي أهمية بغياب الإنسان، وقد ألفت نيتشه النظر بحديثه المسهب عن الإنسان الأعلى (السوبرمان)، في أنّه الكائن الأوحد القادر على فهم مضمون الوجود والحياة بما تكتنفه من مشاكل عميقة، فسارتر تأثر بمثل هذا التّصرف لأنّ مثل هذا الدافع يجعل الإنسان ساعياّ نحو ابداء العديد من الأسئلة المقلقة قصد امتلاك الوعى الفلسفي بحقيقة الذات الإنسانية، وعلاقتها بالظواهر وما تتّصف به من خصائص في هذا الوجود، إنّ حظور نيتشه في فلسفة سارتر يتجلى من خلال أبعاد الفلسفة الوجودية كاتجاه فلسفي يتناقض مع جميع الاطروحات الكلاسكية القديمة التى لم تأبه بمصير الإنسان ولم تتعمق في مبتغاه، لذا وجب تغيير وجة نظر الفلسفة نحو الإنسان ولاشيء غيره.

إنّ كل انفلات يحدثه نيتشه في تاريخ الفلاسفة عموما يتبادر إلى أن أذهان الفلاسفة الوجوديين أنّه ابتكر منهجاً قويما هو المنهج الجنيالوجي الذي يهدف إلى التساؤل عن أصل كل شيء فنيتشه - في اعتقاد سارتر- استعمل مفاهيم فلسفية حديثة وجديدة لم يكن لها نظير من قبل، فهو يعلن عن الهدم بمطرقته، ثم ما يلبث يعلن عن البناء بواسطة إرادة القوة الموجودة في شخصية الإنسان الأعلى، هذا المنهج الحفري أعاد للفلسفة مكانتها المعهودة، ألا وهي ربط كل ما تبحث فيه الفلسفة من موضوعات متنوعة بالحياة الإنسانية، يضيف سارتر أنّ المفاهيم النيتشوية أصبحت الآن مفاهيم حداثية، تجلت بشكل لافت في تيار الوجودية والبنيوية ضمن الفكر الفلسفي المعاصر، هذا المنهج يعتبره سارتر نموذجاً راقيا في بناء التفكير البشري، نظراً لما أحدثه من أثر معرفي بادي من خلال قراءة انتاجه الغزير، ولعلّ إقرار الباحثين الذين قرأوا تراثه الفكري أنّه استطاع ان يقسم الفكر الفلسفي إلى مرحلتين: المرحلة الأبولونية وتمثل كل الفلسفات السابقة، أمّا المرحلة الديونيزية[1] وهي أرقي ما أنتجه فكر الانسان وتمثل التيارات منها فلسفة الحياه لدى نيتشه والوجودية والبنيوية في الوقت المعاصر.

إنّ إرادة القوة تمنح الإنسان الشعور الحدسي[2] في تقرير أهمية الوجود، وبالتالي فإنّ نيتشه بمفرده يشكل ظاهرة فنية[3]، الأمر الذي جعل الفلسفة الوجودية تهتّم بذلك القصور النيتشوي الذي اعتبر قمة التفكير المعاصر.

بعد الحديث عن أثر فلسفة نيتشه في سارتر وتبيّن طبيعة هذا الأثر من خلال حضور اسم نيتشه الفيلسوف في الفكر الفلسفي المعاصر والوجودي على حد سواء، فإننا نريد أن نعرف بعض الانتقادات والاعتراضات الموجهة من سارتر لنيتشه بغية معرفة أين يختلف سارتر مع نيتشه، حيث يرجع سارتر إلى حالة القلق (L'angoise) التي تنتاب الإنسان جرّاء الواقع الذي يعيش فيه ويعتبر سارتر أنّ نيتشه عندما تحدّث عن القلق لم يعالجه من منظور النظر إلى

[1] M.S.SILK AND J-P STERN,**Neitzsche on Tragedy**,(Cambridge University press 1981),P171.
[2] Vatimo agianni, **Introduction a Neitzsche** (de Bocek et larcier**,** 1991, Pour l'édition française, départment de Bocek 1991 Univercité Paris, Bruxelles), P 141.
[3] Op-cit, P141.

الإنسان، أي البحث عن الأسباب الناجمة عن حدوثه، إضافة إلى الحالات النفسية الأخرى، غير أنّه اقتصر على مخاطبة الإنسان الأعلى دون غيره من النّاس وفي هذا الطرح لا يمكن تفضيل إنسان عن إنسان آخر، لأنّنا عندما نتحدث على أنّه حالة وجدانية تعتري كل انسان وليس الإنسان الأعلى كما تصوّر نيشته.

القلق في نظر سارتر يمثل برهاناً على الحرية الإنسانية[1]، بمعنى أنّ الإنسان حيثما يشعر بالقلق يزداد اندفاعا نحو تجاوز هذا العائق وبالتالي يكرّس الإنسان وجوده بالفعل، بفضل امتلاكه الحرية التي تؤكد على الفعل الارادي الحر، هذه الحرية تكشف لنا أننا قلقين وعلى إثر ذلك أشعر أنني حر. من هنا يرى سارتر أنّ نيتشه ركّز فقط على نوع واحد من البشر وكان كلّ مشروعه الفلسفي منصباً على الإنسان الأعلى فقط، وكل التّصورات التي طالما ردّدها في أعماله الفلسفية (العدمية، إرادة القوة، العود الأبدي، تقييم القيم ....الخ) فهي بلاشك تهتم بهذا الصنف الراقي من الإنسانية.

الحرية هي الفكرة المحورية في المشروع السارتري، فالحرية بمثابة القوة[2]، فبدونها ليس لدينا قدرة على مجابهة الوجود، فهو على خلاف نيتشه الذي يرى بأنّ إرادة القوة هي التي تجلب لنا الحرية على النقيض من ذلك فالحرية هي التي تصنع إرادة القوة حسب سارتر، ويكون في هذا السياق قد حذا حذو إيدموند هسرل (1859-1939) (Edmand husserl) ومارتن هيدغر (1889-1976) (Martin heiddeger) في استعماله المنهج الفيتوميتولوجي (الظواهري) في تفسير ظواهر الكون من خلال الحالة الشعورية المتغيرة القصدية* (L'ententionalité) أي كلما كانت هناك حالة شعورية اتجاه معرفة ظاهرة ما، كانت الرغبة موجودة أكثر في السياق ذاته، يبدو لنا أنّ سارتر وقع تحت تأثير المنهج الظواهري في تفسير أصل الوجود.

ثم يضيف سارتر أنّ نيتشه يهمل الجانب الاخر من النّاس الذين يشاركون الإنسان الاعلى همومه ومعاناة الحياة، لئن ركز سارتر على الشعور بالغير فمرد ذلك أن الفلسفة الوجودية عندما شرعت في التركيز على الإنسان لم تخصّص اهتمامها بنوع واحد من البشر، بل هي اتجاه عام للانسانية قاطبة، وهذا ما يفسّر لنا اهتمام سارتر بالإنسان الذي يشارك غيره في المعاناة الأليمة والتجارب المريرة التي تصقل المواهب والقدرات الكامنة في هذا الكائن الوجودي القلق باستمرار، عندما نتمعّن جيّدا بكتابات سارتر يتبدى في بادىء الأمر أنّه ينزع

[1] Jean Paule Sartre : **L'etre Et Le Neant Librairie Gaillmard**, Op-cit, P 71.

[2] Alain graf : **Les Grands Philosophes Comtemporains**, (Edition du seuil 1997), P70.

* استعمل سارتر هذا المصطلح في مؤلفاته، وهذا يدل على الارتباط بين النزعة الفينومينولوجية لدى هسرل وبين النزعة الوجودية لدى تلميذه هيدغر خصوصا في الفكر الفلسفي الألماني المترابط، عكس أنماط التفكير الفلسفي الأخرى في أوروبا مثل الفرنسي و الإنجليزي، وتأثر سارتر بهذا النمط يدلّ على تأثره بفلسفة مارتن هيدغر، على اعتبار أن إيدموند هسرل رائد المنهج الظواهري، حيث ترك أثرا باديا على الفلسفة الوجودية عامة و فلسفة تلميذه هيدغر على وجه الخصوص.

إلى الفردانية (L'indivudualise)، ذلك من منطلق التركيز على مخاطبة الفرد الواحد، لكن في الوقت ذاته نجده يتحدث من داخل الفرد الواحد عن جميع الافراد بدون استثناء ولعلّه ينوّه بالذكر، الحديث عن علاقة الفرد بالآخرين، لأنّ الحالات النفسية من انفعالات كثيرة متغيّرة تنتاب الجميع وليس فردا واحدا بعينه، هذا ما ينبّه إليه سارتر على الدوام، هذا الشعور يجسّد لنا الفهم العميق لحقيقة هذا الكائن الحي ومتابعة وجوده في هذه الحياة، وعلى التفكير الفلسفي أن يضع الإنسان من أولوياته الأساسية، في حين أن نيتشه كان ينزع نحو الفردانية ويركّز جلّ اهتمامه على الإنسان الأعلى حيث تحذوه إرادة القوة ولم يعر نيتشه أي اهتمام بالافراد الآخرين الذين يشاركون السبرمان همومه وقلقه ومعاناته، وكأنّه خلق وحده ليصارع معترك الحياة، لقد كانت هذه الاطروحة في نظر الباحثين أن نيتشه عاش العزلة في حياته ولم يجد بدا من سخطه ومقته على العصر الحديث لأن التنشئة الاجتماعية لدى نيتشه انعكست على شخصيته كفيلسوف ذلك نتيجة تعلقه بالفردانية والابتعاد عن المجتمع. هذا الامر يفسّر لنا الغرابة الناجمة أحياناً عن صعوبة فهم نيتشه كإنسان أولا، ثم كفيلسوف ثانيا، فالافكار والمواقف تكون حسب الحالة النفسية والاجتماعية التى يكون عليها الفيلسوف خلال مراحل حياته، فضمن الضروري إيضاح مستوى الفرق بين نظرة سارتر ونظرة نيتشه إلى الإنسان والوجود لأن الجدل بين الفلاسفة يزيد الامور وضوحا وفهما وليس انتقاصا من قدر الفلسفة وقدرهم هم أيضا، فمن واجب الفيلسوف أن يطّلع على ما سبقه من رؤى فلسفية فيوافقه في رؤية ويخالفه في آراء أخرى.

لايمكن اعتبار وجودية سارتر بأنّها هي الملحدة الوحيدة لكن بالنظر إلى الالحادية كاتجاه فلسفي ضمن الفلسفة الوجودية والنتائج القطيعة المترتبة عنها تقول بأن الإنسان لايعتمد على الله في محاولة فهمه للوجود وليس هناك من يشاركه في أسبقية الوجود عن الماهية (L'existence Précide l'essence) بمعنى أن الإنسان يمتلك وجوده الحرّ، هذا الطرح لدى سارتر يفسّر بالنزعة الوجودية الإنسانية (L'existentialise est un humaainise)[1]، لقد قلنا آنفا أن إلحادية سارتر (aheise) تختلف عن إلحادية نيتشه فكلاهما يعلن عن (موت الاله) لكنّه عند نيتشه لا يخص الله ككائن مطلق لا متناهي! وإنّما قصد أن مفهوم الرب في نظر الديانة المسيحية هو ما تقوم به الكنيسة من سلوكات أثّرت على واقع الإنسان والحضارة، لذا كان موقف نيتشه اتجاهها يتمثل في خلق عدمية حضارة للعدمية السلبية التى كانت نتيجتها الاندثار والدمار والانحطاط فلم يستعمل نيتشه اسم الله بل استعمل اسم الرب والغرض منه -كما أشرنا إليه من قبل- إفلاس وموت الحضارة الأوربية بأكملها ومعها موت المسيحية الغربية، غير أن إلحادية سارتر ليست كذلك، بل تعنى عدم الاعتراف بسلطة الإله، لذا فالإنسان هو مشروع الوجود وحده لا غير.

[1] Alain graf : **Les Grands Philosophes Comtemporains**, Op-cit, P71.

من هنا يكمن الإختلاف بين الفيلسوفين، ينقد سارتر نيتشه في تفسيره للأخلاق لانه دعى إلى تأسيس أخلاق للسادة والطبقة الاستقراطية وتناسى إلى حد الازدراء أخلاق الناس العاديين الذين يكدّون ويشقوْن من أجل الظفر بحياة هادئة، لا تكون الاخلاق بهذا الوصف حسب سارتر، لأنّ الأخلاق في صورتها الحضارية جاءت لخدمة الإنسان والحضارة ولم تأت لفرد معيّن من النّاس، وعلى هذا الاساس اعتبر سارتر أن نيتشه قد أخطا في تصوره لعلم الأخلاق في وقت حصرها في وجود الإنسان الأعلى فقط، فسارتر يعتبر الإنسان هو المشروع الفلسفي في هذا الوجود ولعل النظرة الوجودية تحتفظ بتقديسها للانسان على غرار نيتشه فهو يدعو إلى فلسفة الحياة، وقوله بتجسيد المقولات الإنسانية (العدمية، العود الأبدى، إرادة القوة، تقييم القيم) في الإنسان ليس من أجل الإنسان بذاته بقدر ما يقدمه هذا الكائن إلى الحياة والحضارة، وعليه لم يخضع نيتشه الحياة للإنسان، بل وهب الإنسان لخدمة الحياة، فنيتشه لم يطوّر مذهب العود الأبدي كما كان يدّعي[1]، وبالتالي فهو قد أعاد الاعتبار لفكرة العدمية فعوض أن يعطينا حلاً لها وقع في الخطأ وذلك في ردّ الاعتبار للتفكير المجرّد.

يؤكد سارتر على أهمية القلق بحيث أنّه حالة ملزمة دائما للانسان ذلك نتيجة العصر الحديث بما فيه من مستجدات طارئة تشير فينا حالات مضطربة، يقول سارتر أدرك أنني ثائر وقلق في هذه اللحظة يستمر معي هذا القلق، فلا أشعر أبدا بانني متفائل، إن الوجود لن يمنحنى أبدا ما أريد، لكنني أسعى إلى بناء هويتي التى تسمح لي فيما بعد أن أظل على استعداد في امتلاك القرار الذي يجعلني أسيطر على الوجود بالحرية هنا يتحمل الإنسان المسؤولية على كامل أفعاله كونه واع بها، إنّ الفلسفة السارترية تؤكد على الشعور لأنّ الإنسان يعى كل أسباب افعاله انطلاقا من أنه كائن حر، ولا يمكن الاعتقاد بأنّ اللاوعي أو اللاشعور له مكانه في ذات الإنسان، فهنا ترى أنّ سارتر يرفض أن يكون اللاشعور مصدراً لحالاتنا السيكولوجية الناجمة عن اضطرابات مقلقة نجهل سبب حدوثها، يقول سارتر إن حريتى لا تعترف بأن الموت هو حدّ لها[2]. إنني أشعر بحياتي من خلال الوجود والماهية، ثمّ يتعمّق سارتر في الحديث عن نقده لنيتشه سيّما في اهتمامه بمسالة الوجود والماهية بأنّه لم يقدم لنا تبريرات فلسفية مقنعة تدل على أنّ له نفس تصور الوجوديين، حيث غلب على تفكيره النزعة العقلية التجريدية رغم امتعاضه منها كما يؤكد ذلك في إنتاجه الفلسفي، فهو في نظر سارتر وقع في نفس الأخطاء التى وقع فيها أصحاب النزعة النسقية التي تجبر الفيلسوف على اتباع أفكار النّسق لا تخرج عنها، فهو غير قادر على ممارسة آرائه بحرية تامة، علاوة على ذلك فمفهوم الإلحاد السارتري هو أن يكون الإنسان حرا، تتيح له حرية ممارسة أفعاله بشكل لائق لا تعترض سبيله أي عوائق وموانع، فهو يرى أنّ الحرية هى شرط الأساسي للوجود معها تنتفي

[1] M.Dufrenne et P.Ricoeur, **Karl jaspers et la Philosophie de l'existence**, (Edition du seuil, 1947),
P P 256-257.
[2] Alain graf : **Les Grands Philosophes Comtemporains**, Op-cit, P74.

كل القيود، فهي تجعل الفرد ينبثق وحده اتجاه المشروع الأول والوحيد الذي يكون وجوده باستمرار، وما يعترض سبيله من حتميات وعوائق يعدمها الشعور بالحرية، ففي هذا التصور نجد سارتر متأثراً بفكرة الدازين (Dasein)[1] لدى مارتن هايذغر التي تمنح للإنسان وجوده الحقيقي دون البقاء معلّقا في التفكير النظري البعيد عن الواقع، فواجب الإنسان أن يمارس حريته ووجوده وهذا هو واجب التفكير الفلسفي المعاصر.

تجمع بعض الدراسات أن فكر نيتشه فكر حداثي يساير العصر الحديث والحاضر لما فيه من ابعاد فلسفية وانسانية هادفة إلى تحقيق مبتغي ما يريده الإنسان من تنظيم سياسي واجتماعي تطبع السيران الطبيعي للحياة ويدعوه إلى السعادة الحقيقية في هذا الكون وتزيل معها الشقاء والتعاسة التي كرّستها الاخطاء الجمّة من قبل النظرة الجامدة للحياة، ولكلّ ما يمتّ لها من صلة، و قد سار نيتشه على منحني كانط عندما تساءل عن الغاية من الأخلاق في حياة الإنسان قائلا: ماذا يمكنني أن أفعل؟ في حين أراد نيتشه أن يجيب عن السؤال الذي طالما طرح في المسيحية ماذا عليّ أن أفعل لكي أكون سعيدا؟ وهنا قلب ماهو شائع إلى ما يلي:

كن سعيدا ثمّ إفعل ما شئت. إنّ السعادة ليست تبع العمل الصالح فحسب بل تمثل الخلاص له، فالإنسان ليس بوسعه أن يفعل كل مايشاء، كلا فهو محدّد ومحكوم بالقول "كن سعيدا" وهو قول سابق على كل فعل ويحدّد قيمة كلّ فعل، إنّه إعلاء لقيمة الإنسان والإنسانية على حدّ سواء فلم يكن تأثير في موضع معين، بل كان مؤثراً في اتجاهات الفلسفة المعاصرة، إنّ ما جعل نيتشه أكثر فلاسفة الألمان حضورا وامتداداً حتي القرن العشرين وأكثرهم جرأةً وبسالةً هو الالتزام بمنهجية معينة جعلت الفلسفة تعيد النظر في قضاياها وكيفية التعامل معها، الأمر الذي أثار اهتمام مفكري هذا القرن، حيث فتح لهم مسالك جديدة شكّلت مع التيارات الأنجلو أمريكية فلسفة القرن العشرين، لاسيّما الوجودية والبنيوية - كما قلنا سلفا - مع الحفرية التفكيكية سواء اتّضح ذلك في فلسفة اللغة أم في الفلسفة السياسية، أم في الأخلاق، أم في الأدب والتاريخ.

إنّ أغلب القراءات المعاصرة ترى من نيتشه أنه صاحب مشروع فلسفي عميق الجذور ذا تأويل ممنهج هدفه إرساء ممارسة جديدة في النظر والتفكير، ذلك مايبدو جليا على كل من بول ريكور، ميشال فوكو، جيل دالوز...الخ. كما أن هناك العديد من التوجهات الفلسفية المتنوعة تعتبر نيتشه نموذج لتيارات ما بعد الحداثة[2] (Métamodernité). الصورة الأولى للوجود هي أنّه يعطينا في الحاظر هذا الدازين (Dasine)[3] فهو بمثابة إعلان فوري عن الوجود الإنساني، ففي كل لحظة زمنية تمر إلا وأن تدرك فيها الأبعاد الحضارية والآمال

[1] Jean Paule Sartre, **L'etre Et Le Néant,** Op-cit,P 128.

[2] غانم هنا، **نيتشه فاصل بين حديث و معاصر**، (مقال في مجلة عالم الفكر، العدد السابق)، ص18.

[3] M.Dufrenne et P.Ricoeur, **Karl jaspers et la philosophie de l'existence**, Op-cit, P71

المرجوة التي تسعى الإنسانية إلى تحقيقها دائما، فالإنسان ليس مجرد حالات نفسية ذات دلالات فقط، بقدر ماهو كائن فعّال ومبدع وأصيل يهدف إلى تجاوز ذاته بذاته على الدوام.

إنّ تفعيل القيّم وبنائها من جديد، وتقويم الدين وغيرها من سمات الفكر النيتشوي لدليل واضح على المقارنة بين الوجود الفردي الإنساني في مقابل الوجود المادي المحسوس، لقد كان نيتشه يمثل نقطة تحوّل بالنسبة للفكر المعاصر، ففلسفته مثّلت إلى حد الآن انقلابا جذريا على مستوى الإنسان والحضارة، سيقع الظلم على هذا الرجل إذا عرضت أفكاره في هذه المؤلفات في إطار بحث مقتضب، إنّها تتطلب اطلاعاً واسعاً على آراء نيتشه تفيه حقه، وهذا ما فعله من قام بعرضها وشرحها من أمثال مارتن هيدغر وغيره، ولكن لابد من التوضيح أنّ الرّوح الإنسانية في تفكيره قد سكنت تقريبا في كل من عصره و حياته.

يرى نيتشيه أنّ مراحل تطور وارتقاء الرّوح تتمثل في ثلاث صور تلي بعضها بعضاً، ففي تاريخ البشرية الأولى صورة الجمل هو صبور يحمل أثقال الاخلاق القديمة، لكنه لا يلبث أن يتحوّل في المرحلة إلى صورة أسد يصارع تنين القيّم، وأفضل ما يمثل فيه هذا القول: "أنا أريده في حين تتمثل الأخلاق بالقول "يجب عليك" وفي الصورة الثالثة تتحول الروح إلى طفل يلعب لعبة الخلق[1]، يرمز الجمل إلى الانحطاط والأسد إلى الرّوح الحرة مصارعة القيّم القديمة، أما الطفل فيمثل الإنسان الأعلى صانع وواضع القيّم، وبهذا المنطق يشخّص المؤلف الحضارة الغربية واسماً إياها بالعدمية التي تعني عنده نفي القيّم والمعاني وكل ما رغب فيه الإنسان حتى الآن، وحينما يحل مكان ذلك كله "القيم العليا" فإنّه يلغي بها كلّ قيمة سابقة ويهدّم بناء الكذب الذي شيّدته الفلسفة السقراطية وما تلاها من الديانة المسيحية، وتحمّل الحضارة اليونانية بالإضافة إلى المسيحية في نظره بذور العدم في شتى مظاهرها وأزماتها، هذا ما أقرّه هو وما اعتقد أنه سبق به جميع معاصيريه، من هذا الاندثار والسقوط والوجع.

ينطلق الفيلسوف نيتشيه نحو بناء نهضة فكرية تقويمية جديدة تشبه ثورة كانط (1724-1804) الكونبرنيكية في العصر الحديث، التي تجاوزت نظرة كلا من العقليين والتجريبيين، إنّ الحياة عند نيتشه سمو فوق الذات، و أن تكون القيمة في خدمتها طالما أنّ الحياة ارتقاء إلى أعلى ماهي عليه تسعى إلى تحقيق غاياتها باستمرار، هذا هو هدف الحياة في منظور فلسفة نيتشيه، بأن يحقق الإنسان كل ما يصبو إليه من تطلعات.

لقد وجد نيتشيه المادة التي اعتمد عليها في تشييد فلسفته التي تمتاز بالثورية الشاملة والطموح الجامح، في ثقافة عصره[2]، وهي ثقافة تقوم على الايمان بقيم كان نيتشه يدعو معاصريه إلى أن يتخلّصوا منها وأن يستبدلو بها ما هو خير منها، لأنّها في نظره قيم انحطاط

[1] غانم هنا، **نيتشه فاصل بين حديث و معاصر**، ص12-13.
[2] الربيع ميمون، **نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية**، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1989)، ص88.

وحياة تميل إلى الإنطفاء، إنّ نيتشه لا يحاول إقامة الدليل، بل يعلن أفكاره ويكشفها ويقدم لنا خيالا لا منطقا، ويظفر بنا خياله أكثر من منطقه وهو لا يقدم لنا فلسفة وشعراً فحسب بل إيماناً جديداً وأملاً جديداً وديناً جديداً[1]، إنّ أفكاره وأسلوبه تكشف عن أنه ابن الحركة الرومنتيكية، وفي اعتقاده ما ينبغي أن يطلبه الفيلسوف من نفسه أولا وأخيرا هو أن يسود عصره بنفسه.

لقد كانت عبقرية نيتشيه تكمن في أنّه استطاع ان يلمّ بكل التراث الفلسفي من قديمه إلى حديثه، ويتفحّصه ثم يأخذ منه ما يراه مجديا في رأيه ويترك ماهو غير ذلك، لقد أحدث ثورة هائلة جاءت بالفائدة على ثقافة عصره فزادتها اندفاعا وحماسة لم تضاه من قبل، مالها من قوة الحضور وصدق المشاعر الإنسانية النبيلة في فيلسوف لم يعش لذاته وإنما عاش ليبني وطنه وغيره من النّاس، بهذه الميزات وغيرها ندرك ما لتراثه الفلسفي ومواقفه الجريئة والبطولية من وقع الاثر الهائل الذي أحدثه في العصر المعاصر، حيث أراد بهذا الانقلاب أن يشقّ لنفسه طريقا مغايرا لجميع الفلاسفة، ففيه كلّ ألوان شخصيات الفلاسفة العظام وأفكارهم، وفيه أيضا كا أشجان الحياة من فن وموسيقى ونثر وشعر ...إلخ . لذا كان اسمه حاضرا في عصره رغم وجود حالات مضطربة طرأت على شخصيته نتيجة التنشئة والبيئة الاجتماعية، وحاضراً حضوراً ملفتاً بعد نهاية عمره، ولعلّ هنا يكون الوقع والصدى أكثر من ذي قبل، لم يكن تأثيره جزافا هكذا، أو نعتبره الوحيد الذي ترك أثر دون غيره من الفلاسفة، وإنّما إحقاقاً لشخصه ولأثره الفلسفي وذلك بجسارة وجرأة من كتب عنه، أو بحث في مؤلفاته طوال مسيرته الفكرية والحياتية، لم يدرك ما جعله يؤثر في عصره وما بعده، وظلّت حياته في صراع من أجل الوجود والبقاء[2] في مقارعة افكار كان يراها نيتشه ضدّ الإنسان والإنسانية اتضحت في دور الكنيسة ورجالها الذين عطّلوا حرية الفكر الفلسفي والثقافي، وبكل ما تزخر به الحياة من ابداعات شتى، فوجب إذن الوقوف لها بالمرصاد حتى تتسنى لنا بناء الحياة بالتضحية والعمل على المحافظة عليها.

إن مبحث الوجود من المباحث الأساسية، التي اشترك فيها نيتشه مع هيدغر و سارتر، و هذا يدلّ على أنهم استطاعوا أن يتناولوا البحث تناولاً فلسفياً اختلف عن ذلك التفسير الماهوي التجريدي القائل بضرورة أسبقية الماهية عن الوجود، عكس ما قالت به الفلسفة الوجودية تيار فلسفي معاصر، و من فرط النقد الذي أحدثه نيتشه في تاريخ الفلسفة بحسب موضوعاتها وطريقة التفكير المنتهجة حيال هذه القضايا : الوجود، المعرفة، القيّم، الأخلاق ... إلخ، كانت الثورة النيتشوية قد أحدثت قطيعة معرفية مع الأنساق الفلسفية، لقد أفضى نيتشه إلى فتح آفاق جديدة أثناء ابتكاره المنهج الجنيالوجي قوامه الحفر في البحث عن إعادة مباحث وترتيب

[1] ول ديورانت، **قصة الفلسفة**، ترجمة الدكتور فتح الله محمد المشعشع، (منشورات مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، المطبعة السادسة)، ص 549.

[2] ميشيل فوكو ، **جينيالوجيا المعرفة**، ترجمة أحمد السطاتي، عبد السلام بن عبد العالي، (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب)، ص55.

الموضوعات الفلسفية عن جديد من خلال إصراره على المقولات المعهودة لديه و هي إرادة القوة، العدمية الفاعلة، الإنسان الأعلى، العود الأبدي، فكل هذه الصفات جسّدها الفن بأشكاله المتعددة.

إن الإنسان هو الذي يتحكم في وجوده و في وجود الموجودات الماثلة أمامه، و ترك مجال الحرية حتى يتسنّى له القيام بالفصل الحر في ممارسة وجوده وفهمه باستمرار، ففي هذا السياق نجد أن نظرة سارتر إزاء أعمال نيتشه، وذلك أن طبيعة الثقافة في ألمانيا تختلف عنها في فرنسا هذا من جهة، ومن جهة أخرى تأثر الفلاسفة الفرنسيين الوجوديين على وجه التحديد بالتراث الوجودي الألماني الزاخر المتمثل في فلاسفة وجوديين ألمان منهم ياسبرز، مارسيل، غادمير ...إلخ، إضافة إلى ذلك اختلاف نظرة سارتر عن نظرة هيدغر، فالأول يقسّم الوجود إلى وجود في ذاته و وجود لذاته، بينما الثاني يقسّم الوجود إلى الوجود الإنساني، والإنسان في الوجود (الموجود فيه)، وعلى هذا الأساس نقول: أنّه رغم اختلاف وجهات النظر الفلسفية لدى الفلاسفة الثلاثة يبقى نيتشه واحداً من الفلاسفة المعاصرين الذين تركوا أثراً على الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر.

خاتمة

كل عام يمرّ يزيد من غرابة وقع كلمات نيتشه على الآذان، لقد كانت فلسفته تمثل انعطافا تاريخيا في تحول الفكر الفلسفي الذي غلب عليه في اعتقاده الجانب النظري في معالجة قضايا الفلسفة ، خصوصاً لدى سقراط و غيره من الفلاسفة ، على الرغم من أنها نظرت إلى الإنسان، إلا أنّها في اعتقاد نيتشه لم تهتم بالواقع و معالجة مشكلاته، من هنا يرى نيتشه أنّه يجب على الفلسفة أن تنظر في الإنسان و تحاول أن تفهم حياته، وهذا ما جعل نيتشه يُخضع الفلسفة إلى الحياة حتى لقّب من قبل بعض الباحثين بأنّه نقل الفلسفة من التفكير النظري المجرّد نحو فلسفة الحياة، فكانت وجهة نظره هذه مخالفة لتصورات الفلاسفة السابقين و حتى المحدثين منهم، ومن ثمّة تصبح الفلسفة فلسفةً لإرادة الحياة.

إن هذا التحول يتجلّى في تلك القضايا التي أثارها نيتشه وأبدى اتجاهها مواقفا فلسفيه دلّت على عمق تلك التجارب الإنسانية التي عاشها في مراحل عمره كاملة، ولعلّ خير دليل على ذلك دراسات الباحثين حول فكره التي أجمعت على أنّه فيلسوف لا مذهب استثنائي أثر في غيره من فلاسفة عصره خصوصاً انتاجه في كل مرحلة، حيث أكاد أقول: إن نيتشه ظلّ مفكرا حيا حتى أواسط هذا القرن ثم ما لبث أن صار فيلسوفا تاريخيا.

رسالته في الحياة لم تكن مثل رسالة الفلاسفة الذين سبقوه أو الذين عاصروه أو الذين أتوا من بعده، حيث أقاموا مذاهبا فلسفية بل كانت رسالته رسالة ناقد للحضارة التي يعيشها، على الرغم من أنّه كان ابنا لها، استطاع نيتشه أن يؤثر في كل التيارات الفلسفية التي وجدت في عصره، ويرجع ذلك إلى انتشار فلسفته في ألمانيا وفرنسا خاصة. يبدو تأثيره أكثر في الفلسفة الوجودية لما تمتّعت به فلسفته من جرأةٍ نحو نقد كل مالا يبعث في الحياة من حرية في التفكير وفسح المجال للإنسان حتى يتسنى له الاهتمام بالقضايا المصيرية كالفن، الموسيقى والشعر،...إلخ. وعلى هذا الأساس لم يقصد نيتشه عند قوله إعادة بناء التفكير الفلسفي معناه أنّ الفلاسفة الذين سبقوه قد أخطأوا، أو ليس لآرائهم أبعاد إنسانية، وإنّما قصد بذلك أنّ التصور السقراطي القديم باعتباره أوّل الفلاسفة الذين كرّسوا الوعي الذاتي في مخاطبة الإنسان **"إعرف نفسك بنفسك" "Connais Toi Même"** أنّه لم يكن يخاطب الإنسان ككائن وجودي، يهتم بمشاكل حياته ويعالجها وفق تفكير سليم يفهم الحياة و يسايرها على الدوام، هذا من جهة، و من جهة أخرى تجاوز نظرة جون جاك روسو، باعتبارها نظرة حديثة من بين الآراء الأخرى التي تهدف إلى تأسيس منهجٍ جديدٍ لبناء صرح العلوم الإنسانية.

تجسّد هذا المسعى من خلال تأثر نيتشه بالفكر اليوناني القديم وتعلّقه الشّديد بالفكرة الديونيزية[1] المفعمة بحب الحياة العميق، بعيدا عن المغالاة في العقلانية والتنظير العقلي في كل القضايا الفلسفية التي طبعت المرحلة الأبولونية.

[1]M.S. SILK AND J-P STERN,**Neitzsche on Tragedy**,(Cambridge University press 1981),P332.

إن التأثير النيتشوي بدا واضحا في ظهور الفكر الحداثي في الفلسفة المعاصرة حيث تيار الوجودية، وتأثّر الفلاسفة الوجوديون بتصوراته الفلسفية في شكل مقولات كإرادة القوة، التعالي، الإنسانالأعلى، العود الأبدي كونها استقطبت اهتمام الفلاسفة الوجوديين برمتهم.

فالمقولات النيتشوية ازدادت تعمقا فيما نلحظه في خطابات مارتن هيدغر (Martin Heidegger) كارل ياسبرز (Karl Jaspers) وغيرهم من الوجوديين الألمان، ناهيك عن الوجوديين الفرنسيين مثل جون بول سارتر (Jean Paule Sartre) ألبير كامي (Albert Camus) حتى غدت فلسفته أكثر اتساعا وشهرة.

وقد كان لفلسفته صدى واسعاً في بروز تيار البنيوية في الفكر المعاصر وأقطابها ميشال فوكو (Michel Foucault)، جاك دريدا (Jacke Derida)، جيل دولوز(Gille Deleuze) ...إلخ، فهولاء اعترفوا بفضل فلسفة نيتشه وما حملته من مواقف فلسفية جاءت مخالفة لآراء بعض الفلاسفة، رغم مانشهده من وجود امتعاظ ونقد من قبل خصومه في بلده الأصلي وفي أوروبا عامة.

استعمل نيتشه في كتاباته الهدم والبناء، حيث لجأ في بداية الأمر إلى الإعلان عن إفلاس الحضارة والإنسان المعاصر نتيجة الوضع المتأزم وافتقار الإنسان للقيم والأخلاق والمجد، لأنها كما رأى نيتشه : عولجت وهي بمنأى عن الحياة، فكل الفلسفات القديمة أغرقت في التجريد المطلق (L'abstrait absolu) وتناست الإنسان الذي يعيش في كنف الحياة.

وهكذا كان المشروع النيتشوي محاولة جادة في إعادة بناء التفكير الفلسفي من جديد وإعادة بناء ترتيب الموضوعات التي تبحث فيها الفلسفة بدءا بالإنسان أولا، فالإنسان يعد القضية الجوهرية وذلك من منطلق أن كل موضوع له صلة وثيقة بالحياة.

لقد أوحت إلينا ثورة نيتشه الفيلسوف بابتكار المنهج الجنيالوجي، فهو منهج يبحث في أصل الأفكار والمواقف وكيف توظف بشكل لائق يخدم الإنسان والحياة دون ان تظل في نمط التصور الذهني.

إن الخطاب الذي استعمله نيتشه جلب اهتمام العديد من الفلاسفة والباحثين في التعرف على صفات التفكير الفلسفي لديه ومعرفة المصادر الفلسفية التي استقى منها نيتشه فلسفته في الحياة، فنيتشه نتاج أصيل للقرن التاسع عشر[1]، إنه يفتخر دائما بأنّه يتحدث للمستقبل وأن أفكاره لا تفهم إلا بعد مرور بضع سنين. هذه النظرة الإستشرافية نقده فيها الكثير من الفلاسفة، من منطلق أنّها ليست إيجابية ، و اتّسمت انتقادات الفلاسفة لآراء نيتشه بنوع من الحِدّة بأنّه بالغ

[1] د. فؤاد زكرياء، **نيتشه**، (سلسلة نوابغ الفكر العربي، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر الغربية، الطبعة الثالثة)، ص08.

كثيرا في الاهتمام بالإنسان و الحياة من خلال وضعه لمفاهيم تحتاج في اعتقادهم إلى تبرير فلسفي بعيدا عن الذاتية المفرطة و الجنوح نحو الموضوعية في إبداء حرية الرأي.

إنّنا نهدف من وراء ذلك كله إلى الاحتكام إلى التفكير المنطقي، لكونه يُبعدنا عن الإطراء و المدح لشخصية نيتشه، واضعين بذلك التنويه إلى ابراز منطلقاته الفكرية والفلسفية وإيجاد مبررات معرفية مقنعة لمفاهيمه الفلسفية المتداولة في مؤلفاته.

إنّ العلاقة التي تربط نيتشه بالوجودية هي علاقة تأثير، فقد استطاع أن يترك أثرا على الفلاسفة الوجوديين حتى أنهم صرّحوا بذلك من قوة حضوره الشخصي وعمق فلسفته المتحررة،إلى درجة اعتبروه فيلسوفاً وجوديا تجاوز طرح الوجوديين في حد ذاته.

لقد كان يتحدث عن مفاهيم كان لها نفس المدلول عند الوجوديين (الإنسان، الوجود، الماهية، إرادة القوة، العدمية، التعالي، الإنسانالأعلى، العود الأبدي،... إلخ)، فهذه المقولات تجاوز بها نيتشه الخطاب الوجودي في حد ذاته والوجوديون أنفسهم الأمر الذي جعله يفوقهم كثيرا، فمن خلال جرأته وحماسه الفياض وتمرده المتقلب أضحى في نظرهم فيلسوفا يتميز عن غيره بصفات لم توجد في أقرانه من الفلاسفة.

أمام هذا الاكتساح نلحظ أن نيتشه قريب جدا من الوجودية أكثر من غيرها وإن كنا نلمس فيه بعض الجوانب الفلسفية من تيارات أخرى، إلا أن الوجودية فلسفة رائدة تقدس الإنسان كثيرا أنه عانى كثيرا من ويلات الواقع التعيس لأجل ذلك ناضل نيتشه حتى يرد الاعتبار لكل القيم الإنسانية بعدما طمستها العدمية والانحطاط، فكان جديرا أن يعلن عن ميلاد الإنسانالأعلى القادر على حمل مشعل التقدم والبناء.

والملاحظ في فلسفة نيتشه أنه يستعمل التصور وضده أو الكلمة وضدها، فهو يوصف الحضارة المعاصرة بالعدمية السلبية (NIHILISME NEGATIVE) ثم يلجأ إلى مفهوم إيجابي المتمثل في العدمية الفاعلة (NIHILISME POSITIVE) ويقصد بذلك رؤيته الفلسفية الجديدة لمختلف الأمور فبداية انطلاقة جديدة.

وعليه يلجأ إلى نقد الإرادة بمفهومها الكلاسيكي العقلاني التجريدي نحو إرادة القوة المجسدة في الإنسانالأعلى (السوبرمان)، يضع الأعلى بدل الإنسان الأخير،....إلخ.

نحن لم نبالغ في تعظيم نيتشه وإنما أردنا أن نستوفي الرجل حقه، فنهدف إلى إبراز ملامح التفكير الفلسفي لديه ونتحرى الحقيقة كونها قضية تشغف كل فيلسوف أو باحث، وكان المقصد من هذا البحث هو تحديد العلاقة الوطيدة بين فكره الفلسفي وبين فكرة الوجودية، وأين تكمن طبيعة التصورات الفلسفية التي تجمعها.

إضافة إلى إبراز مكانة تأثير نيتشه في الفكر الفلسفي المعاصر وبالتالي يعد التراث النيتشوي مصدر إلهام لتيار الفلسفة الوجودية وغيرها من التيارات الفلسفية الأخرى في الدفع نحو الأمام في إعادة تناول القضايا الإنسانية والفلسفية بشكل منظم ومتميز عن طابع النسق والاحتكام إلى المبادئ دون الحياد عنها إلى نمط آخر يهتم بالإنسان والحياة معا، وإخضاع كل القضايا المصيرية إلى الواقع وهنا تكمن رسالة الفلسفة والفيلسوف.

ومع كل ذلك يظل نيتشه مفكرا يقرأ الناس له ويقرؤون عنه بشغف واهتمام ومهما تباعد تيار العصر عن أفكاره الأصيلة سيبقى الناس يجدون متعة في كتاباته فلا يجرؤ أحد أن ينكر إخلاصه للإنسان وللحياة، ولن نكون مبالغين إذا قلنا: لا نجد عبقريا دفع ثمنا غاليا لعبقريته ما دفعه نيتشه[1].

[1] ول ديورانت: **قصة الفلسفة**، ترجمة الدكتور فتح الله محمد المشعشع، (منشورات مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، المطبعة السادسة)، ص 553.

قائمة المصادر و المراجع

1-المصادر باللغة العربية:

1. نيتشه (فريدريك): أمور إنسانية، إنسانية إلى أقصى حد، الجزء الأول، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002.
2. نيتشه (فريدريك): بمعزل عن الخير و الشر، ترجمة جيزيلا فالور حجّار، دار الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1995.
3. نيتشه (فريدريك): هكذا تكلم زرادشت، ترجمة د على مصباح، منشورات الجمل، الطبعة الأولى 2007.
4. نيتشه (فريدريك): هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فيليكس فارس، دار القلم، بيروت، لبنان، بدون طبعة.
5. نيتشه (فريدريك) ، العلم المرح، ترجمة وتقديم حسان بورقبة، محمد الناجي، افريقيا، المغرب، .2000

2-المصادر باللغة الأجنبية:

1) Nietzsche (Friedrich): Ainsi Parlait ZaraThroustra، sigma، Edition 1885.
2) Nietzsche (Friedrich): Aurore، traduit par Julien Hervieve، sigma، Edition، 1880.
3) Nietzsche (Friedrich): Eléments pour la Généalogie de la morale،traduit par Patrick Woling، Libraire générale، française 2000.
4) Nietzsche (Friedrich): Humain trop Humain،Tombe I، traduit par robert Rovini، Edition،Gaillmard 1876.
5) Nietzsche (Friedrich): humain trop humain، Tombe II، Traduit Par Robert Rovini، Edition Gaillmard، 1879.
6) Nietzsche (Friedrich): L'antéchrist، Traduit Jean Claude Hemery، Edition Gaillmard، Paris، 1974.
7) Nietzsche (Friedrich): La naissance de la tragédie، traduits par genevieve Bianquis،Gaillmard، Paris، 1982.
8) Nietzsche (Friedrich): La philosophie، l'époque tragique des grecs، Traduit par jean louis backes، et Michel Haar et Mer B. de lounay، Edition Gaillmard، paris، 1975.
9) Nietzsche (Friedrich): La Volenté de puissance، tombe I، Traduit Par GenevieveBianquis، Edition Gaillimard، Paris، 1947.
10) Nietzsche (Friedrich): La Volenté de puissance، tombe II، Traduit Par GenevieveBianquis، Edition Gaillmard، Paris، 1948.
11) Nietzsche (Friedrich): le cas wagner،Jean Claude héméry، Gaillmard، Paris، France.

12) Nietzsche (Friedrich): Le Crépuscule des Idoles، Traduit par Heneri Albert، Flammarion، Paris،France.
13) Nietzsche (Friedrich): Le gai savoir، Traduit par pierre Klossowski، Gaillmard، 1989.
14) Nietzsche (Friedrich): Par De La Le Bien et Le Mal، Traduit Par Genevieve، Bianquis lebrerair générale francaise 1885.

3-المراجع باللغة العربية:

1. أشبنغلر (أسوالد): تدهور الحضارة الغربية، الجزء الأول، ترجمة أحمد الشيبأنّي، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان (بدون تاريخ).
2. بدوي (عبد الرحمن):خلاصة الفكر الأوروبي نيتشه، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الخامسة، 1975.
3. بدوي(عبد الرحمن): دراسات في الفلسفة الوجودية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1966.
4. دولوز (جيل): نيتشه و الفلسفة، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1993.
5. ديورانت (ول) ، قصة الفلسفة (من أفلاطون إلى جون ديوي)، ترجمة الدكتور فتح الله محمد المشعشع، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة السادسة، بدون سنة.
6. رسل (برتراند): حكمة الغرب ج2، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، الطبعة الأولى، سنة 1983.
7. زكرياء (فؤاد): سلسلة نوابغ الفكر العربي، نيتشه، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الثالثة .
8. الشيخ (محمد) ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، 2008.
9. طريف الخولي يمنى ، فلسفة العلم في القرن العشرين، (سلسلة عالم المعرفة للثقافة والفنون والاداب، الكويت، الطبعة الأولى، 2000)،
10. غرانبييه (جان): نيتشه، ترجمة د- على بوملحم، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
11. فوكو (ميشيل): جينيالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي، عبد السلام بن عبد العالي، دارتوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.
12. فينك (ويغن): فلسفة نيتشه، ترجمة الدكتور إلياس بدوي، دمشق منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1974.
13. مفرج (جمال): نيتشه الفيلسوف الثائر، افريقيا الشرق، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2003.

14.مونتيبيلو(بيير): نيتشه و إرادة القوة، ترجمة د- على مفرح، الدار العربية للعلوم، منشورات الإختلاف.
15.ميمون (الربيع): نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1989.

4-المراجع باللغة الأجنبية الأولى:

1) Berger (Licheten): La philosophie de Neitzsche، Paris، Alcam، 1908.
2) Cambelle (R) : expliquez moi، l'existentialisme، Les Editions Foucher، Paris، France.
3) Camus (Albert): L'étranger et autres nouvelles ouvrage présente par tayeb Bouguerra، Enag Editions Alger 2012.
4) Déluze (Gille): Neitzshe et la philosophie، P.UF، 1983.
5) Dufrenne (M) et Ricoeur (P):Karl et la Philosophie de l'existence، Edition du seuil، 1947.
6) Foulquié(Paule): L'existentialisme (que Sais je)، presses universitaires، Paris، France 1948.
7) Gianni (Vatimo): Introduction a Neitzsche، de boeck et Larcier، Edition française، 1991.
8) graf (Alain): Les grands philosophes comtemporains، Edition du seuil 1997.
9) Granier (Jean): Nietzsche Vie et la vérité، Edition presse universitaire France، 1971.
10) Hayman (Roland): Nietzsche، Les vois de Nietzsche، Traduit de l'anglais par christian cler، Edition du seuil، France 2000.
11) Heidegger (Martin): Chemin qui ne menent nulle part، traduit par Wolfang Brokmier Gaillmard، 1986.
12) Heidegger (Martin): Nietzsche Tombe I، traduit de l'allemand par pierre klossowski Gaillmard.
13) Jaspers (Karl): Nietzsche، (Introduction à sa Philosophie)، Traduction Heneri Albert، Gaillmard، Paris، 1978.
14) Jean (Granier): Le Problème de la vérité dans la philosophie de Nietzsche، Les Editions du seuil 1966.
15) Juranville (Alain): La philosophie comme savoir de L'existance، volume I l'alterité presse universitaires de France 2000.
16) Kierkeggard (Sorén)، Kierkeggard vivant ،L'unesco ، Paris ،Gaillmard، 1964.

17) Kierkeggard (Sorén)، Traité du désespoir، Traduit Par knud ferlov et Jean claude Gateau، collection les essais، Gaillmard، Paris، 1849.
18) Rey (Abel): Le retour eternal et la philosophie de la physique، Paris 1927.
19) Sartre (Jean Paule): L'être et Le Néant Librairie Gaillmard، Paris France، 1953.
20) Sartre (Jean Paule): les mots traduit par thomas clec، Bordas، Paris، 2004.

5- المراجع باللغة الأجنبية الثانية:

1) Ayer Alfred (jules)، Language، TruTh and Logic. University London، 1936.
2) SILK (M.S.)AND STERN (J-P)، Neitzsche on Tragedy، combridge University press 1981.

6- المعاجم والموسوعات والمجلات:

أ-المعاجم:

1) صليبا(جميل): المعجم الفلسفي،الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1994

ب- الموسوعات:

1) بدوي(عبد الرحمن)، موسوعة الفلسفة، ج1، ج2، الموسوعة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 1984

ج- المجلات:

1) هنّا (غانم): نيتشه فاصل بين الحديث والمعاصر مجلة دورية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت العدد 4 أفريل يوليو 2002.
2) مفرج (جمال):ليوتاردو والإرث اليساري للنيتشوية، مجلة أوراق ثقافية، العدد الرابع والخامس، يوليو، ديسمبر 2001.